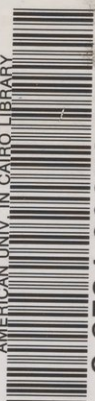


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



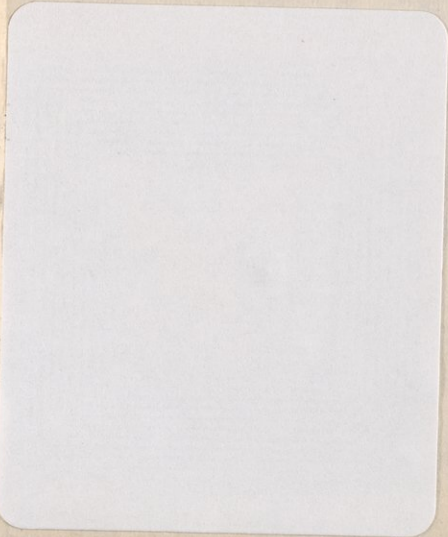
3 8534 00973 7754

D
5
A
1



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



04-B5465

APR 1965

ГҮ

مدرسة

المدرسة
الصلوات
توفيق

DF
553
A33X
1951

الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية

تأليف

دكتور ابراهيم احمد الجعدوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم - بجامعة فؤاد الأول

مستند الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية بالجيزة

مطبعة لجنة البيان العربي ، شارع مصطفى الشاكامل بالقطرية

TY

تصدير

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك

رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

للتاريخ البيزنطي حقوق الجيرة والشفعة في بناء تاريخ البلاد الإسلامية ، بل حقوق الشريك القديم كذلك ، لأن إمبراطورية المسلمين امتدت أول ما امتدت إلى بلاد بيزنطية في غرب آسيا وشمال إفريقيا ، وهذه بلاد تكوينها الحضارى أشبه شئياً بمجموعة من حضارات متراكمة بعضها فوق بعض طبقات ، وآخرها وأوضحها للمسلمين وقتذاك حضارة البيزنطيين .

وللبيزنطيين كذلك آثار واضحة في الحياة العامة ببلاد العرب نفسها قبل الإسلام ، ومصداق ذلك وجود المسيحية البيزنطية (أرثوذكسية ونسطورية) في جوف نجران ومخالف اليمن وأطراف العراق الأعلى ، ثم نشاط التجارة البيزنطية في بعض أمهات المدن العربية وموانئ البحر الأحمر . وهذا وذاك مما يشرحه هذا الكتاب في شئياً من التفصيل الذى يجعل الاهتمام بالتاريخ البيزنطي (والتاريخ الإيرانى كذلك) بديهية خالصة مطلقة عند أجيال القومة على التاريخ الإسلامى .

وسوف يرى قارىء هذا الكتاب أن دراسة التاريخ الإسلامى وتدرسه لا يصلحان ولا يصلح صاحبهما إلا إذا تأهل أولاً بنصيب — ولو قليل — من التاريخ البيزنطي (والتاريخ الإيرانى كذلك مرة أخرى من باب التأكيد) . وهذا هو قول المعنيين بالدراسات التاريخية الإسلامية في مصر وغيرها من البلدان . ولست أقصد بذلك أن يصبح الأخصائى في التاريخ الإسلامى أخصائياً كذلك في التاريخ البيزنطي والإيرانى معاً ، بل يعرف من التاريخ البيزنطي — مثلاً — ما يجعله

في غنى عن استعمال لفظ « الروم وصاحب الروم » للدلالة على الدولة البيزنطية وأباطرتها وعلاقتهم المختلفة بالدولة الإسلامية وخلفائها وسلطانيتها في مختلف العصور. وفي هذا الكتاب ما يدل على هذه العلاقات وأنواعها ، وعلى مقدار ما أفاد المسلمون من الحوادث والنظم البيزنطية في الحرب والسياسة والبلاط والحاشية والادارة . ثم إذا أنا تكلمت بلبغة الآثار فلا أستطيع إلا أن أضيف إلى اقتناعي الراسخ اقتناعاً أرسخ بوجود الاهتمام بالتاريخ البيزنطي من جميع نواحيه في دوائر التاريخ الإسلامي . ولن حاجه الدليل على ذلك أن ينظر إلى باب النصر وباب الفتوح بسور القاهرة القديمة ، وإلى مدخل الجامع الأموي وسوق حميدية بدمشق ، ثم ينظر إلى بعض أجزاء من سور القسطنطينية البيزنطية وسوق استانبول الممتد وراء جامع بايزيد ، ليرى بنفسه مدى ما استمد المسلمون من البيزنطيين - وغيرهم - في الطرز المعمارية ، وهي من أهم الدلالات على أحوال المجتمع في أية دولة من الدول عبر التاريخ كله .

غير أني أقول في وضوح وحماسة علمية أن هذا الكتاب - على فائدته الواضحة - باكورة صغيرة أرجو أن يتلوها محصول كبير ، لأن مراحل التاريخ الإسلامي في غرب آسيا وشمال إفريقيا على كثرتها ، لا تكاد تخلو طويلاً من علاقات متنوعة وصلات بالتاريخ البيزنطي ودخائله . ثم إنى أود أن يكون ذلك المحصول الكبير مليئاً بعبء - على الأقل - بدراسات بيزنطية أصلية بجمته ، وأتمنى أن يكون صاحب هذا الكتاب صاحبها ، وأن يكون معظم المحصول المنتظر من ثماره الناضجة ، فإنه خليق بإنتاج علمي وافر من هذا المستوى على مرّ السنين ، لتوضيح مداخل التاريخ الإسلامي وجوانبه في العصور الوسطى .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة } ١٥ ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ هـ
 ٢٣ يناير سنة ١٩٥١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مفتحة

بظهور الإسلام قطعت عجلة الشرق دورة كاملة في مجرى تاريخها الطويل ، إذ استرد الشرق غابر مجده ، واستعاد سالف هيئته وسلطانه . فنذ فتوحات الإسكندر المقدوني ارتبط الشرق بركاب الغرب ، ثم جاءت الإمبراطورية الرومانية الكبرى فشدت وثاق هذا الارتباط ، وأخذت تجنى من بلاد الشرق مالد لها وطاب . على أن مطالع القرن الرابع الميلادي آذنت بتحول عجلة القيادة صوب الشرق حين أحس أباطرة الدولة الرومانية الكبرى ضرورة نقل عاصمتهم إلى الطرف الشرقي من إمبراطوريتهم . فقد اضطرب جوف الشرق بحركات غدت منبع خطر ملح على كيان الدولة ، ورأى الأباطرة ضرورة إقامتهم قرب هذا المنبع لدفع غوائله عن صرح إمبراطوريتهم العتيقة .

وتمت الخطوة النهائية في تلك السبيل حين انتقل الإمبراطور قنسطنطين الكبير إلى مدينة بيزنطة على البسفور واتخذها مقرآله . على أن أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي لم تلبث أن أودت بكيان القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، وخلفت القسم الشرقي منها مثقلا بأعباء الإمبراطورية الأولى . وجاء استمرار هذا القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية حملا جثم على الشرق ورقيباً وقف لحركاته بالمرصاد . فدأبت هذه الإمبراطورية على التطلع إلى الشرق بعين ملؤها الحذر مما حملها على أن تحتط لنفسها سياسة شرقية باعدت بينها وبين أهداف أمها الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، وجعلتها قينة أن تدعى الإمبراطورية البيزنطية .

ولكن يؤتى الحذر من مأمته ، فبينما الدولة البيزنطية تمنع في سياستها الشرقية لاح نور الإسلام في بقعة تركتها سياسة الدولة البيزنطية نفسها ممهدة لظهور الدعوة المحمدية السامية . ولذا يهدف هذا الكتاب إلى بيان تخلص الشرق من ربة الدولة البيزنطية بفضل هذا الدين الجديد ، وكيف استطاع أن يكسب مقومات جعلته وحدة عالمية ذات أفق واسع .

فعالجت في الفصل الأول سياسة الدولة البيزنطية في بلاد العرب « مهد الإسلام » ، وكيف هيأت الأحداث العالمية إذ ذاك الجولا لتشار الدعوة الإسلامية في هذه البلاد . ثم تناولت في الفصل الثاني ما أفاده الإسلام من التيارات المختلفة التي امتلأت بها الدولة البيزنطية حتى خلص منها بوجه خاص الشام ومصر ، هاتين الدولتين الشرقيتين ، موطن الحضارات القديمة . ثم عرضت انتقال دول الشرق الإسلامي من دور التكوين إلى دور الكفاح للذود عن حياضها وإعلاء شأنها . ذلك أن المسلمين أخذوا ينافسون البيزنطيين في السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، الذي غدا إذ ذاك قلب العالم النابض ومنبع القوة لكل من تطلع إلى السيادة والسلطان . ثم إن هذا الكفاح الذي بلغ ذروته في محاولات المسلمين الإستيلاء على القسطنطينية وانتهائه ببقاء هذه العاصمة بعيدة عن متناول قواتهم علمهم كيف يؤقلمون سياستهم ، وأن دولتهم أضحت تكوّن مع الإمبراطورية البيزنطية محورا تدور عليه أحداث العالم إذ ذاك .

وهنا يتضح في الفصل الثالث كيف حافظ كل من الفريقين على بقاء الميزان السياسي بينهما متعادلا ، وأن ما يطرأ على علاقتهما السياسية من أخذ ورد إنما هو من علامات الحياة وما يصاحبها من سنن . ثم عرضت في الفصلين الرابع والخامس مظاهر تعاون الدولتين على ما فيه نفعهما ، من تبادل تجارى وثقافى ، وتزود كل فريق من معين الآخر بما يقتضيه ذلك من القيام بزيارات وتبادل احترام المعتقدات .

(ز)

وفي هذا العرض السالف ابتعدت عن الإغراق في التفاصيل التي تجعل القارىء يضرب في بقاء متشعبة المسالك لانهاية السراب . كذلك جعلت فترة ظهور السلاجقة والنورمان نقطة إنتهاء السرد التاريخي للعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين في هذا الكتاب . ذلك أن الدور الذي قامت به هاتان القوتان يعتبر نقطة تحول في تاريخ العصور الوسطى العام ، أبعدت المسلمين والبيزنطيين عن انفرادهما بتبؤى أسمي مكانتين في العالم .

إن الحقبة التي يتناولها هذا الكتاب هي الأرض البكر التي يجب أن يعمل فيها الراغبون في النهوض بالشرق الإسلامي ، وتقدير ثمرة جهودهم لدعم الأسس التي يقف عليها صرح دولة اليوم . ولعل ماقت به في هذا الصدد من عرض عام يجذب الأذهان إلى أهمية هذه الحقبة من تاريخ دول الشرق الإسلامي ، وأعشم أن تكون هذه القطرة طليعة غيث منهمر من أبحاث أبناء الشرق يعذى تربة بلادهم ويكسوها نضرة وبهاء .

وإني إذ أتطلع إلى المستقبل الباسم في هذا الميدان أذكر هذا العمل الصامت المسموع الذي ساهم به أستاذي الدكتور محمد مصطفى زيادة في هذا الصدد ، إذ ساعدني مساعدات صادقة في إخراج هذا الكتاب ، إلى جانب تيسيره لي مهمة الاطلاع على مذكراته الخاصة التي أعدها في هذا الموضوع ، وأعشم أن يجد القراء في هذا الكتاب باكورة لرفع قواعد هذا الصرح من الدراسات التاريخية التي وضع أسسها الدكتور مصطفى زيادة ليس في مصر فحسب ، بل وفي بلاد الشرق الإسلامي أجمع .

إبراهيم العدوى

الجزيرة في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٧٠ هـ
٢٠ يناير سنة ١٩٥١ م

« إن أعظم قوتي العالم أجمع قوة العرب وقوة الروم تعلمون
وتتألقان كالشمس والقمر في السماء ، ولهذا وحده يجب أن
نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين »

(من رسالة نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية
حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي إلى حاكم جزيرة
كريت أيام تبعيتها للمسلمين) .

الفصل الأول

الإمبراطورية البيزنطية والعرب قبل الإسلام

التجارة البيزنطية في بلاد العرب الجنوبية

لم تعرف أوروبا طوال العصور الوسطى دولة أدركت أن التجارة أهم أركان الحياة الاقتصادية إدراك الدولة البيزنطية لهذه الحقيقة الدامغة على مر العصور ، ما عدا البندقية وأخواتها من الجمهوريات الإيطالية التي لم تدرك هذه الحقيقة إلا منذ القرن الثاني عشر الميلادي فصاعدا . والواقع أن الدولة البيزنطية اتخذت من التجارة دعامة أقامت عليها صرح إمبراطوريتها ، وسيرت بها أداتها الإدارية وجعلت منها وسيلة لرعى مصالحها السياسية عند جيرانها من الدول الكبيرة والصغيرة حتى غدت مكانتها في عالم السياسة والمال موضع الهيبة الواضحة .

ولم تصل الدولة البيزنطية إلى تلك المكانة إلا بفضل استغلالها لموقعها الجغرافي الفريد وحسن قيامها على التراث الذي تلقته عن الدولة الرومانية الكبرى ، وهي أمها الخالدة . فقد بنت تلك الأم الرومانية مجدها في سلسلة من الفتوحات والتوقيقات الحربية الباهرة التي جعلتها سيده التجارة في العالم القديم . فكان التيار التجارى الرئيسى يتدفق من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط حيث تقاطرت إيطاليا ومصر والشام وآسيا الصغرى على شراء التوابل والعمور والحرير وغيرها من منتجات الشرق الأقصى لتسد بها حاجتها الاقتصادية ، وتكمل بها أسباب

رفاهيتها^(١). ومن ثم كان البحر الأبيض المتوسط السوق الرائجة وبلادها العميل الذي يحرص القابضون على ناصية التجارة الشرقية إدخاله في ميدان نفوذهم ودائرة نشاطهم. وتمتعت الدولة الرومانية الكبرى بمركز الصدارة في هذه السوق، وكان لها فيه مكانة سامية لم تبلغها دولة أخرى من قبل أو من بعد. ذلك أن جميع الأقاليم المحيطة بذلك البحر خضعت لسلطان روما، وغدا البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية أطلق عليه الرومان اعتزازاً به اسم «بحرنا Mare Nostrum»^(٢). ودعمت تلك الإمبراطورية سيطرتها على هذا السوق باستيلائها على أفواه المسالك والدروب، ومنافذ الطرق التجارية الرئيسية التي كانت تمر بها تجارة الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض المتوسط، وأقامت عندها دواوين «Douanes» وهي أصل نظام الجمارك الحالية. ومن هذه الدواوين التجارية إمتلأت خزائن الإمبراطورية من حصيلة المكوس على الصادر منها والوارد إليها من تلك المتاجر. وكانت هناك أربعة طرق تجارية رئيسية تسلكها التجارة الشرقية، أحدها يمر في تركستان إلى بحر قزوين (بحر الخزر) حيث يتفرع إلى فرعين، يتجه أولهما شمالاً إلى نهر إتل (القلجا) ومنه إلى بحر بنطس (البحر الأسود) حيث ينتهي عند مدينة خرسون؛ والفرع الثاني يسير جنوباً مخترباً شمال فارس ويمر بأرمينية إلى طرابزون على البحر الأسود؛ ومن هذين الفرعين تنتقل التجارة من البحر الأسود عبر البسفور والدردنيل إلى البحر الأبيض المتوسط. أما الطريق الثاني فيمر بالهند وأفغانستان وأواسط فارس إلى نصيبين في أرض الجزيرة ومنها إلى سوريا. أما الطريق الثالث فيسير بجزراً إلى الخليج الفارسي ثم يتبع طريق الفرات حيث يتشعب شعبتين تحترق إحداها سوريا والأخرى آسيا الصغرى. أما الطريق

(1) S. Runciman, Byzantine Civilisation, 163.

(2) C. G. Starr The Roman Imperial Navy, 106, 110,
Runciman, op cit, 149.

الرابع والأخير فكان مائياً من أوله إلى آخره عبر البحر الأحمر^(١) ، ثم يتحول برياً إلى مصر ، وأحياناً تنقل المتاجر من شمال البحر الأحمر إلى فلسطين^(٢) .

على أن الميزان التجاري للإمبراطورية الرومانية أخذ يخل من مطلع القرن الرابع الميلادي ، إذ كانت الإمبراطورية على أبواب عصر جديد ، يؤذن بانتقال نقطة ارتكازها من روما إلى شرق الإمبراطورية لمواجهة الأخطار التي أخذت تتجمع على الحدود الشرقية من ناحية آسيا . ثم تمخضت أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي عن تأسيس روما جديدة ، وهي القسطنطينية كما سميت فيما بعد ، في موضع مدينة بيزنطة القديمة على البسفور^(٣) .

وهكذا غدت الإمبراطورية الرومانية قسمين هما الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، والدولة الرومانية في الغرب وعاصمتها ميلان بعد أن ذهبت عن روما هيبتها القديمة . ودل أباطرة القسم الشرقي على بعد نظر حين انتهجوا لأنفسهم سياسة شرقية ، ودعوا بها الأحلام والمطامح الرومانية الأولى القديمة ، وضمنوا بذلك إمبراطورية جديدة تسير في اتجاه شرقي جعل إسمها قينا باسم الإمبراطورية البيزنطية ، إحياء لاسم عاصمتهم القديم . وآتت تلك السياسة الشرقية أكلها حين أخذت القبائل الجرمانية ، التي دأبت على الإغارة على أراضي الدولة الرومانية ابتغاء العيش في كنفها والتمتع بمشاركة ثرائها ، تولى وجهها من القرن الخامس فصاعداً ، بفضل الدبلوماسية البيزنطية ، شطر الدولة الرومانية في الغرب . فزالت الإمبراطورية الرومانية من الغرب في القرن الخامس زوالاً عملياً وحل محلها

(١) كانت قوافل بلاد العرب تشارك هذا الطريق البحري في نشاطه التجاري . فكانت تنقل المتاجر من عدن التي سميت « الخزن الروماني » وتسير بها القوافل شمالاً في جوف اليمن إلى معين ونجران ، ثم إلى الطائف فمكة فيثرب وأخيراً تنتهي عند بظرا ، ومن بظرا تسير القوافل كذلك إلى غزة ومصر .

Runciman , op cit , 164,

(٢)

I bid, 13, 14.

(٣)

عدة ممالك جرمانية ارتبط بمصائرهما تاريخ غرب أوروبا^(١). ولم يأت القرن السادس الميلادي حتى غدا الميزان التجاري في قبضة بيزنطة أو القسطنطينية، عاصمة تلك الدولة الرومانية الشرقية التي صامت أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي، وأضافت إلى مكانتها ما كان لزميلتها في الغرب من هيبة ونفوذ تجارى.

وهكذا كانت الدولة البيزنطية في القرن السادس الميلادي الوريث الحقيقي لمجد الدولة الرومانية الكبرى التجارى، وغدت رغم قيام الممالك الجديدة في غرب أوروبا صاحبة الكلمة العليا في تصريف شئونها الاقتصادية. ذلك أن الوضع الجغرافى لهذه الدولة حفظ لها مكانة ممتازة في حلبة الاقتصاد والسياسة بين دول العصور الوسطى بفضل ما كفله لها من السيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط ومراكزه الهامة للتبادل التجارى^(٢). فكانت رقعتها تضم بحر إيجه ومناذة التجارية، وشواطى آسيا الصغرى الشمالية والجنوبية، وكذلك موانى الشام وفلسطين ومصر. وأخذت الدولة البيزنطية بفضل هذا الموقع الفريد وبحكم موقع عاصمتها القسطنطينية توجه سياستها التجارية اتجاهاً جديداً قوامه الاعتماد فى الحصول على منتجات الشرق على الطرق البرية عبر آسيا، ولذا أهملت الطريق البحرى الرئيسى الذى يمر بالبحر الأحمر ومصر وفلسطين. ويبدو أن الدولة البيزنطية كانت ترمى من وراء اتباع تلك السياسة إلى إحياء موانئها ومراكزها التجارية على البحر الأسود والإعلاء

(١) تعتبر سنة ٤٧٦م العام الذى زالت فيه الإمبراطورية الرومانية فى الغرب زوالاً مادياً. فى هذه السنة ثار قادة القبائل الجرمانية فى إيطاليا على الإمبراطور رومولوس (Romulus) ووالده أورستيز (Orestes)، صاحب السلطة الفعلية. واستطاع أودوآكر زعيم الجرمان قتل أورستيز ونفى ابنه، وأرسل إلى إمبراطور الدولة الرومانية فى الشرق يخبره بما حدث فى إيطاليا وأنها لم تعد بحاجة إلى إمبراطور، وأنه يرغب فى أن ينعم عليه بلقب النائب الإمبراطورى فى إيطاليا. وغدا الجرمان سادة إيطاليا وغالة (فرنسا) وأسبانيا وبريطانيا، وأضحت دولهم الناشئة مطالع العصور الوسطى بأوروبا.

من شأن عاصمتها في دوائر التجارة العالمية .
وإذ جفت الدولة البيزنطية أشهى الثمار من هذه السياسة التجارية الجديدة
التي انتهجتها ، فإن الملبسات الزمنية والأوضاع الجغرافية كذلك أثبتت لها خطأ
تمامها في تلك السياسة الجديدة وكلفتها أيضاً ثمناً غالياً لعدم عنايتها بالطريق البحري
الجنوبي الذي يمر بالبحر الأحمر^(١) . فالدولة البيزنطية رغم مكانتها التجارية العالية
لم تكن العميل المباشر مع الشرق الأقصى ، إذ قام بنقل المتاجر عبر الطرق الرئيسية
أقوام أو دول إما حليفة أو موالية للدولة البيزنطية . ولذا غدت سلامة الطرق
البرية الآسيوية تتوقف على عدم قيام منافس خطير ينازع الدولة البيزنطية سيادتها
التجارية أو يحد من مواردها الطائلة^(٢) . وحدث في القرن السادس الميلادي
ما كان منتظراً وقوعه من حين وآخر للحد من سلطان الدولة البيزنطية التجاري .
ذلك أن دولة الفرس التي استقرت أمورها بفضل قيام الأسرة الساسانية (التي
خلفت دولة البارثيين^(٣) القديمة سنة ٢٢٦م) استولى عليها في القرن السادس الميلادي
تبار من حب التوسع والفتح على حساب الدولة البيزنطية . وغدت تلك الدولة الفارسية

(١) كانت الدولة الرومانية الكبرى تولى عناية بهذا الطريق البحري وعولت على بسط
سلطانها عليه . فقد رأى الامبراطور أوكتافوس فاتح مصر أن التجارة المصرية غير حرة بسبب
احتكار الحميريين سكان اليمن للمتاجر الهندية الواردة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر . فبعث
حملة من مصر سنة ٢٤ ق . م تحت قيادة حاكم مصر نفسها جايوس جالوس لاختضاع الحميريين .
وأبحر هذا القائد من ميناء أرسينوى Arsinoe (القلزم العربية ، أو السويس الحالية) ،
وفضل النزول في ميناء Leuco - Come (الحوراء) في الحجاز بدلا من الاتجاه مباشرة إلى
اليمن . ولكن لقي متاعب في الزحف برأ أدت إلى فشل حملته وعاد إلى مصر . ولكن مهما
يكن من نتائج الحملة ، فهي تكشف عن مدى اهتمام الدولة الرومانية الكبرى بهذا الطريق
البحري ، الذي لم تقدر بيزنطة أهميته إلا بعد زمن متأخر .

Vasiliev, op cit, 214.

(٢)

(٣) يطلق الفرس على بلادهم اسم إيران ، أما اسم بارسر فهو اسم المقاطعة الجنوبية منها
فحسب ، وكانت موطن الأسرتين العظيمتين ، الأخامنيين والساسانيين . على أن اليونان حرفوا
كلمة بارسا إلى برسيس وأطلقوها على كل البلاد .

بموقعها الجغرافي عقبه كئود في وجه الطرق التجارية المؤدية إلى الدولة البيزنطية ، حتى أضحت هي القوة التي تحتكر المنتجات الشرقية ، تفرض عليها المكوس الباهظة قبل وصولها إلى بيزنطة . وأدى هذا التنافس التجاري الجديد إلى قيام صراع بين فارس وبيزنطة جهدت فيه كل منهما على السيطرة على المنافذ التجارية التي تفيض بالثروة والخيرات . ويمكن تلخيص الاتجاهات الرئيسية لمجرى الحروب المتقطعة التي نشبت بين الدولتين في محاولات فارس مد ذراعيها للوصول إلى البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط للسيطرة سيطرة تامة على سوق التجارة الشرقية . ووقفت بيزنطة ترد الزحف الفارسي ، ونجحت دائماً في الاحتفاظ بمنافذ الطرق الرئيسية ، وهو ما جعلها صاحبة الكفة الراجحة في الميزان التجاري رغم ما تكبدته من نفقات .

على أن الحروب البيزنطية الفارسية وما تخللها من نجاح أحياناً وفشل أحياناً أخرى للبيزنطيين تمخضت عن أضرار بليغة لحقت بتجارة الدولة البيزنطية . فقد أشاعت تلك الحروب الفوضى والاضطراب في الطرق الآسيوية مما زعزع كيان الدولة البيزنطية التجاري لاعتمادها على تلك الطرق أكثر من غيرها في استيراد المتاجر الشرقية وبناء ثروتها الاقتصادية . ولذا أخذت الدولة البيزنطية تبحث عن الطرق التجارية التي تكون بعيدة عن أرض فارس ، أو تلك التي لاتقع تحت طائلة الجمارك الفارسية الباهظة . وكان أمام الدولة البيزنطية طريقان ، وهما الطريق الذي يسير في أقصى الشمال عبر مناطق الاسبتس الآسيوية . ولكن حماية التجارة التي تنقل عبر هذا الطريق تتطلب إقامة حاميات عديدة على طول الطريق أو كسب صداقة الأقوام المبعثرة على جانبيه . وفي كلتا الحالتين تتكاف الدولة البيزنطية أكثر مما تجنيه من فوائد استخدام هذا الطريق الشمالي^(١) . ومن ثم لم يكن أمامها

(1) Runciman, Op cit, 164,
Vasiliev, Op cit, 214.

غير الاتجاه إلى إحياء الطريق الآخر وهو الطريق البحري الجنوبي ، مما دفعها إلى العمل على استعادة هيبتها في المراكز التجارية المطلة عليه والدخول أخيراً في غمار الأحداث التي جرت في جنوب بلاد العرب في ذلك الوقت .

كان للدولة البيزنطية في أقصى شمال ذلك الطريق ميناء أيله المطل على خليج العقبة ، ومن هذا الميناء إنتقلت التجارة براً إلى فلسطين وسوريا . وكان لبيزنطة ميناء آخر هام على طرف هذا الطريق البحري وهو القلزم (السويس) ، حيث تنتقل المتاجر مباشرة إلى البحر الأبيض المتوسط . وبالقرب من مدخل خليج العقبة جنوب رأس شبه جزيرة سيناء وجدت عدة جزر أقامت الدولة البيزنطية على إحداها وهي جزيرة جوتابا (تيران الحالية) ديواناً للجهاك تجبي فيه المكوس على الواردات الشرقية قبل دخولها البحر الأبيض المتوسط . وأخذت قبضة بيزنطة على مراكزها في هذا الطريق ، وكذلك نفوذها هناك ، يتلاشى منذ أواخر أيام الإمبراطور ليو الأول (حوالي سنة ٤٥٦ م) ؛ وربما كان ذلك لانصراف بيزنطة نحو الطرق البرية الآسيوية جرياً وراء سياستها الأولى التي سارت عليها . وكان من الأدلة الواضحة على عجز الإدارة البيزنطية عن حماية مناطقها التي تشرف على هذا الطريق واختفاء كل مظهر من مظاهر القوة لها هناك ، أن استولى مغامر فارسي يدعى أمور كيزوس (Amorkesos) على جزيرة جوتابا^(١) . فقد فر هذا المغامر من وطنه تحت ضغط عدة عوامل ، منها ما لحقه من معاملة سيئة ، ورحل إلى شمال بلاد العرب حيث ألقى عصا التسيار في إحدى جهاتها القريبة من شبه جزيرة سيناء . وهناك أخذ يغير على شبه الجزيرة مدفوعاً باختفاء مظاهر القوة بها ، ووسع دائرة نفوذه حتى توجه بالإستيلاء على جزيرة جوتابا التابعة للدولة البيزنطية . وبذلك جمع لنفسه ثروة طائلة من المكوس التي فرضها على التجارة ، وبسط سيطرته على الأقاليم

(1) J. B. Bury : A History of The Later Roman Empire, I, 231, 232, Vasiliev , Op cit, I, 218 .

المجاورة لهذه الجزيرة ، وغدا الحاكم المطلق عليها . ثم ترامت به المطامع إلى أن ينال من الدولة البيزنطية لقب فيلارخ (Phylarch) ، وحاكماً على أهالي بلاد العرب الصحيرية^(١) التابعة للدولة^(٢) .

ورضخت الدولة البيزنطية لمشيئة ذلك المغامر الأفاق ، فأعد له الامبراطور ليو الأول مقابلة شخصية أغدق عليه فيها جميع مظاهر الحفاوة والتكريم وأجلسه معه على المائدة الإمبراطورية وسمح له بمشاهدة بعض جلسات مجلس الشيوخ ، مما أثار سخط الكثيرين من البيزنطيين لتكريم أحد عبدة النار ورفعهم إلى تلك المكانة . وعند رحيل أمور كيزوس أهداه الإمبراطور صورة من الموازيكو وأعطاه وثيقة تمنحه جزيرة جوتابا ولقب فيلارخ . ويبدو أن سياسة المسالمة ، التي لم يسندها أى نوع من صلابة قناة الدولة البيزنطية ، أغرت البدو المقيمين في شبه جزيرة سيناء على الإغارة على فلسطين ونهب المتاجر الشرقية . ولذا عول الأمبراطور أنستاسي الأول (Anastasius I) (٤٩١ — ٥١٨ م) ، أحد خلفاء ليو الأول ، على استعادة سيطرة بزنطة وهيبتها على هذا الطريق . فأعد جيوشاً لتأديب أولئك البدو وأوقع بهم هزيمتين ساحقتين كلهما في سنة ٤٩٨ م بالإستيلاء على جزيرة جوتابا وإعادتها إلى حظيرة بزنطة^(٣) .

على أن اتجاه بزنطة إلى طريق بلاد العرب التجاري لم يأخذ صبغة جدية واضحة إلا منذ عهد الإمبراطور جستنيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥ م) . فأولى هذا

(١) توأضع الكتاب الأقدمون على تقسيم بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام ؛ بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) ، وبلاد العرب الصحيرية (Arabia Petraea) ، وبلاد العرب الصحراوية (Arabia Deserta) ، وهذا التقسيم يتفق مع حالة بلاد العرب السياسية في القرن الأول الميلادي فكان القسم الأول مستقلاً والقسم الثاني خاضعاً للرومان والثالث تحت سيطرة البارثيين الاسمية .

(٢)

Bury, Op cit, 232 .

(٣)

Ibid, 295.

الإمبراطور عنايته بالطريق البحري وبأحوال جنوب بلاد العرب تحت ضغط فارس وشططها في احتكار الحرير وفرض الضرائب الباهظة على المتاجر الشرقية . ورأى جستنيان أن يجذب إليه كلا من مملكة أكسوم (الحبشة) ودولة الحميريين في اليمن . فكانت هاتان الدولتان تقومان بمهمة الوسيط في نقل التجارة من الهند والشرق الأقصى عبر طريق البحر الأحمر إلى أراضى الدولة البيزنطية^(١) . وكانت الظروف في ذلك الوقت مواتية لتدخل جستنيان في شؤون هاتين القوتين ، وعول على استغلال هذا التدخل لتنفيذ ما ربه التجارية والسياسية . فقد نشب صراع ديني بين المسيحية واليهودية في جنوب بلاد العرب إنغمس فيه الأحباش والحميريون ، وغدا ميدانا تردد فيه صدى الاختلافات والتنافس بين الدولتين الكبيرتين البيزنطية والفارسية .

فالمسيحية واليهودية دخلتا بلاد اليمن في العصر الحميري الثماني (٣٠٠ - ٥٢٥ م) وازدهرتا سريعاً بحيث غدا اصطدامهما في القرن السادس الميلادي أمراً محتوماً ، ولا سيما أن كل دولة من الدولتين البيزنطية والفارسية وقفت تؤازر إحدى هاتين الديانتين . فشدت بيزنطة أزر المسيحية والمسيحيين واعتبرت نفسها صاحبة الفضل في نشر تلك الديانة في بلاد العرب ، إذ سلكت المسيحية سبيلها إلى بلاد العرب من الشمال حيث الشام^(٢) ، كما أخذت بعض جماعات شامية تدخل بلاد اليمن في أزمان غير معروف تواريخها فراراً من الاضطهادات الدينية التي قامت من حين إلى آخر في بلاد الشام . وأول سفارة مسيحية إلى جنوب بلاد العرب وصلتنا أخبارها كانت في سنة ٣٥٦م ، أرسلها الإمبراطور قنسطنطينوس

Vasiliev, Op cit, 214, 215.

(١)

(٢) كذلك وصلت المسيحية إلى جنوب بلاد العرب من مملكة الحيرة ، ولكن لم أعرض لسرد هذا الجانب المسيحي وأهميته لبعده عن موضوع البحث، وليس معنى ذلك إغفال شأن الدور الذي لعبه اللخميون أهل الحيرة .

(Constantius) بزعامة رجل يدعى ثيوفيلوس . وتعتبر تلك السفارة مطالع لامتداد الأطماع السياسية الدولية والمنافسة بين البيزنطيين والفرس للحصول على مناطق نفوذ في جنوب بلاد العرب . ونجح ثيوفيلوس في إنشاء كنيسة في عدن وإقامة كنيستين آخرين في مملكة الحميريين . كذلك اعتنقت نجران المسيحية سنة ٥٠٠ م على يد قديس من الشام يدعى فيمون أسرته قافلة عربية عادت به إلى نجران (١) . على أن الديانة اليهودية سرعان ما نازعت المسيحية السيطرة والنفوذ في بلاد اليمن ، فتلك الديانة التي دخلت بلاد العرب منذ زمن مبكر يرجع غالباً إلى غزو الأمبراطور تيطس لفلسطين ومخيطمه بيت المقدس سنة ٧٠ م ، ازدهرت في النصف الأول من القرن السادس الميلادي ، وغدت اليهودية إذذاك صاحبة السيادة في بلاد اليمن التي حكمها ملك حميري يهودى يدعى ذو نواس (٢) .

وإذا كانت المسيحية قد وقفت تشد أزرها بيزنطة ودولة الحبشة المسيحية ، فإن اليهودية أفلحت في نظر معتنقيها من اليمنيين ديانة تمثل الروح القومية للبلاد ، واعتبر اليهود المسيحية رمزاً للتدخل الأجنبي ، وأثر من آثار نفوذه وسلطانه . ومن ثم غدا الصراع بين هاتين الديانتين محتمل الوقوع بين حين وآخر ، وانفجر الصراع بمذبحة كبرى أطاح فيها اليهود بمسيحيي نجران في أكتوبر سنة ٥٢٣ م (٣) . لكن أفلت أحد المسيحيين وذهب إلى بيزنطة يطلب النجدة والمعونة . على أن تلك المسألة الدينية اختلطت بالأغراض التجارية مما يحمل على الاعتقاد أن اليهود كانوا ينفذون سياسة فارسية هدفها القضاء على النفوذ البيزنطي الأدبي والتجاري في بلاد اليمن . فقد وقع حوالى تلك الفترة عدة حوادث إعتداء وسلب وذبح للتجار

Hitti , History of the Arabs, 61

(١)

I bid, 61, 62

(٢)

(٣) ابن هشام ، كتاب اليتجان في ملوك حمير (حيدر آباد) ص ٣٠١ ،

Hitti, op cit, 62

البيزنطيين الذين كانوا يعبرون جنوب بلاد العرب في طريقهم إلى الحبشة ، ولذلك أرسل الإمبراطور البيزنطي جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) إلى ملك الحبشة يدعوهُ إلى أن يضع حداً لعدوان اليهود في اليمن^(١) . فجهز المنجاشي حملة عبرت البحر الأحمر تحت قيادة أرياط . وتعتبر تلك الحملة جزء من سياسة بيزنطة العامة في ذلك الوقت لإخضاع القبائل العربية لنفوذها واستخدامها ضد فارس . وتمكن أحد ضباط تلك الحملة واسمه أبرهه ، الذي حل مكان أرياط في القيادة ، أن يهزم ذانواس اليهودي ، الذي فرّ تاركاً اليمن لسيادة الحبشة المسيحية (٥٢٥ م) . وأرسل ملك الحبشة إلى جستين الأول وبطريق الإسكندرية يرف إليهما بشرى النصر والفوز . وقام الإمبراطور جستينان العظيم ، خليفة جستين الأول ، بدفع السياسة البيزنطية خطوات إلى الأمام في جنوب بلاد العرب ليحجى ثمار ماغرسه الإمبراطور جستين وأسلافه . فبعث هو الآخر سفارة إلى ملك الحبشة وإلى الحميريين ليحملهما على تنفيذ أغراضه التجارية والسياسية ، ولا سيما تشجيع الحبشة على القيام بدور فعال لوضع حد لاحتكار فارس لتجارة الحرير^(٢) وغيرها من منتجات الشرق^(٣) . على أن اهتمام جستينان بذلك الطريق جاء متأخراً ، إذ دعم الفرس سيطرتهم على المراكز التجارية في المحيط الهندي التي كانت تتجمع فيها التجارة الشرقية قبل نقلها عبر طريق البحر الأحمر ، وتركوا للحبشة نصيباً محدوداً في نقل بعض تلك المتاجر . وتوجد معلومات قيمة عن نشاط الحبشة حليفة بيزنطة وعدم نجاحها في تحقيق أغراض جستينان التجارية ، وفشلها كذلك في منافسة فارس ، في كتاب وضعه حوالي منتصف القرن السادس الميلادي شخص يدعي كوزماس الملقب « ببشار

Bury, Op cit, 469.

(١)

(٢) كانت الحبشة المسيحية تعتبر في ذلك الوقت وكيالة الدولة البيزنطية في رعاية مصالح المسحيين في بلاد العرب ، وامتدت الرابطة بينها إلى الشؤون التجارية هناك .

Vasiliev, op cit, 218.

(٣)

المحيط الهندي *Cosmas Indicopleustes* . فكان هذا البحار الإسكندري المولد ، مغرماً بالترحال والأسفار والإتجار في السلع أيضاً . ويبدو أنه لم يكن راضياً عن الأحوال التجارية في مصر في أيامه . ولعل ذلك يعزى إلى قلة نشاط حركة النقل التجاري في طريق البحر الأحمر الذي تأثر من سيطرة فارس التجارية على مياه المحيط الهندي . وترك كوزماس وطنه وقام بعدة رحلات طويلة زار فيها كثيراً من الأقاليم ، منها سيناء والحبشة وبلغ جزيرة سيلان^(١) . وإذا ألقينا صفحا عن النظرية التي حاول كوزماس شرحها وهدف إلى البرهنة عليها من أسفاره ، وهي تخطيء نظرية بطليموس والقول بأنه شاهد في تجواله أن الأرض مسطحة ، نجد وصفاً لأحوال طريق البحر الأحمر ومدى نشاطه التجاري إبان عهد جستنيان . فكانت الملاحة في هذا الطريق تسير على هدى الكشف الذي وفق إليه هيغالوس ، أحد البحارة التجار في أواخر عهد البطالمة في مصر . ذلك أن الحظ حالف هيغالوس في إحدى رحلاته ، اكتشف فيها أهمية الرياح الموسمية كعامل يمكن استخدامه في السفر والانتقال بين البحر الأحمر والمحيط الهندي^(٢) . فعرف استفلال الرياح التجارية الشمالية في الإبحار من موانئ مصر على البحر الأحمر إلى عدن حيث تساعد الرياح الموسمية الصيفية على السفر إلى سيلان والهند ، والعودة إلى تلك الموانئ المصرية عندما تهب الرياح الموسمية الشتوية^(٣) ، فكان اصطدام تلك الرياح الأخيرة بمرتفعات جنوب البحر الأحمر تدفع السفن الذاهبة شمالاً إلى موانئ الحبشة ومصر . ومنذ نجاح هيغالوس في كشف الرياح الموسمية وعودته إلى الإسكندرية

Vasiliev, op cit, 214 215,

Runciman, op cit, 165.

(٢) إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عهد البطالمة ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ . على أنه يلاحظ أن اكتشاف هيغالوس لم يستغل تماماً إلا في العهد الروماني ، ولا سيما عندما أحس اكتافايوس وطأة منافسة الحميريين التجارية .

Mommsen, The Provinces of the Roman Empire 2, 299, 300. (٣)

محملاً ببضائع الشرق الأقصى ، وكثير من البحارة والتجار في البحر الأحمر ينعمون بتلك الميزة الجليلة التي اكتسبها ذلك الطريق التجاري . فأصبح هذا الطريق أكثر استخداماً من ذي قبل ، ومنح الرومان الذين حكموا مصر بعد البطالة فرصة ثمينة جعلتهم منافسين للحميريين سادة اليمن ؛ لكن قيام الدولة البيزنطية وتشجيع الطرق البرية الآسيوية قلل من نشاط ذلك الطريق البحري ، وغدا استخدام نظام رياحه في التجارة قاصراً على قليل من السفن المصرية وسفن الحبشة .

وكان ذلك حال الملاحة في البحر الأحمر عندما ولي جستنيان وجهه لإنعاش ذلك الطريق التجاري . ولكن كوزماس يبين أن التنافس كان شديداً بين الفرس وبين البيزنطيين وحلفائهم من تجار الحبشة ، وأن الفرس بفضل ذلك الخليج الذي ينسب إليهم والذي يطل على المحيط الهندي استولوا على معظم الواردات الشرقية^(١) . وهكذا لم يبق للسفن الحبشية والحميرية إلا نصيب ضئيل في مضمار التجارة الشرقية .

على أن كوزماس يذكر لنا أن ما تبقى للبيزنطيين من نفوذ وسمعة في تلك المياه الشرقية يعزى إلى احتفاظ عملة الدولة البيزنطية الذهبية ، والتي أهمها السوليدوس (Solidus) والنوميزما (Nomisma) ، بقيمتها . ويروي كوزماس للتدليل على ذلك أن ملك سيلان استقبل عدة تجار من الفرس وتاجراً بيزنطياً اشتد بينهم التنافس وحملهم عمال جمارك سيلان إلى حضرة الملك . وهناك أخذ أحد التجار الفرس ينوه بملكه وبلاده ويفتخر بأن ملكه الملك الملوك ، وأخيراً أقبل ملك سيلان على سوباتروس (Sopatrus) التاجر البيزنطي يسأله عما إذا كان لديه شيء يقوله ليدفع به عن نفسه وملكه . فقال سوباتروس ، كيف أتحدث وأمامك الملاك ، ويمكنك أن تحكم على أيهما أجل بنفسك . فدهش ملك سيلان وقال ولكن أين هما ؟ فقال التاجر البيزنطي ، أمامك عملة الملكين إحداهما النوميزما

(1) J. Mc. Crindle , The Christian Topography or Cosmas, 368.

والأخرى الدراخما الفارسية . فأخذ الملك يفحص العملتين ثم قرر أن العملة البيزنطية أعظم ، وأكرم التاجر البيزنطي واحتفى به (١) .
على أن سمة العملة البيزنطية لم تكن وحدها تهيء للحبشة انتزاع السيطرة التجارية من الفرس على مياه المحيط الهندي ، أو تمكن أساطيلها التجارية من منازلة السفن الفارسية . وهكذا لم تحقق سفارة جستنيان إلى الحبشة الغرض المرجو منها بالرغم من أن الإمبراطور البيزنطي كان يتحرق شوقاً إلى نجاح الحبشة في انتزاع تجارة الحرير على الأقل من الفرس ، وتوفير الأموال الطائلة التي كانت تجيئها فارس من تلك التجارة سنوياً . كذلك لم تؤت السفارة التي بعثها جستنيان إلى الحميريين أكلها . فإلى جانب فشل سفنهم التجارية التي عملت تحت لواء الحبشة في منافسة الفرس فإن حاكم حمير لم يستطع أن ينجز وعده بتعصيد البيزنطيين في حربهم ضد فارس . فكان من الصعب على الحميريين ، إن لم يكن من المستحيل عليهم ، أن يجهزوا حملة تهاجم بلاد الفرس وتحمل الجيوش الفارسية المواجهة للدولة البيزنطية على الإرتداد جنوباً أو عرقلة حركاتها على الأقل ، إذ أن بعد الشقة بين اليمن وفارس ووقوع صحراء موحشة مقفرة بينهما يجعل مهمة سير مثل هذه الحملة أمراً عسيراً (٢) .

وإذا كانت بيزنطة قد فشلت في إدخال جنوب بلاد العرب في ميدان نفوذها بشكل يحقق رغباتها السياسية والتجارية ، فإنها لم تلبث أن فقدت مكانتها الأدبية هناك كذلك . فالأحباش الذين حكموا اليمن من سنة ٥٢٥ م إلى ٥٧٥ م بعد أن هزموا ذا نواس اليهودي ، لم يتمكنوا من نشر المسيحية ، التي كانت تحمل معها تغلغلاً سلمياً لسيادة البيزنطيين في تلك الجهات وما جاورها ، رغم ما بذلوه من

(1) Mc. Crindle, op cit, 368, 369

(2) Procopius, Hist. of wars, I, 193, 195.

محاولات . فقد أنشأ أبرهة نائب ملك الحبشة في صنعاء ، عاصمة اليمن إذ ذاك ، كاتدرائية من أعم الكاتدرائيات التي أسست في العالم المسيحي في ذلك الوقت وهي التي سماها العرب « القليس » اشتقاقاً من الكلمة اليونانية (ἐκκλησιᾶ) أى كنسية . وكانت الحبشة تبغى تدعيم أركان المسيحية في تلك البلاد ، وخلق منافس لبית مكة الوثنية في ذلك الوقت ومركز الحج في بلاد العرب الشمالية . ومما لاشك فيه أن التنافس الإقتصادي كان القوة الخفية التي حملت على تأسيس القليس . فهدف أبرهة إلى تحويل الحجاج ، ونجح فعلاً في اجتذاب جمهرة غفيرة من المسيحيين العرب إلى القليس ، للحصول على الموارد المالية العظيمة التي كانت تصب في مكة . ويروى أن اثنين من عرب الحجاز الوثنيين إنتهكا حرمة كاتدرائية صنعاء بأن دنسها في إحدى الليالي التي أقيم فيها إحتفال بعيد من الأعياد . فاشتاق أبرهة غضباً وسار على رأس حملة تأديبية كبرى لمعاينة مكة . وحدث ذلك سنة ٥٧١ م ، وهي السنة التي ولد فيها الرسول عليه السلام والمعروفة بعام الفيل ، الذي هلك فيه جيش أبرهة لانتشار مرض بين الجنود^(١) . وبذلك تحطمت حملة ربما ترتب عليها — لو قدر لها النجاح — إمتداد سيطرة الأحباش ، وكلاء بيزنطة ، على أهم شريان تجارى في بلاد العرب ، وما يحمله ذلك من التحكم في مصائر أحداث الحجاز المقبلة .

وضعت سيطرة الحبشة على بلاد اليمن بعد تلك الحادثة ، وبالتالي زال ما كان للبيزنطيين من نفوذ هناك ، كما أخذت أحوال اليمن تتدهور سريعاً . لكن مما لاشك فيه أن التدهور الإقتصادي للحميريين هو العامل الأساسى الذى أدى بدولتهم إلى الدمار السياسى والاجتماعى . فحدث إبان حكم أبرهة عودة التصدع في سد مأرب بعد محاولات غير مجدية قام بها ذلك الحاكم لترميمه . وتلا إحدى

(1) C. Beazly, The Dawn of Modern Geography, 184, 185,
Hitti, Op cit, 62, 64.

المرات التي تصدع فيها ذلك السد هجرة قبيلة هامة من عرب الجنوب ، هي قبيلة بنى غسان ، إلى منطقة حوران في شمال بلاد العرب ودخلت في التبعية البيزنطية . وينسب المؤرخون العرب ضياع مجد بلاد اليمن الحضارى وهجرة سكانها إلى تلك الحادثة التي انهار فيها سد مأرب . لكن ذلك ليس العامل الأول أو الأساسى ، إذ أن انهيار السد يعد في ذاته أولا وقبل كل شيء ظاهرة لإهمال وانحلال دولة دب الفساد والفناء في أوصالها^(١) . ولم تلبث الحوادث أن عجلت بذلك الفناء وقضت تماما على ما تبقى لبيزنطة من سحب الآمال في بلاد اليمن . ذلك أن فارس لم تغفل أهمية بلاد اليمن رغم ما سادها من فوضى واضطراب وتطلعت إلى الإستيلاء عليها لتقصى الأحباش والبيزنطيين عنها ، ووجدت فرصتها حين قامت حركة قومية لتخليص بلاد اليمن من حكم الحبشة . وكان يتزعم هذه الحركة سيف بن ذى يزن سليل البيت الملكى الحميرى القديم . فطلب ذلك البطل من الملك الفارسى كسرى أبو شروان مساعدته على استرداد بلاده . فأمده كسرى سنة ٥٧٥ م بحملة عددها ثمانمائة رجل بددت شمل الحامية الحبشية في بلاد اليمن . لكن سرعان ما تكشفت نوايا الفرس الحقيقية ، إذ أخذوا يسيطرون على بلاد اليمن التي ألقي سكانها أنفسهم تحت سيادة حاكم جديد من الفرس^(٢) .

وهكذا لم تستطع الدولة البيزنطية ، لإهمالها طريق البحر الأحمر التجارى ، أن تسترد مكانتها في جنوب بلاد العرب حين أحست إشتداد وطأة المنافسة الفارسية . وفي الحقيقة كانت بلاد اليمن بوابة إنثالت منها قوتا بيزنطة وفارس إلى جنوب بلاد العرب وتزاحمتا على السيطرة التجارية في تلك البلاد . ذلك أن صحراء الشام وما والاها جنوبا ، وقفت حائلا دون تدخل هاتين القوتين العالميتين إذ ذلك من

J. Hell, Die Kultur der Araber, 12,

Hitti, op cit, 62, 63.

(١)

(٢) ابن هشام ، كتاب التيجان ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

Hitti, Op cit, 63

الامتداد إلى بلاد العرب من ناحية الشمال . ومن ثم تسربت حمسى التنافس
التجارى بين القوتين العظيمتين اللتين أحاطتا ببلاد العرب شرقاً وشمالاً عبر اليمن ،
وتمكنت فارس من إقصاء الشبح البيزنطى وحلفائه من الأحباش عن تلك البوابة ،
وغدت الرقيب المهيمن عليها حتى أطاح بها الإسلام .

الإمبراطورية البيزنطية والعرب البدو

قنعت بيزنطة من الغنيمة بالإياب إلى قواعدها المطلة على بلاد العرب ، وأقبلت
عليها تدعمها لتجعل منها حارساً يدفع الإغارات التى كانت تنبعث من حين إلى
آخر من جوف بلاد العرب تبتغى السلب والنهب من الأقاليم البيزنطية المجاورة .
فكانت الدولة البيزنطية تواجه في ذلك الميدان عرباً يختلفون عن أولئك الذين
اتصلت بهم في جنوب شبه الجزيرة العربية . فعرب الجنوب غالبيتهم أهل حضر
يتمتعون بسمعة عالية منذ قديم الزمن^(١) ، أما عرب الشمال فلم تحس الدولة البيزنطية
وطأة أقدامهم على مسرح سياستها إلا بعد ظهور الإسلام في العصور الوسطى .
وكانت غالبيتهم زمن الجاهلية بدوا رحلاً يقيمون في الحجاز وشمال شبه الجزيرة .
ويلاحظ في هذا الصدد أن الخواص الجغرافية لشمال شبه الجزيرة تسير متصلة دون
فاصل تقريباً مع الصحراء الشامية ، ومن هنا كان انثيال البدو على بلاد الشام

(١) كان العرب سكان شبه الجزيرة ينقسمون قسمين ، عرب الجنوب وعرب الشمال .
وكان القسم الأول يسكن اليمن وحضرموت وعلى طول الساحل المجاور لها ؛ ويتكلم لغة سامية
قديمة خاصة به ، وهى إما السبأية وإما الحميرية التى تمت بصلة كبيرة إلى اللغة الأثيوبية
(الحبشية) . ويطلق علماء الأنساب على أهل اليمن العرب العاربة الذين تناسلوا في نظرهم من
قحطان ، وحضارتهم قديمة وكانوا على اتصال بالصريين القدماء ، واستمر الاتصال بمصر
إلى أوائل العصور الوسطى . أما عرب الشمال فغالبيتهم من البدو يعيشون في الحجاز ونجد ،
ولغتهم لغة القرآن أى العربية الخالصة ، ويطلق عليهم علماء الأنساب العرب المستعربة . وهم في
نظرهم من نسل عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام .

وفلسطين للسلب والنهب . فأخذت القبائل العربية تجول على طول الحدود العربية الشامية للرعى وللقيام بأعمال السطو على مدن الشام الزاهرة عند ما تسنح الفرصة . وأحست الدولة الرومانية الكبرى ضرر تلك الحركات التي قام بها بدو شمال بلاد العرب واشتبكت معهم في مصادمات يفر البدو بعدها إلى ديارهم ليكروا مرة أخرى حسبما تواتيهم الأحوال . ولذا أقامت الدولة الرومانية على حدودها المطلة على بلاد العرب الشمالية سلسلة من الحصون شغلها حاميات لصد إغارات البدو . وورثت الدولة البيزنطية عن أمها الكبرى ، الإمبراطورية الرومانية ، هذه السياسة لتأمين حدودها الشرقية ، لا سيما عند ما أخذت توجه عنايتها بتلك الحدود لدرء ملاح في أفقها من أخطار . وهذه الحصون الشامية كانت شبيهة بالحصون الرومانية على حدود الدانوب ، والتي قامت بالدفاع عن أراضي الدولة ضد الإغارات الجرمانية^(١) .

لكن يلاحظ أن حركات القبائل العربية إلى نهاية القرن السادس الميلادي كانت تختلف اختلافاً بيننا عن حركات القبائل الجرمانية التي ظهر خطرها في القرنين الرابع والخامس الميلادي ، والتي انثالت على أراضي الدولة الرومانية في غرب أوروبا . فكانت هذه القبائل الأخيرة موطن الخطر الواضح الملح على أراضي الدولة ، ولم تلبث أن سيطرت على غرب أوروبا وأقامت به دولاً لها . أما الدولة البيزنطية التي صرفت جهداً جهيداً لتحويل هذا التيار الجرمانى إلى غرب أوروبا ، لم تنظر إلى حركات القبائل العربية حتى نهاية القرن السادس الميلادي بعين ملؤها الخطورة أو الحذر .

Vasiliev, Op cit, 265.

(١)

يعزى إلى الإمبراطور دقلديانوس وقنسطنين الكبير الاهتمام بحدود الإمبراطورية الرومانية المعرضة للأخطار . فأقاما حاميات عليها ، ومنحاً جنودها إقطاعات من الأرض ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، طالما نهجوا على منوال آباءهم في القيام بالأعمال الحربية . وأطلق على هذه الفرق من الجند « حراس الحدود » (limitanei) . فكان الجند يقيمون في حصون على الحدود الشامية لصد إغارات بدو بلاد العرب ، وعلى نهر الدانوب لدفع القبائل الجرمانية .

فلم يخطر ببالها أو يتأتى لأى عاقل بصير بها فى ذلك الوقت ، التنبؤ بأن مطالع القرن السابع تؤذن بكوارث جسيمة تنزل بأراضى الدولة البيزنطية على يد هذه القبائل العربية التى أصبحت بفضل الإسلام خلقاً آخر .

على أن الدولة البيزنطية خطت فى سياستها إزاء تلك الإغارات المتكررة من جانب البدو — قبل الإسلام — خطوة فعالة ؛ إذ قام فى الشام فى المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من دمشق عند الطرف الشمالى لطريق بلاد العرب التجارى مملكة أسسها الغساسنة الذين هاجروا من اليمن بعد انهيار سد مأرب . ودخلت تلك المملكة فى دائرة النفوذ السياسى البيزنطى وغدت رقيباً من قبل بيزنطة على حركات البدو وحاجزاً يصد تيار هجراتهم^(١) ، وبلغت هذه المملكة أوج عظمتها فى القرن السادس الميلادى إبان عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان العظيم . وكان ملك الغساسنة فى ذلك الوقت الحارث الثانى بن جبلة الغسانى (٥٢٩ — ٥٦٩ م) الذى غدا سيد قبائل عرب الشام ومنحته الدولة البيزنطية لقب « فيلارخ » لما أصابه من نجاح فى القضاء على خطر اللخمييين ، عمال الفرس فى شمال بلاد العرب . وقضى الحارث عهده الطويل فى حروب شنها لخدمة المصالح البيزنطية^(٢) . وبلغ من علو مكانته عند الدولة البيزنطية أن زار عاصمتها القسطنطينية سنة ٥٦٣ م وشاهد بلاط جستنيان ، واستطاع أن ينال من السلطات البيزنطية تعيين الأسقف المونوفيزيى يعقوب برديوس (يعقوب البرادعى) أسقفاً على عرب الشام^(٣) . وتلك خطوة كبرى كان لها نتائجها البعيدة المدى ، إذ كان يعقوب هذا مغالياً فى نشر مذهبه المونوفيزيى بشكل جعل كنيسة الشام المونوفيزيية تعرف بعده باسم اليعقوبية . على أن انتشار المذهب المونوفيزيى وتعضيد ملوك الغساسنة له قلل من رعاية الدولة

(١) نلدكة ، أمراء غسان ، ص ٧ ، ٨

(٢) نلدكة ، نفس المرجع ، س ١١ — ١٣

(٣) « » « » ، ص ٢٠ ، ٢١

البيزنطية لهم لما في ذلك من التعارض مع المذهب الملكاني ، وهو المذهب الرسمي للدولة^(١) . وانتهى الأمر بإلقاء القبض على بعض ملوك الغساسنة لما أحاط بهم من شكوك . فكان المنذر بن الحارث ، مثل أبيه ، من أشد الناس تحمساً للمذهب المونوفيزيتي حتى أهملت الدولة البيزنطية أمره وأساءت معاملته . فأثارت تلك السياسة بني غسان وأعلنوا العصيان على الدولة البيزنطية^(٢) . وفي سنة ٥٨٠ م عول الإمبراطور البيزنطي طبريوس الثاني على إصلاح الموقف ، فاستقبل في تلك السنة المنذر وابنيه استقبالا حافلا ووضع على رأسه تاجا^(٣) . لكن ذلك لم يكن معناه إغفال الدولة البيزنطية شأن الخلاف المذهبي القائم بينها وبين الغساسنة ، إذ أن الدولة البيزنطية كانت تخشى ما يكمن وراء ذلك الخلاف المذهبي من نزعات انفصالية عن جسم الدولة . ولهذا اشتطت بيزنطة في معاملتها للغساسنة المونوفيزيتيين ، وقبضت على المنذر أثناء احتفاله ببناء كنيسة حوران (بين دمشق وتدمر) ونفته إلى صقلية^(٤) . فدفعت هذه السياسة النعمان بن الحارث على مهاجمة بعض الأراضي البيزنطية وتخريبها . وإذا كانت بيزنطة قد نجحت في القضاء على النعمان فإن الأمر الهام هنا هو أن دولة الغساسنة أخذت تسيير على سياسة تخالف تماما ما أرادته الدولة البيزنطية منها من قبل . وعجلت الحوادث بإتمام هذه السياسة الخرقاء التي انتهجتها بيزنطة أزاء حارسها الذي أقامته لحماية حدودها الشامية من إغارات العرب البدو ، إذ كان استيلاء كسرى أبرويز الساساني على بيت المقدس ودمشق (٦١٣ / ٦١٢ م) ضربة قاضية لأسرة الغساسنة . فأفل نجم هذه الأسرة ، وصحمت المراجع عن ذكرها ولم يعرف إذا كان الإمبراطور البيزنطي هرقل بعد استرداده الشام من الفرس

(١) أنظر الكتاب ، ص ٢٧ .

(٢) نولدكه ، نفس المرجع ص ٢١ ، ٢٥ .

(٣) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٣١ ، ٣٢ .

سنة ٦٢٨ م أعاد هذه الأسرة إلى سيرتها القديمة^(١) . وكل ما هنالك ما ذكره المؤرخون العرب عن وقوف جبلة بن الأيهم آخز ملوك البيت الغساني إلى جانب البيزنطيين في معركة اليرموك الحاسمة .

هكذا بدأت السياسة البيزنطية بالخراسان في شمال بلاد العرب كما منيت بالفشل في جنوب تلك البلاد ، وتركت وسط شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما الحجاز ، ميداناً تتجاوب فيه أصداء الحوادث في الجنوب والشمال ، حتى أضحى هذا الميدان منبعاً صامتاً ينفذ بأنواع الخطر المقبل على بيزنطة . فقد زالت عظمة الحميريين من جنوب بلاد العرب واضمحلت حضارتهم ، ولكن بعض آثار هذه الحضارة وصلت بلاد الحجاز . كذلك تطلعت الحبشة التي احتكرت البقية الباقية من تراث السبأيين والحميريين التجاري إلى الاستيلاء على الحجاز الذي اخترق قلبه الشريان التجاري الهام إلى الشام . وكادت أن تنجح في الاستيلاء على مكة وتهديد الكعبة العتيقة بالدمار سنة ٥٧١ م ، وهي السنة التي ولد فيها محمد ، تلك الشخصية التي قدر لها تبليغ الرسالة الإسلامية إلى العالم . ومن ناحية أخرى عمل الغساسنة في الشمال على تمهيد الطريق لاتصال بدو الحجاز ليس ببلاد الشام فحسب بل بالدولة البيزنطية نفسها . ووفد كثير من الشعراء العرب إلى بلاط الغساسنة ومنهم حسان بن ثابت الذي مدح الغساسنة في شبابه قبل أن يكون شاعر محمد . وتركت تلك الإتصالات البدوية بالغساسنة والبيزنطيين آثاراً عند عرب الحجاز ، على أن هذه الآثار لم تغير في اتجاه المنبع الذي أخذ يتدفق بظهور الإسلام . ذلك أن بلاد الحجاز لم تلبث أن سلمت أعنتها راضية مطمئنة إلى الرسول الكريم الذي قاد سفينتها وسط هذه التيارات التي انبعثت من شمال بلاد العرب وجنوبها ، وعرف كيف يفيد من هذا التيار وذاك ، حتى حقق لبلاد العرب وحدة سياسية لم يعرفها التاريخ

(١) نولدكه ، نفس المرجع ، ص ٤٩

من قبل ، قلبها الحجاز وسويداؤها المدينة . كذلك كسا محمد بالدين الجديد الذي
بشر به هذه الوحدة السياسية ثوباً جديداً جعل من بلاد العرب قوة عالمية مناهضة
للدولة البيزنطية ، وملأت أحداث تقابلهما على مسرح العالم صفحات العصور
الوسطى .

الفصل الثاني

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

تطور انقلاب التوازن الدولي في مطلع القرن السابع الميلادي

الحروب الفارسية

استهل القرن السابع الميلادي سنواته الأولى بنشوب صراع عنيف بين قوتي العالم إذ ذاك ، الدولة البيزنطية والفارسية ، بلغ ذروته عند ما تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية البيزنطية (٦١٠م) . وسبب تلك المرحلة من الحروب ماجاش بأكاسرة الفرس من أطماع توسعية ، عاملين على الإفادة مما ساد الدولة البيزنطية من اضطراب وما تفشى فيها من حوادث القتل والدس والمؤامرات ، التي هيأت لهرقل نفسه فرصة اعتلاء عرش الإمبراطورية . فجهد الفرس على تحقيق الحلم الذي طالما داعبهم وأرقهم أيضاً ، وهو الحصول على منفذ يطل على البحر الأبيض المتوسط تكمل به لدولتهم سيطرتها التجارية .

وكان تيار التقدم الحربي في جانب الفرس قبل اعتلاء هرقل العرش . فأوغلت جيوشهم في بعض أقاليم آسيا الصغرى حتى وصلت خالقدونيا قبالة القسطنطينية على الشاطئ الآسيوي ، كما وصلت قوات فارسية أخرى بعض أرجاء الشام سنة (٦٠٧م)^(١) . ولم يهدأ تيار الزحف الفارسي عندما تقلد هرقل أعنة الدولة

(1) Vasiliv, op cit I, 257,

Bury, op cit II, 147,148.

البيزنطية ، إذ استولى الفرس على أرمينية سنة ٦١١ م وتقدمت جيوشهم إلى حمص بالشام واستولت عليها في تلك السنة أيضاً . ورأى هرقل أن الأمر يحتاج إلى إعداد وتطهير في الأداة الحربية قبل مواجهة الفرس . فأدخل تغييراً في قادة الجيوش البيزنطية في الميدان الفارسي وأخذ يعد الجيوش لملاقاة الفرس في جبهتين إذ بعث جيشاً إلى أرمينية ، على حين نصب نفسه قائداً عاما لجيوش الميدان الثاني في أرض الشام^(١) . على أن الجيوش الفارسية لم تقف ساكنة إبان تلك الفترة التي كان هرقل يعي فيها قواته للقتال . فتقدمت القوات الفارسية واستولت على أنطاكية وقيصرية ودمشق بالشام ، واحتلت قليقية وطرسوس أيضاً بأطراف آسيا الصغرى . وفي سنة ٦١٤ م أنزل الفرس بالبيزنطيين ، قادة العالم المسيحي لطمة قاسية باستيلائهم على بيت المقدس^(٢) ، إذ أضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحية في أيدي الفرس الوثنيين ، الذين أمعنوا في الحط من هيبة بيزنطة أمام العالم المسيحي بنقلهم صليب الصلبوت من بيت المقدس وإرساله إلى عاصمة بلادهم . وفي سنة ٦١٩ م غدا الفرس سادة بحر الشام وأكلوا سيطرتهم على مياه البحر الأبيض الشرق باستيلائهم على مصر^(٣) . ولم يقف الجشع الفارسي عند هذا الحد ، بل حملتهم جرأتهم على مهاجمة القسطنطينية ، التي أقتنتها منعها الطبيعية وموقعها الجغرافي من التردى في أيدي الفرس .

على أن اتساع الخطر الفارسي وابتلاعه تلك الولايات البيزنطية الكبرى وتهديده العاصمة البيزنطية نفسها أثار شعور الناس في أنحاء الدولة البيزنطية وامتلاء واهمة للدفاع عن كياناتهم . ووقفت الكنيسة البيزنطية على رأس هذه الحركة تشد أزراً للإمبراطور لتخليص الأراضى المقدسة ، وأضفت على مشروعات هرقل الحربية

(1) Bury, op cit II, 221, 224, 225.

(2) I bid, 214,
Vasiliev, op cit I, 258.

(3) Bury, op cit II, 214.

صبغة دينية . وضربت الكنيسة مثلاً عملياً على تعضيدها للإمبراطور هرقل بأن قدمت له كل ما لديها من ذهب وفضة ليسكها تقوداً على أن يتمهد بردها فيما بعد . وهكذا وقفت الكنيسة والدولة صفاً واحداً في سبيل تخليص بيت المقدس و صليب الصليبوت^(١) . وانكب هرقل على إعداد خطته الحربية التي انتهت منها سنة ٦٢١ م ، وجاءت خطة محكمة هيأت له فوزاً مظرفاً . فبعث أسطوله من القسطنطينية في أبريل سنة ٦٢٢ م إلى مياه الشام ، على حين تقدم على رأس جيوشه برأ عبر آسيا الصغرى متجنباً الاصطدام بالجيوش الفارسية الضاربة في تلك البلاد . ولما وصل إلى أطراف آسيا الصغرى من ناحية الشام قام بمناورة حربية معلنا أن هدفه الزحف على فارس نفسها . فاضطر الجيش الفارسي إلى الجلاء عن آسيا الصغرى ، وأسرع شرقاً ليقيم في طريق الإمبراطور البيزنطي ويحول دون تقدمه إلى الأراضي الفارسية . وبذلك أنقذ هرقل آسيا الصغرى في حركة حربية بارعة تشهد له بالمهارة وحبه للمغامرة^(٢) . وفي إبريل سنة ٦٢٣ م تجددت الحروب والمعارك بين هرقل وفارس ، وهناك عند تحت سليمان في الشمال الغربي من بحيرة أرومية انتقم هرقل لما أزاله الفرس من مذلة بالدولة البيزنطية باستيلائهم على بيت المقدس . فكانت مدينة تحت سليمان مركزاً من المراكز الدينية الفارسية شفي الجنديون البيزنطيون فيها غلة حماسهم بتخريب معبد النار وإعمال التدمير فيها^(٣) . وظل النصر يسير في ركاب هرقل منذ بدأ حملاته على الفرس سنة ٦٢١ م . ذلك أن حوادث تلك الحرب دلت على أن تيار الانتصارات إذا اتخذ جانباً كان من الصعب على الجانب الآخر أن يحول ذلك التيار إلى جانبه . فباعت بالفشل جميع محاولات الفرس لاستعداد القبائل الضاربة على أطراف الدولة البيزنطية الشمالية على مهاجمة القسطنطينية وحمل هرقل على التخلي عن مهاجمة فارس . فصدت

(1) Bury, op cit, 219, 220, 221.

(2) Bury, op cit, 227, 228, 230.

(3) I bid, 231, 232.

القسطنطينية سنة ٦٢٦ م ، غارة مفاجئة شنتها عناصر الآقار والبلغار والسلاف أثناء تفرغ هرقل لإعداد عدة جديدة للقضاء على فارس^(١) . وفي تلك السنة أيضاً فرغ هرقل من إعداد العدة وتجنيد قواته في أقاليم القوقاز ، ثم سار من مدينة تفليس إلى طرابزون ومنها وصل مدينة نينوى على نهر دجلة سنة ٦٢٧ م . وهناك اشتبك مع الفرس في معركة كبرى خرج منها ظافراً ، وتقدم بعدها جنوباً إلى مدينة دستاجرد حيث انهارت مقاومة الفرس تماماً ، وجلا كسرى عن تلك المدينة التي دخلها هرقل دون أن يلقي مقاومة كبيرة . ثم واصل هرقل زحفه صوب المدائن عاصمة الفرس وأصبح على مرحلة منها لا يفصله عنها سوى نهر صغير . لكن هرقل أحجم عن متابعة مغامرته لأن خطوط تموينه أصبحت طويلة ، فضلاً عن رداءة الأحوال الجوية لإقتراب فصل الشتاء . فعول هرقل على التقهقر من المدائن وعاد إلى تحت سليمان في فبراير سنة ٦٢٨ م ، قبل أن تسد الثلوج معابر الجبال^(٢) .

وانحلت المسألة الفارسية في تلك الفترة حلاً سلمياً ، إذ قامت ثورة في المدائن زعيمها سراويز بن كسرى ، خلع أباه وطلب من هرقل الدخول في مفاوضات لعقد الصلح بين الدولتين . وقبل هرقل عقد صلح أبرم سنة ٦٢٨ م ، جلت بمقتضاه القوات البيزنطية عن الأراضي الفارسية وأعاد الفرس إلى البيزنطيين صليب الصلبوت^(٣) . وهكذا اختتمت الدولتان البيزنطية والفارسية فصلاً من قصة حروبهما المتكررة اتسم بتبادل الطرفين اجتياح أراض واسعة ، ووصول جيوشهما إلى مشارف كل من عاصمتي الدولتين ، مبيدين الحرث والنسل ومثقلين كواهل من

(1) Bury, op cit, 239, 240,
Vasiliev, op cit, 261.

(2) Bury, op cit, 241, 242,
Vasiliev, op cit, 261.

(3) I bid, 261, 262,
Bury, op cit, 244.

بقي على قيد الحياة بالسلب والنهب ، فضلاً عما استنزف من مواردهم للنهوض بالأعباء الحربية . وظلت كل من بيزنطة وفارس تنن من الحور والإنهاك ، كما بقيت قصة حروبهما معلقة فصولها عند هذا الحد إلى أن آتم الإسلام فصلها الأخير . فأدخل فارس المئخنة الجراح في خطيرته ، واقتطع من الدولة البيزنطية أسمن أقاليمها في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق وهي مصر والشام ، اللتان ذاقتا صنوف العذاب وألوان الإضطهاد الديني على أيدي البيزنطيين ولا سيما بعد انتهاء الحروب الفارسية .

الإختلافات المذهبية في أقاليم الدولة البيزنطية

ذلك أن هرقل خرج من الحروب الفارسية شديد الإعتداد بنفسه ، يؤمن بأنه قادر على حل المشاكل المذهبية المزمنة التي بلغت ذروة تعقدها في عهده ، مثلما أزال نهائياً شبح الفرس الجاثم على امبراطوريته منذ زمن بعيد . فأقبل بكليته بعد انتصاره في الحروب الفارسية على إنهاء الخلافات المذهبية التي تفتشت في أقاليم دولته ، دون أن يعير اهتماماً لسحابة صغيرة كانت تحوم في الأفق الجنوبي لإمبراطوريته ، وتوشك أن ترحف عليها وتغير رقعتهما ، على حين تحمل للعالم خيراً عمياً ، تلك السحابة هي الدعوة المحمدية في بلاد العرب . ففي فترة الخمس سنوات التي تخللت نهاية الحروب الفارسية وبداية الفتوحات الإسلامية في الشام (٦٢٨ - ٦٣٣ م) كانت سياسة هرقل الدينية تؤتي نتائج عكسية في أقاليم دولته في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وتمهد الطريق لتقدم الإسلام . ذلك أن جيوش المسلمين غدت بفضل الدين الإسلامي الذي شب وترعرع في تلك الفترة ، قوة مظفرة تختلف في مبنائها وأهدافها عن قوات فارس التي عجمت الدولة البيزنطية عودها زمنياً طويلاً ، ويعزى فشل هرقل في حل المسألة المذهبية إلى أنها كانت أكثر تعقيداً

مما تصور ، وتناجاً لتطورات أصولها بعيدة الغور إمتزجت فيها المجادلات الدينية بالتنافس بين المرا كز المسيحية الكبرى الأولى . وغدت أخيراً في عهده قناعاً أخفى حركات قومية هدفت إلى الانفصال عن جسم الدولة البيزنطية .

ففي الأيام الأولى للمسيحية كان مقر الكنائس الكبرى الرئيسية للعالم المسيحي في عواصم البلاد الرومانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وهي روما والإسكندرية وأنطا كية . وكانت هناك أسقفيات في البلاد الأخرى تتناسب مرا كزها مع أهمية المدن التي توجد فيها^(١) . وكانت القاعدة المعترف بها في تقديم الكنائس بعضها على بعض هو النظر في قدر القديس الذي أسس تلك الكنيسة ومدى تمتعه بالشهرة . فادعت روما لنفسها الرئاسة لأن القديس بطرس مؤسس كنيستها ، ونافستها الإسكندرية لأن القديس مرقس منشىء كنيستها وهكذا . على أن ميدان التنافس لم يلبث أن شاهد دخول مبارز جديد هو مدينة القسطنطينية التي غدت العاصمة الجديدة للدولة البيزنطية . فكان ظهور تلك العاصمة الجديدة وتطور أسقفيتها من التبعية لمدينة هرقلية إلى بطريكية قائمة بذاتها مدعاة لإعادة النظر في ترتيب أقدار الكنائس المسيحية الأولى وبيان درجاتها . واستطاعت القسطنطينية أن تحتل المركز التالى لروما معتمدة على مكانتها في الدولة . غير أن عوامل الغيرة أخذت تعمل عملها ورفضت الإسكندرية الاعتراف بمركز القسطنطينية الناشئة^(٢) .

ولم تلبث عوامل الغيرة الكامنة أن انفجرت واتخذت متنفساً لها في الجدل الدينى الذى اضطرت به المسيحية منذ قرونها الأولى كذلك ، إذ قامت بعض نظريات وأقوال حول العقيدة المسيحية أدت إلى إختلاف المسيحيين في تصوراتهم للمسيح . فقام قس من الإسكندرية إسمه أريوس ونادى بأن المسيح

(1) Runsiman, op cit, 109.

(2) I bid, 109, 110.

وإن اتصف بالألوهية فهو مخلوق بأمر الإله الأب وهو لذلك أقل مرتبة منه^(١). وجاء ذلك القول مخالفاً للرأى السائد والذي نادى به قس آخر من الإسكندرية أيضاً اسمه أثناسيوس ، وهو أن المسيح أزلى كأولية الله ، وأن جميع ما حوله من صفات كالجسد والجوهر أزلية كأولية الله لإستمدادها من الأزلية العليا^(٢). فهذان القولان هما مشكلة المسيحية الأولى في القرن الرابع الميلادي. وجهت المراكز المسيحية الأولى على جمع القساوسة ليحددوا آراءهم عن المسيح. فانهز الإمبراطور قنسطنطين الكبير هذه الفرصة وعول على أن يتدخل في هذا الجدل كي يظهر بمظهر المهتم بشئون المسيحية ، ويبين قدرته على توجيهها ، معطياً بذلك لبطريرقية عاصمته عصا الزعامة الدينية. وكانت الآراء التي تصدرها تلك المجمع (مجمع Concilium) تعتبر عالمية (Catholicus)^(٣) والخروج عليها هرطقة وجريمة ضد الدولة.

فأى مجمع عام ، وهو اجتماع برئاسة الإمبراطور ، ويمثل فيه كل أفراد الكنيسة المسيحية ، يعتبر هيئة تصدر قراراتها عن إلهام ووحى ، وتلزم المسيحيين جميعاً باتباعها ، وفي مخالفتها هرطقة تعتبر رسمياً خروجاً على القوانين . ولذا كانت السلطات المدنية لا الكهنوتية هي التي تقوم بالتدابير العقابية^(٤).

وعقد أول مجمع مسكوني عام بدعوة من الإمبراطور قنسطنطين الكبير سنة ٣٢٥ م في بلدة نيقية بالشاطىء الأسيوى قبالة القسطنطينية (موضعها الآن بلدة إسناك) ، وكان يضم جميع أساقفة المسيحية الأولى . وقرر هذا المجمع أن أقوال أريوس والعقيدة الأريوسية فاسدة ، وأن العقيدة الأثناسيوسية هي الصحيحة ،

(١) فشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة) ، ص ١٧ ، ١٨

Vasiliev, op cit, 69, (٢)

Bury, op cit, 187.

Bury, op cit, 148, 185. (٣)

Runciman, op cit, 114. (٤)

وأصدر قراراً هو المعروف باسم المذهب « النيقى » والذي قامت على أساسه الديانة الكاثوليكية (١) .

على أن هذا المجمع لم ينجح في إفهام العقول ، ولا سيما العقل اليونانى ، سر عقيدة التجسد ، ولذا تطور الجدل من جزئية المسيح أو كليته من حيث ألوهيته ، إلى القول بالطبيعة المزدوجة للمسيح — بشرية وإلهية — وبالطبيعة الواحدة ، أو المونوفيزيتية (٢) .

وتوالى إنعقاد المجمع لتقرير هذا الرأى أو ذاك ، وكانت تصدر آرائها معضدة رأى الأسقف الذى يتمكن من إدارة دفة المناقشات ، وهنا كانت المنافسات بين المراكز الكنسية تلعب دورها . فعند ما جاهر أسقف القسطنطينية برأيه فى القول بأن للمسيح طبيعتين ، إستغل بطريق الإسكندرية تلك الفرصة لإعلاء شأن عاصمته وأدار دفة الجدل الذى انتهى بأن أصدر المجمع الكنى الثالث فى أفيسوس سنة ٤٣١م قراره ضد القسطنطينية . على أن القسطنطينية ثارت لنفسها واستردت مكانتها ، حينما نادى بطريق الإسكندرية بالطبيعة الواحدة للمسيح فى المجمع الكنى الرابع فى خلقدونية سنة ٤٥١م ، إذ خشيت روما ازدياد نفوذ الإسكندرية ، وعارضت قول بطريقتها ، وانضمت إليها القسطنطينية فرعاً من علوشأن الإسكندرية . واتخذ المجمع قراراً اعتبر المونوفيزيتية هرطقة ، وروعاها يجب عقابهم وتعذيبهم (٣) . إن الآراء اللاهوتية حول الطبيعة الواحدة للمسيح « المونوفيزيتية » والطبيعة المزدوجة للمسيح (التى أطلق على أتباعها فيما بعد إسم الملكانيين) (٤) بسيطة غير

Vasiliev, op cit, 68, 69.

(١)

Bury, op cit, 188—190,

(٢)

فشر ، نفس المرجع ، ص ٥٥ .

Baynes, The Byzantine Empire, 81.

(٣)

(٤) كان المذهب الملكانى هو المذهب الرسمى للدولة البيزنطية ، وربما تعزى هذه التسمية

إلى كلمة ملك ، وإن كان القلقشندى يذكر فى كتابه « صبح الأعشى » أن الإسم مشتق من إسم الإمبراطور مارقيان (من تفسير الدكتور مصطفى زيادة) .

معقدة ، ولكن الأسس السياسية التي قامت عليها تلك الآراء هي العامل المحرك للمجادلات في المجمع الكنسية العامة . فتطور الأمر من مجرد تنافس بين مراكز المسيحية الأولى على السيادة ، إلى ارتباط المشكلة المذهبية بالحركات القومية في البلاد التابعة للدولة البيزنطية واتكاء الأقاليم المختلفة على تلك الخلافات الدينية للانفصال والاستقلال . وفي الحقيقة ما دامت تلك الأقاليم تحس نحو الدولة البيزنطية بوجود الانفصال عنها ، لم يكن هناك أمل في حل المشكلة المذهبية ، سيما وأن الحلول التي حاول الأباطرة إتخاذها كانت ترمى من وراء حل المشكلة المذهبية إلى إخماد الحركات القومية ، وإزالة العوامل المساعدة التي كانت تعضد تلك الحركات ، وأهمها العامل الديني . وكان هذا هو كنه الموقف عندما آجبه هرقل بعد انتهائه من الحروب الفارسية لحل المشكلة المذهبية ، مؤملاً أن ينجح فيما فشل فيه أسلافه على يكتب له الفوز كما نجح في القضاء على خطر فارس . واستقر رأى هرقل على ما يعرف باسم «صورة التوفيق» ، وهي تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام عن كنه المسيح وطبيعته ، وعمّا إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة وقضاء واحداً . ويعرف مذهب هرقل باسم مذهب « التوحيد أو المونوثلما »^(١) .

غير أن المذهب جاء بنتيجة على غير ما يهوى هرقل ، إذ قال المعاصرون سواء من الملكانيين أو من أصحاب الطبيعة الواحدة (الذين أطلق عليهم أيضاً اسم اليعاقبة ، نسبة إلى زعيمهم يعقوب براديبوس) أن الإمبراطور ما أراد بهذا المذهب إلا ليضل الكثيرين . ورفض كل منهما التخلي عن مذهبه ، وإتباع مذهب ثالث يعدونه زيفاً وبهتاناً . واشتدت المعارضة لهذا المذهب ، ولا سيما في مصر ، حيث لجأ قيرس « Cyrus » (المقوقس) البعوث الإمبراطوري هناك لحل المسألة

(1) Vasiliev, op cit, 293, 294,
Bury, op cit, 250, 251.

المذهبية إلى العنف وجميع وسائل التعذيب لـحمل الناس على إتباع المذهب الجديد . فاضطر البطريق القبطي المونوفيزيتي (بنيامين) إلى الهرب والقيام بحركة مقاومة سرية^(١) . وكانت تلك خطوة خطيرة من جانب البطريق المونوفيزيتي ، إذ كان مطران الإسكندرية الملك الفعلي للعاصمة والفرعون الروحي للبلاد ، وممثل الشعب ، كلمته فيهم نافذة كالقانون ، وعند ما يصيح بأفراد الشعب لأداء أمر ما يهرعون لتلبية دون تردد أو فتور ، ملتفتين حوله جميعاً ، رهباناً وأهالي ، زرافات ووحدانا . وهكذا أصبح قرار البطريق القبطي إيذاناً بانفلاق حركة مقاومة قومية في البلاد ، وغدا القبط يتمنون زوال الإمبراطورية والإمبراطور صاحب المذهب الجديد^(٢) ، في وقت كان الرسول محمد « صلى الله عليه وسلم » ينشر دعوته في بلاد العرب ، داعياً سكانها إلى الدين الإسلامي ، وإتباع سنته وتعاليمه ، واجهداً على خلق روح الوحدة والأخاء بينهم .

ظهور الإسلام

كان من المنتظر وقد اندلعت الحركات القومية في بلاد الدولة البيزنطية نتيجة تعسف هرقل في نشر مذهبه الديني ، أن تلقى تلك البلاد بنفسها في أحضان أية قوة تكفل لها الخلاص من العنت المذهبي والانفصال عن الدولة التي جرعتها كأس التعذيب والإزهاق . وكان ذلك حال مصر والشام ، وما جاش في نفوس أهاليهما من آمال ، عند ما تلقى محمد « صلعم » الرسالة ، وأخذ يدعو سكان بلاد العرب إلى اتباع الدين الجديد . واستطاع محمد « صلعم » بفضل رسالته أن يخرج العرب من جاهليتهم ، التي جعلت الدولة البيزنطية تنظر إليهم دائماً على أنهم جنس قليل الخطورة متخبط في نظمه الجاهلية ، بما فيها من أحقاد وترات وغارات وطعان^(٣) .

(1) Butler, The Arab Conquest of Egypt. 176, 177.

(2) Baynes. op cit, 78.

(3) Vasiliev, op cit, 269, 278.

وإذا كانت بيزنطة لم تعر الحركة الإسلامية ، التي أخذت تصوغ العرب في قالب جديد ، أى اهتمام ، فإن أصداء الحوادث الكبرى التي امتلأت بها الدولة البيزنطية تردد صداها في بلاد العرب . فكانت تلك البلاد بفضل جريان الطريق التجارى من اليمن إلى فلسطين وسوريا ومصر ، تقف على أخبار الدولة البيزنطية^(١) وما يضطرب به جوفها من صخب مذهبي ، أو إعداد لشن حرب على فارس . ويبدو أن مكة ويثرب كانتا محطتي تردد أصداء تلك الحوادث ورواية أخبارها ، باعتبارها من محطات القوافل الهامة على الطريق التجارى ، وموطن عدد كبير من التجار اليهود والمسيحيين . وكانت مكة بصفة خاصة ذات شهرة عالية قبل ظهور الإسلام ، إذ تدل أسماؤها التي رددتها الكتب القديمة والنقوش على أن لها مركزاً دينياً خاصاً بها . فاسم مكة مأخوذ من كلمة مكرابا السبئية ومعناه المعبد ، مما يدل أن هذه المدينة بيئتها العتيق تمتعت بمكانة عالية في بلاد العرب منذ أقدم العصور . وإلى جانب ذلك تبوأ مكة بفضل مركزها التجارى وقديسية بيئتها العتيق مكاناً عالياً عند سائر القبائل العربية . فكانت مركز التجار من كل صوب وحدث ، وبيئتها مزاراً لهم ، وغدت إحدى القبائل العربية ، وهى قبيلة قريش صاحبة السيادة في تلك المدينة منذ القرن الخامس الميلادى فصاعداً . وكانت يثرب التي تقع إلى الشمال من مكة على بعد مائتى ميل تحتل المركز التالى لمكة في حلبة التجارة والنفوذ في بلاد العرب^(٢) .

وهكذا كان الوسط الذى بعث فيه محمد « صلعم » ينبض بالحياة ، وإن خاله سكان الأقاليم المحيطة به ساكناً ، يتجاوب فيه الكثير من أخبار جيرانه ،

(١) يشير القرآن الكريم إلى هذه الرحلات في سورة قريش : « لإيلف قريش إيلفهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »

Vasiliev, op cit, 267, 268,

(٢)

Hitti, op cit, 103, 104.

(م — ٣)

ولا يعرف جيرانه عما كان يتردد في جنباته إلا نذراً يسيراً . فكانت أبناء الحروب البيزنطية ضد فارس مثار اهتمام أنصار الدين الإسلامي الجديد ومعارضيه في بلاد العرب ، يتتبع كل منهما أخبارها معلقين عليها بما يعين لهم من الأقوال لتأييد دعواهم . ففي العقد الثاني من القرن السابع عند ما جهر محمد « صلعم » برسالته ، وأخذ يدعو إليها ، كانت الجيوش الفارسية تطوى الشام وأرض مصر ، من أقاليم الدولة البيزنطية ، وتهدد القسطنطينية نفسها بالدمار . فكان أعداء محمد صلى الله عليه وسلم ، يهللون لتلك الانتصارات الفارسية ، معلنين أن محمداً « صلعم » سوف يلقى مصيراً مشابهاً للبيزنطيين ، لأنه مثلهم صاحب كتاب ، وأن عبدة النار إستطاعوا أن يذلوا أتباع كتاب مقدس . فكان المسلمون يدفعون عن أنفسهم تلك الناحية من حرب الأعصاب بالتذرع بالصبر والتشجيع للبيزنطيين وأمرهم المظفرون عما قريب (١) .

وإذا كانت أبناء حروب الدولة البيزنطية مثار اهتمام المسلمين في فجر حياتهم ، فيبدو أنهم وقفوا كذلك بعد هزيمة فارس وعودة الشام ومصر إلى حظيرة البيزنطيين ، على حوادث الإضطهاد والتعذيب التي رزحت تحتها تلك البلاد من جراء مذهب هرقل الجديد . فكان التجار العرب دائبين على اتصالهم بمصر والشام ، ينقلون متاجرهما كما ينقلون أخبارهما (٢) . ولذا فليس ثمة شك في أن المسلمين وقفوا على تفاصيل الخلاف بين أنصار الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتيين) في مصر والشام وبين أنصار الطبيعتين (الملكانيين) من أتباع الدولة البيزنطية صاحبة السيادة ، ومحاوله هرقل حمل هؤلاء وأولئك على اتباع مذهبه الجديد . وكانت الدعوة الإسلامية

(١) سورة الروم « ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .
(٢) تشير الروايات التاريخية إلى أن عمرو بن العاص فاتح مصر زارها زمن الجاهلية للتجارة ، وأنه كان خبيراً بأحوالها .

حينئذ قد أخذ يفوح شذاها بالكتب التي بعثها الرسول « صلعم » إلى هرقل والمقوقس وغيرها من قادة العالم^(١). فلم تقدر الدولة البيزنطية تلك الدعوة التي وصلتها ، ولم تدرك ما انطوت عليه من عقيدة جديدة سوف تزلزل أركانها ، وتدخل في ميدانها الأقاليم التي سادها المذهب المونوفيزيتي . ذلك أن بيزنطة رأت في العقيدة الإسلامية بحضها على وحدانية الله ضرباً من العقيدة الأريوسية التي قرر مجمع نيقية الأول إعتبارها هرطقة فاسدة^(٢). كذلك لم تعر موطن العقيدة الإسلامية اهتماماً ، لأنها لم تتصور أن بلاد العرب سوف تصبح بفضل تلك العقيدة الجديدة وحدة لها خطرها ونفوذها .

وهكذا جرت الأحداث على غير ما تشتهي الدولة البيزنطية ، فأدى محمد « صلعم » رسالته وهي في غفلة عن جهاده ليتم الله أمره . وخلف سكان بلاد العرب مسلمين مشربة قلوبهم بعقيدة ، جوهرها وحدانية الله ، جماعتهم أقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحدة المسيحيين^(٣) من البيزنطيين قادة العالم المسيحي المعتنقين لمذهب الطبيعتين . فكانت العقيدة الإسلامية النور الذي أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها في بلاد المونوفيزيتيين ، ونزلت على سكانها برداً وسلاماً وسط جحيم اضطهاد البيزنطيين الملكانيين^(٤). ولذا وقفت الدولة البيزنطية مأخوذة أمام تيار الفتوحات

Bury, op cit, 261.

(١)

ابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ ،
المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ٢٢٥ .

Vasiliev, op cit, 274,

(٢)

Bury, op cit, 260.

(٣) إن الإسلام بدفاعة عن عيسى عليه السلام وتزنيه كان من الأمور المحببة لدى المونوفيزيتيين ، ويدل على ذلك حادثه نجاشي الحبشة مع مسلمي الحجاز الذين هاجروا إلى بلاده .
(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٤ . فقد روى عن أهالي حمص عبارة تصور شعور أهالي الشام حيال الفاتحين المسلمين ، « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم »

الاسلامية التي بدأت تنثال رويداً من المدينة ثم قلبت أوضاعها سريعاً رأساً
على عقب .

إستيلاء المسلمين على الشام ومصر

فتح الشام

يعتبر الرسول « صلعم » القائد الأعلى الذي رسم بنفسه الخطة التمهيدية التي
حملت الجيوش العربية على الاستيلاء على الشام وتأسيس أول ركن في دولة الاسلام
خارج بلادهم الأصلية ، على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ذلك أن
الرسول إلى جانب قيامه بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم في وقته ، كان قائداً
ماهراً يقظاً ، لا يفض الطرف عن أى مظهر عدواني قد يحط من شأن دعوته أو
يعمل على النيل منها . فلم يقف النبي ساكناً إزاء استشهاد رسوله الذي بعثه إلى
أمير الغساسنة في بصرى^(١) ، وإنما عول على أتباع دعوته السامية إلى الاسلام في
الجهات التي لم ترع حرمة مبعوثه بالقيام بمشروعات حربية كانت بطبيعتها محدودة .
فأتباع محمد في ذلك الوقت ، وهي الفترة السابقة لفتح مكة ، لم يكونوا قد وصلوا
إلى الأعداد العديدة التي أصبح عليها المسلمون فيما بعد . ففي سنة ٦٢٩ م / ٨ هـ
أرسل محمد أحد قاداته المقربين إليه وهو زيد بن حارثة على رأس حملة عددها ٣٠٠٠
رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب ، يدفعه إلى ذلك واجب الأخذ
بثأر من قتل من أتباعه على الحدود العربية الشامية^(٢) . وهناك عند مؤته الواقعة
على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت إلتقى المسلمون بالقوات

(١) قتل شرحبيل بن عمرو الغساني الحارث بن عمير الأزدي رسول النبي إلى صاحب
بصرى ، ويلاحظ في هذا الصدد أنه لم يقتل للنبي رسول غيره . ويروى كذلك أن خمسين
مساماً لقوا حتفهم على حدود بلاد العرب المطلّة على الشام .

البيزنطية . وتمكن البيزنطيون من دحر القوات الاسلامية ، ولقى قائدها زيد نفسه حتفه في المعركة . على أن خالد بن الوليد الذي اعتنق الاسلام قبل تلك الوقعة بزمن قليل ، لم يشم الفلول الاسلامية وعاد بها إلى المدينة^(١) .

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها تلك الحملة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى . فبينما رأى البيزنطيون في تلك الحملة إغارة من الأغارات التي اعتاد البدو شنها للسلب والنهب ، كانت حملة زيد في الحقيقة إغارة من نوع جديد لم تقدر بيزنطة أهميتها ، فهي إغارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة ، وغدت هزيمتها وقتل قائدها الباعث الذي جعل المسلمين يتطلعون بأعين واسعة إلى الشام . كذلك أضحي تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم القوة التي دفعت الأداة الحربية الاسلامية في انطلاقها السريع تطوى أرض تلك البلاد . ففي العام التالي أي سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ قاد النبي بنفسه حملة إلى تبوك ، كانت أشبه بمناورات حربية في منطقة الحدود بين الأراضي البيزنطية وشبه جزيرة العرب . ذلك أن هذه الحملة لم تشتبك مع أية قوات بيزنطية هناك ، وآثر النبي الاكتفاء بأظهار قوته في تلك الجهات وعاد إلى المدينة^(٢) .

وبذلك بقيت هزيمة مؤته تجذب أنظار المسلمين صوب الشام . وفي سنة ٦٣٢ م ١١ هـ أعد النبي جيشاً بقيادة أسامة بن زيد ، ابن القائد الذي لقي حتفه في مؤته ، لمهاجمة البيزنطيين . غير أن النبي توفي في نوفمبر سنة ٦٣٢ م / ربيع الأول ١١ هـ قبل تحرك ذلك الجيش^(٣) . فترك خلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر قبلة عينها لهم . وهكذا وقف محمد بشاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوئ دعوته إنما موطنها الشام حيث البيزنطيون وعمالهم

(١) ابن هشام ، ج ٣ ص ٢١١ ، ٢١٥ ؛ السعودي : التنبيه والأشراف ، ص ٢٣٠ .

٢٣١ .

(٢) ابن هشام ، ص ٣٢٨ ، ٣٣٨ ؛ السعودي ، نفس المرجع ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن هشام ، ص ٣٥٢ ، ٤٥٣ .

الغساسنة . وأثبتت أحداث الفتوحات الإسلامية في أراضي الدولة البيزنطية صدق هذه الإشارة السالفة ، فكان البيزنطيون أشد المحاربين عناداً ، كما وقف جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى جانبهم في معركة اليرموك ، أحسم الوقائع الحربية وأشدها حرجاً بين المسلمين والبيزنطيين .

وعمل أبو بكر خليفة الرسول على تحقيق أهداف النبي والسير قدماً نحو إنجازها . ففي السنة التي توفي فيها الرسول (٦٣٢م) بعث أبو بكر أسامة على رأس الجيش الذي أعده النبي من قبل إلى شمال بلاد العرب . فغزا أسامة بلدة يبنى بين عسقلان ويافا الحالية ثم قفل راجعاً . ويبدو أن أبا بكر أراد بالعمليات الحربية التي قامت بها الجيوش الإسلامية إذ ذاك أن يسبر غور البيزنطيين ويعجم عودهم ، فكانت تعليماته لقواده ألا يتجاوزوا أراضي الأطراف البيزنطية شمال بلاد العرب . ففي سنة ٦٣٣ م / ١٢ هـ أوغل أحد قادة جيوشه وهو خالد بن سعيد في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق ، مخالفاً ما لديه من تعليمات . فكانت مغبة هذه الجرأة وخيمة ، إذ انهزم خالد وقفل راجعاً^(١) . وبذلك استطاع أبو بكر أن يدرس الموقف الحربي في الشام ، واقتنع بأن الضرورة الحربية تقتضي غزو بلاد الشام غزواً صحيحاً منظمًا . وهذا بينما الدولة البيزنطية غارقة في أحلامها القديمة بأن القوات العربية التي التقت بها ليست طلائع لموجة جارفة وإنما عصابات صغيرة تبغى السلب والنهب في أراضيها .

أعد أبو بكر بعد انتهائه من حرب الردة الجيوش الإسلامية لتشن هجومًا في الجنوب والجنوب الشرقي من بلاد الشام ، وعقدلواها لأربعة قادة مشاهير ، أبو عبيدة بن الجراح ، عمرو بن العاص ، يزيد بن أبي سيفان ، شرحبيل بن حسنة ، وكلف كل

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٣٠

واحد منهم مهاجمة مقاطعة معينة من إقليم الشام^(١). وفي نفس الوقت احتفظ أبو بكر بقوات خالد بن الوليد ، ذلك القائد الموهوب ، في ميدان أهدأ نسبياً ، وهو الميدان الشرقي في أرض فارس ، إلى حين تدعو الحاجة إليه . وكان أبو بكر صائباً في رسم خطه . إذ سرعان ما دعت الحاجة إلى خالد بن الوليد وقواته^(٢) ، فقد لقيت الجيوش الإسلامية جهداً ونصباً رغم ما أصابته من فوز في أعمالها المتفرقة في مقاطعات الشام . فكانت تلك المقاطعات منذ تعديل النظام الإداري للإمبراطورية البيزنطية في عهد جستنيان العظيم ، مناطق إدارية حربية ، يتولى تصريف شؤونها حكام يجمعون بين السلطة المدنية والأدارة الحربية^(٣). وكانت ميزة هذا النظام الجديد جعل المناطق الإدارية وحدات قائمة بنفسها قادرة على رد أي عدوان يقع عليها ، أو انهالك مهاجمها حتى يأتيها المدد من جهات أخرى تجاورها . فلاقت الجيوش الإسلامية نصيباً لتفرقة جهودها في الجهات التي هاجمتها ، ووقف تيار زحفها ، على حين كان هرقل يسرع في إعادة تنظيم جيشه المهوك القوى بعد حرب فارس . وجعل هرقل أخاه

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٣٢ . كانت الجهات التي عينها أبو بكر لقواده هي : أبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة في الحامية ، عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، يزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق ، شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن Hell, op cit, 49. (٢)

(٣) يعزى إلى الأمبراطور جستنيان الفضل في إعادة تنظيم الإمبراطورية البيزنطية من الناحية الإدارية ، وتبعه خلفاؤه في تحسين النظم التي وضعها . وكان هدف جستنيان هو تقوية جهات إمبراطوريته المعرضة لأخطار خارجية ، أو التي تضطرم بالفتن والثورات . فاقضى ذلك منح حكام تلك الجهات سلطات حربية إلى جانب المهام الإدارية التي اضطلعوا بها . وكانت فرق من الجيش موزعة في هذه الأقاليم وخاضعة لأشراف الحاكم العام الذي لقب باسم « استراتيجي » (Strategus) . وتطور هذا النظام في عهد الأمبراطور هرقل ، وغدا ركنا هاماً في حياة الإمبراطورية التي هددتها الأخطار الفارسية وغيرها . فكانت بلاد الشام وغيرها من أقاليم الدولة البيزنطية ولا سيما آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية من هذا النوع أطلق عليها اسم ألبنود (Themes) وهي تسميه مشتقة من كلمة (Thema) أي فرقة عسكرية .

تيودور قائداً لهذا الجيش الذي بعثه إلى جنوب الشام لملاقاة الخطر الاسلامي الجديد الذي أخذت سحبه تتكاثف هناك . فاضطرت القيادة الاسلامية إلى تعديل خطتها لمواجهة الوضع الجديد ، إذ رأى أبو بكر ضرورة توحيد الجيوش الاسلامية وحركاتها تحت لواء واحد ، فاستدعى خالد من الميدان الشرقي حيث أخضع الحيرة إذ ذاك ليتولى قيادة الجيوش الاسلامية في الشام ^(١) .

وهكذا أثمرت خطة أبي بكر في الاحتفاظ بخالد وقواته إلى وقت الحاجة إليها ، كما برهن على أنه خير خلف للرسول في وضع الشام في المكان الأول من اهتمامه ، وتقديره لضرورة الإستيلاء عليها . وسرعان ما وصل خالد إلى ميدان الشام بعد اجتيازه صحراء موحشة بطريقة فذة ما زالت مثار الدهشة والتساؤل حتى الآن ، وهناك انضم إلى القوات الإسلامية التي تولى القيادة العليا لها . ومنذئذ بدأت الحملات النظامية في الشام ، فافتتح خالد سلسلة انتصاراته بحادث تاريخي يعتبر تحقيقاً لأمنية الرسول وبداية للسير قدما بهذه الأمنية ، إذ استولى على بصرى ^(٢) (٦٣٤ م / ١٣ هـ) التي كان استشهاد رسول النبي إليها قطب الرحي الذي دارت عليه سياسة الرسول الحربية ، وكذلك سياسة خليفته أبي بكر ، إزاء بلاد الشام . ثم توالى انتصارات المسلمين الحربية ، فسقطت دمشق ، عاصمة إقليم الشام ، ومحط رحال القوافل العربية منذ قديم الزمن بعد حصار دام ستة أشهر (٦٣٥ م / ١٤ هـ) . ولم تجد جهود الإمبراطور هرقل للقيام بهجوم مضاد يشل حركة الجيوش الإسلامية المظفرة ، إذ استطاع خالد بن الوليد أن يقضى على الجيش البيزنطي الذي وصل إلى جنوب الشام في ٥٠.٠٠٠ رجلاً في معركة اليرموك الحاسمة . وتجلى في الخطة الحربية التي رسمها خالد للقضاء على هذا الجيش البيزنطي ما تحلى به من عبقرية فذة ومواهب

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٣١ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١١٩ .

الطبري ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

ممتازة في إدارة دفعة الجيوش الإسلامية . فجمع حوالي ٢٥٠٠٠ من جند المسلمين في وادي اليرموك^(١) ، حيث عسكر البيزنطيون إلى الشمال من ذلك النهر . وفتن خالد إلى ضعف الموقف البيزنطي ، إذ كان النهر يدور في الشمال على شكل نصف دائرة تقريباً ، بحيث يحتضن جنوبي القوس سهلاً له باب واحد من الجنوب ، بينما بقية مدخله مغلق بمخندق طبيعي . فسد خالد المدخل الجنوبي ، على حين دار خلف الجيش البيزنطي وألقى عليه حلقة محكمة من الحصار ، ثم شن هجوماً مرعباً على الجيش البيزنطي ، الذي لقي هزيمة فادحة ، وسقط معظم الجند البيزنطيون قتلى في قاع النهر ، وغدت فلولهم أشتاتاً مبعثرة تهيم على وجوهها لا تدرى لها مفراً^(٢) .

تعتبر معركة اليرموك من أشد المعارك وأحسمها في التاريخ ، إذ قررت مصير الشام ، أجمل أقاليم الدولة البيزنطية ، والتي حق لهرقل أن يودعها قائلاً : « عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو »^(٣) . وتلك العبارة التي ودع بها هرقل أرض الشام تحمل معاني واسعة أوجزها قائد محنك ، خاض كثيراً من الحروب بنفسه وحول تيارها دائماً إلى جانب دولته . فأدرك هرقل ، وعبر عن ذلك في عبارته الختامية ، أن الشام المفتاح الذي يسهل للمسلمين ولوج أبواب جديدة والاستيلاء على أقطار شاسعة تجعلهم سادة إمبراطورية عالية . وأدرك المسلمون من ناحيتهم أهمية ذلك الإقليم الجميل الذي وضع النبي أولى الخطط للاستيلاء عليه وقام خليفته خير قيام للنهوض بالتركة التي خلفها له الرسول هناك . ثم جاء خليفة أبي بكر وهو عمر ابن الخطاب ليتم البناء ، فبعث الجيوش إلى شمال الشام حيث وصلت إلى حدوده الطبيعية وهي جبال طوروس ، ولقيت من أهالي المدن الشامية ترحيباً وتقديراً

(١) اليرموك نهر صغير ينبع من مرتفعات حوران ، وينساب في خانق ضيق متعرج ويتصل بنهر الأردن على بعد ستة كيلو مترات ونصف جنوبي بحيرة طبرية .

(٢) محمد أحمد حسونة ، الجغرافيا التاريخية ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٤٣ .

صورتها تلك العبارة التي رويت عن سكان حمص : « لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم »^(١) . كذلك حضر الخليفة عمر بنفسه ليتولى تسليم بيت المقدس التي حاصرها عمرو بن العاص سنة ٦٣٦ م ، والتي أبي بطريقها إلا أن يسلمها للخليفة نفسه . فكتب عمر لبطريقها صفرنيوس عهد أمان ، وانتهز كذلك فرصة وجوده بالشام ، فقام بتنظيم إدارته وتعديل قيادة الجيوش الإسلامية به ثم قفل راجعاً إلى المدينة^(٢) .

على أن بزنطة لم تكن لتترك المسلمين ينعمون بالاستقرار في بلاد الشام ، إذ دأبت الآمال هرقل على شن هجوم قوى يجلي به المسلمين عن الشام عله يعيد قصة انتصاراته على الفرس . وبدا أن الفوز حليف هرقل في تلك المحاولة^(٣) ، إذ كانت القبائل العربية الضاربة في أرض الجزيرة ، قرب شمال الشام ، لا تزال على ديانتها المسيحية وتمرداها ، تبغى القضاء على سلطان الجيوش الإسلامية التي استقرت في العراق والشام ، خشية أن يمتد إليها بأسها ونفوذها . فراسلت هرقل تطلب منه العون على مهاجمة المسلمين . وهنا يتضح أول خطر ملح هدد كيان المسلمين في الشام بالزوال . فإلى ذلك الوقت كان المسلمون يلقون ترحيباً من أهالي البلاد حباً في التخلص من الإضطهادات المذهبية التي قامت بها الدولة البيزنطية ، كما كانوا عاملاً هاماً في تسهيل فتح البلاد للمسلمين . ولكن رأى هرقل في تألب القبائل العربية النصرانية فرصة مواتية كفييلة أن تزلزل أركان المسلمين بالشام . فراسل تلك القبائل وحضها على التجمع استعداداً لتلقى مدد يأتي إليها بجرأاً من مصر . وأقبل هرقل يمدد الجيوش مرة أخرى بعد أن قضى سنة مستجمماً بعيداً عن ميدان القتال في

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٤٤ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

Bury, op cit, II 268

(٣)

Sir William Muir, The Caliphate, its Rise Decline and Fall, 140 .

الشام ، ووجد عنده الأمل أن معظم ثغور الشام على البحر الأبيض لا زالت تقاوم المسلمين كما أن البحر ما زال طريقاً مفتوحاً أمامه آمناً يمكن أن ينقل عبره قواته. وأبحرت الجيوش البيزنطية سنة ٦٣٨ م من الإسكندرية بقيادة قنسطنطين بن هرقل نفسه ، مما يدل على الأهمية الكبرى التي علقها هرقل على تلك الحملة . وألقت الحملة مرساها في أنطاكية التي استولى عليها البيزنطيون وانضموا إلى القبائل العربية^(١) المتمردة .

ولم يلبث أن ثارت أقاليم الشام الشمالية وألني أبو عبيدة نفسه محصوراً في حمص على حين يسير أعداؤه لمحاربتة من البر والبحر . فكتب إلى الخليفة بالحجاز يستنجده ، كما عقد مؤتمراً حربياً من القادة المسلمين للتشاور في الوضع الحربي . وكان الأمر خطيراً والموقف حرجاً ، إذ استقر رأى المؤتمر الحربي على إلترام خطة التريث والدفاع ، وعارض القادة لأول مرة رأى خالد بن الوليد القائل بالمبادرة إلى مهاجمة العدو . وفي نفس الوقت أمر الخليفة القعقاع ، أحد قادة المسلمين في العراق ، أن يتوجه بأسرع ما يمكن لمساعدة أبي عبيدة ، على حين جمع النجدات من الحجاز ، وسار بنفسه على رأسها متجهاً إلى الشام . وكانت خطة المسلمين ترمي إلى إخراج القبائل المتمردة من دائرة الجيش البيزنطي . وملاقاته على حده . فانطلق سهيل بن علي وعبد الله بن عتيان للقيام بحركة إلتفاف حول أرض الجزيرة ومهاجمة قبائلها . وكان لإسراع المسلمين في إرسال النجدات وجدية حركتهم أثر في إلقاء الرعب في نفوس القبائل التي تخلت عن البيزنطيين وقفلت راجعة إلى مضاربها مؤثرة السلامة^(٢) . وكان نجاح هذا الشرط من خطة المسلمين بإخراج القبائل من نطاق البيزنطيين مدعاة للمبادرة بالهجوم على الجيش البيزنطي . فأظهر البيزنطيون رغم شدة هجوم المسلمين

(١) Gaussin De Parceval, Essai sur l'Histoire des Arabes III, 512

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

بأساً وصلداً كانا كفيلين بصد المسلمين لو أن القبائل العربية ظلت على تعضيدها ومساعدتها . على أن مقاومة البيزنطيين إنهارت قبل أن تصل إمدادات القعقاع ونجدات الخليفة ، وانسحبت القوات البيزنطية بجزراً إلى الإسكندرية والقسطنطينية .

وبذلك ثبتت أقدام المسلمين في الشام ، وجنت جيوشهم المظفرة أولى ثمار جهودهم التي جاءت نتيجة اضطراب أحوال الدولة البيزنطية في تلك البلاد . لكن خرج المسلمون من أحداث حروبهم في الشام بدرس وسع مجال أفعهم الحربى ، إذ رأوا أن استقرارهم في الشام حجب الزاوية لفتوحاتهم الجديدة رهن بالإستيلاء على مصر .

فتح مصر

رأى المسلمون في مقاومة البيزنطيين لهم في الشام خطة منظمة ، تعمل على عرقلة حركاتهم وتقويض دعائم سلطتهم في تلك البلاد إذا سنحت الفرصة . وجاءت حركة الإمبراطور هرقل الأخيرة حافزاً قوياً حمل قادة الجيوش الإسلامية على أن يتدبروا موقفهم في الشام على ضوء الحوادث والأمور الواقعة . وينسب إلى عمرو بن العاص ، قائد الميدان الجنوبي في الشام ، الفضل في إدراك كنه الموقف الحربى ، وبيان الدور الذى أسهمت به مصر فيما يعانیه المسلمون من متاعب في الشام^(١) . فمصر كانت

(١) لم تتناول المراجع الأصلية سواء العربية أو البيزنطية الأسباب التي حملت المسلمين على فتح مصر بشيء من الأيضاح . ويستشف القارىء للروايات التي تداولتها تلك المراجع على أن فتح مصر جاء وليدة مغامرة القائد عمرو بن العاص الذى رغب في إظهار مواهبه في هذا الميدان الجديد . ولكن المدقق في تمحيص الروايات العديدة يلمس أن الدور الذى لعبه عمرو — وإن كان هاماً — ليس الدافع الرئيسى أو الأهم على فتح مصر . فلا يعقل أن يقدم المسلمون وعلى رأسهم إذ ذاك خليفة حذر ، لا يندفع وراء أمور عارضة ، وهو عمر بن الخطاب ، على فتح مصر دون أسباب لها خطرها ، مذكور أكثرها في العرض المدون في هذا الفصل .

القاعدة التي انسحب إليها الأرطوبون (Areteon) داهى دهاة الحرب في الشام^(١). فقد رأى هذا القائد البيزنطى أن الاحتفاظ بالشام أو الدفاع عنها مضيعة للقوى البيزنطية ومهلكة لها ، وأن الأجدى التجمع في منطقة آمنة يشن منها هجوما مضادا على القوات الإسلامية في الشام . وقد تقهقر هذا القائد بقواته من فلسطين دون أن يدافع عن بيت المقدس ودخل مصر .

ويظهر أن مفاوضة البطريق صفرنيوس للمسلمين وإصراره على حضور الخليفة عمر بنفسه للاستيلاء على بيت المقدس كان كسبا للوقت ، ليتمكن القائد البيزنطى من سحب جنوده من تلك المدينة والوصول إلى مصر آمنا . ولعل تلك الأحداث جرت على اتفاق سابق بين البطريق والقائد البيزنطى ، كل يعمل لما فيه الصالح العام ، الأول يحافظ على مدينته والآخر يرعى جنوده وقواته . ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظهرت أهمية مصر للمسلمين وخطر تجمع القوات البيزنطية بها حين بعث هرقل حملته البحرية من الإسكندرية واستولت على أنطاكية ، وكادت أن ترزع الفتوحات الإسلامية بالشام . فما لا شك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته في قلوب قادة المسلمين من فزع جعلهم لا يفضون الطرف عن ذلك الأقليم الذي انبعث منه الحملة ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية ، فأنهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة ولا يرغبون في بقائهم في حالة ترقب وخوف .

وربما قوى تلك المخاوف عندهم أن البحر مازال في أيدي البيزنطيين تسير فيه سفنهم حاملة الجيوش لاسترداد الثغور البحرية التي استولى عليها المسلمون ، وعمد الموانى التي لم تسقط بعد بالعدة والعتاد . فأنطاكية فتحت أبوابها بسرعة لقوات

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥٩ . وقد تحدث الطبرى عن الأرطوبون قائلا : « كان الأرطوبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعلا . وقد وضع بالرملة جندا عظيما وبأيلياء جندا عظيما ، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فلما جاءه كتاب عمرو قال : قد رمينا أرطوبون الروم بأرطوبون العرب » أنظر الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٥٧ .

هرقل البحرية وغدت مركز الثورة ضد المسلمين في الشام . وقيسارية في الجنوب . ظل عمرو ومحاصرها بعد سقوط بيت المقدس دون أن يمسه بشيء ، لأبراجها المنيعة وأسوارها الحصينة وجانبها المطل على البحر الذي يلقي الإمدادات . ومن الجلي أن أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانئ هي مصر^(١) ، التي غدت محور ارتكاز القوات الحربية للدولة البيزنطية في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فهذه الأسباب المباشرة هي التي حملت الخليفة عمر على عقد مؤتمر الجابية بعد استرداد شمال الشام لدراسة الموقف الحربى ، واتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الفتوحات الإسلامية هناك . ولم يكن مستغرباً أن ينفرد القائد عمرو بأدارة دفعة المناقشات في هذا المؤتمر مبيناً العراقيل التي تضعها مصر في طريق فتوحات المسلمين في الشام . فعمرو هو قائد المنطقة الجنوبية (أى فلسطين) الذى رأى الجيوش البيزنطية تتجنب الاحتكاك بقواته وتنسحب إلى مصر ؛ وأن مصر هي التي تبعث الإمدادات إلى الشام مما جعله يقف مكتوف الأيدي أمام قيسارية^(٢) .

ولا بد أن هناك عوامل أخرى جعلت مؤتمر الجابية يقرر غزو مصر إلى جانب الأسباب السابقة ، التي لم تكن إلا حدثاً مباشراً جذب أنظار المسلمين إلى مصر . فالعرب منذ قديم الزمن بقدرهم أهمية مصر ومركزها في الدولة البيزنطية . فهى الخزن الذى يمد الدولة بالغلل ويهوى لها رغداً من العيش ، والإستيلاء عليها كفيل بكسر شوكة المقاومة البيزنطية وإزهاق الدولة البيزنطية نفسها ، وحرمانها من

(١) M. De Goeje, Memoire sur la conquête de la Syrie, 167.

Ameer Ali Syed, A short history of the Saracens, 40.

(٢) وكان عمرو بن العاص يعلم عناد الأربطون ودأبه على الحرب منذ أن التقى معه في حروب الشام . وكانت سياسة الأربطون التأثير على روح عمرو المنوية . فمن ذلك ماراوه الطبرى : « كتب أربطون إلى عمرو بأنك صديقى ونظيرى أنت فى قومك مثلى فى قومى ، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد إجنادين ، فارجع ولا تفر فتلقى مالى الذين قبلك من الهزيمة » -

أهم الشرابين التي تبعث فيها ماء الحياة^(١). كذلك من المحتمل أن قادة المسلمين ، وقد اتسع أفق تفكيرهم الحربى نتيجة للحملات المنظمة التي قاموا بها ، أدركوا أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فى الشام فحسب ، بل هى ذات مركز إستراتيجى يهىء له موقعه الجغرافى شن حملة انتقامية على بلاد العرب نفسها حين يفىق البيزنطيون إلى أنفسهم^(٢). ولعل قادة ذلك المؤتمر — بما فطر عليه العربى من حفظ أيام بلاده وأحداثها — تذكروا حملة القائد الرومانى جايوس جالوس زمن الإمبراطور أكتافىوس ؛ إذ أبحر هذا القائد من ميناء القلزم على البحر الأحمر على رأس حملة ألفت مرساها فى بلاد الحجاز وتابعت السير لمهاجمة الحميريين فى اليمن . فربما يكرر البيزنطيون هذا الدور ضد الحجاز ، ذلك المنبع الذى أخذ يقلق راحتهم ويقض مضجعهم . وأخيراً رأوا فى الإستيلاء على مصر حرماناً للأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام أو فى مياه البحر الأحمر قبالة الحجاز^(٣).

ولذلك كانت الدوافع التى حملت الخليفة عمر على أن يمنح عمراً فى مؤتمر الجابية الحربى سلطة فتح مصر أسباباً لها قيمتها الجوهرية ، كما كان رأياً ثاقباً جاء وليد البحث والإستقصاء ، فضلاً عن مواجهة مقتضيات الظروف . فالمرء يعرف

Cambridge Mediaeval History II, 349.

I bid,

349.

(١)

(٢)

(٣) لازالت مسألة فتح مصر تحتاج إلى دراسات تفصيلية . ويعتبر كتاب بتلر (فتح العرب مصر) من الدرجة الأولى فى وصف سير الحملة الإسلامية ومناقشة حوادث سقوط المدن المصرية واحدة بعد الأخرى فى أيدي المسلمين . ولكن بتلر لم يناقش فى إسهاب الدوافع التى حملت المسلمين على توجيه إهتمامهم إلى مصر ، فى هذه المرحلة المبكرة من فتوحاتهم . وكذلك مسألة خطاب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص وهو فى طريقه إلى فتح مصر تحتاج إلى مناقشة لا يتسع المجال هنا لترديدها . وقد اكتفيت بسرده ما يمكن استخلاصه من الآراء المذكورة فى هذا الفصل .

عن الخليفة عمر ولا سيما في تلك الحروب التي جرت في عهده ، حبه في التأنى وكبح جماح السرعة الحربية التي جرت بها عجلة الحروب ، وعدم تعريض قواته للخطر ، ودأبه في العمل على سلامتها وتأمين مراكزها قبل الإقدام على أية مغامرة جديدة . ولذا كان إرسال الخليفة عمر الجيوش لفتح مصر وليد إلحاح ضرورة حربية استدعت تأمين قواته وفتوحاته في الشام . وهذا يحملنا على النظر في أمر الخطاب الذي قيل إن الخليفة عمر أرسله إلى قائده عمرو وهو في طريقه لفتح مصر ؛ إذ ما تذكره الروايات عن مضمون هذا الكتاب وهو حمل عمرو على العودة إن لم يكن قد بلغ أرض مصر ، أو السير قدماً في وجهته إن هو دخل أرضها حين استلامه الكتاب ، فهذا قول لا تشجع الحوادث أو كياسة الخليفة عمر على التسليم به على علته . أضف إلى ذلك أن مثل تلك الخطوة كفيلة — إذا قفل عمرو راجعاً دون فتح مصر — بأن تحط من هيبة القوات الإسلامية التي ملأت انتصاراتها الآفاق ، وأن تظهر المسلمين بمظهر أناس يرتجلون خططهم ، وهذا مالا تؤيده حوادث حروبهم . وعلى الجملة فإن وقوع الاختيار على عمرو ، الخبير بشئون مصر ومسالكها لتاجرت فيها زمن الجاهلية ، دليل قاطع على أن الحملة التي وجهت لفتح مصر سارت لتحقيق هدف خاص هام لا يخالطه التردد أو الريب .

وقصة فتح عمرو لمصر تدل على أن اضطراب أحوال الدولة البيزنطية كان السبب الرئيسي في ضياع ذلك الأقليم ، فالجيوش البيزنطية كانت عديدة وقوية في مصر ، وفي استطاعتها صد قوات عمرو الضئيلة . غير أن قيادة تلك الجيوش كانت مفككة ، لا رابط بين قوادها أو تعاون^(١) . كذلك أضخى هرقل رجلا مسنا أخذ الضعف يدب في أوصاله ، ورغم محاولاته المتكررة لصد العرب ،

(١)

Vasiliev, op cit, 277, 278,

J. Maspero, Organisation Militaire de l'Egypte Byzantine,

انظر الباب الرابع من هذا الكتاب الذى وضعه ماسيرو لتوضيح الإشارة السالفة ، من ص ١١٤ إلى ١٣٢ .

وتكليف أبنائه وأقاربه قيادة الجيوش للقيام بذلك الغرض ، فشل في صد تيار عمرو الجارف . وأخذ هذا القائد المسلم يجنى في مصر ثمار سياسة الإضطهاد الديني التي اتبعتها بيزنطة هناك ، فاستولى عمرو على الفرما (٦٤٠ م / ١٩ هـ) أو بلوزيوم مفتاح مصر الشرقية ، بعد حصار لم يصلها فيه أية إمدادات بيزنطية . ثم احتل بلبس وحصن بابليون (٦٤١ م / ٢٠ هـ) الذي جعله سيد مصر الوسطى والدلتا . واتجه عمرو بعد ذلك إلى الإسكندرية التي كانت العاصمة إذذاك ، فاستولى على نيقوس في الطريق إليها ثم التي الحصار على الإسكندرية التي كان بها قوة تبلغ ٥٠٠٠٠٠ رجل ويشد أزرها الأسطول البيزنطي . وحاول هرقل أن ينقذ تلك المدينة ، فأخذ يعد العدة لذلك ، وصمم على أن يخرج بنفسه على رأس الجيش الذاهب إلى الإسكندرية . على أن مجهودات هرقل كانت كصحوة الموت إذ لم يلبث أن توفي في فبراير سنة ٦٤١ م قبل سقوط الاسكندرية التي استولى عليها المسلمون في سبتمبر سنة ٦٤٢ م / ٢١ هـ^(١) . وبذلك غدا المسلمون سادة مصر إلى جانب سيادتهم للشام ، وأضحوا يتطلعون إلى البحر الأبيض المتوسط الشرقي الذي طلت سواحل ممتلكاتهم عليه ، يعملون على دفع غائلة البيزنطيين وإقصاء سلطانهم عنه . وتجلى إهتمام المسلمين في المحافظة على هذين القطرين الهامين في اتجاههم منذ زمن مبكر إلى العناية بالشؤون البحرية . فأقبلوا أولاً على تحصين سواحلها المطلة على البحر الأبيض المتوسط وتقويتها بالحاميات الدائمة (الرباط) ، التي كان يختار أفرادها دائماً من أولى البأس والقوة . ثم لم يلبث المسلمون أن أنشأوا السفن الحربية وغدت أساطيلهم تمخر عباب المياه ، قصد أساطيل البيزنطيين ، وتوقع بها الهزائم قبل أن تقترب من الشواطئ الإسلامية .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٥٨ ، ٧٢ ؛ السيوطي ، حسن الحاضرة ،

التنافس بين المسلمين والبيزنطيين
في البحر الأبيض المتوسط الشرقي

فشل البيزنطيين في استعادة مصر والشام

كانت السنوات الأخيرة من عهد هرقل فترة اضطراب ومتناقضات في الدولة البيزنطية . فذلك الإمبراطور الذي قضى زهرة حياته في إعادة النظام والسلام إلى الدولة ، وقضى على عدوها اللدود دولة الفرس العتيدة ، شاهد في السنوات الختامية من حياته إقتطاع الشام ومصر من إمبراطوريته مرة أخرى . كذلك لم ينعم طويلا بالاحتفالات التي حضرها في الشام لإعادة صليب الصلبوت إلى بيت المقدس بعد استرداده من الفرس . والظاهر أن طاقة هرقل الجسمانية ضعفت لدرجة أقعدته عن تولى قيادة الجيوش البيزنطية بنفسه لمقابلة القوات الإسلامية . فكان يعهد إلى أولاده والأخصاء من أقاربه قيادة الجيوش ، غير أن الفوضى شملت أرجاء البلاط البيزنطي وقتئذ ، وقنع هرقل ذلك الإمبراطور المعتد برأيه أن يسلم بمطالب زوجته مارتينا الجميلة الطموح . فترك وصية تنص على أن يتولى شؤون الدولة من بعده ابنه الأكبر قنسطنطين ويشاركه هيرقلوناس بن مارتينا وزوجته مارتينا كذلك (١) . ولذا كان البلاط البيزنطي في الأيام الأخيرة من عهد هرقل ، ولا سيما إبان توغل الجيوش الإسلامية في أرض مصر ، مسرحاً للفساد والمؤامرات ، تقودها الإمبراطورة مارتينا بغية تهيمته الجولانفرادها ومعها ابنها بالحكم . فانقسم القواد البيزنطيون شيعاً كل يؤيد حزبا من الأحزاب ، كما عزل البعض منهم أو أطلق سراح الآخرين حسبما

(1) Bury, op cit , 282.

تهوى السلطات العليا في القسطنطينية (١) .

وانعكست صورة هذه الفوضى التي سادت العسكريين في تفكك قيادة الجيوش البيزنطية المدافعة عن مصر ، وغدا الاستبسال في الدفاع عن البلاد المصرية ضد الجيوش الإسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذلك . فن القواد البيزنطيين الذين قاوموا الجيوش الإسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذي صمد لحصار عمرو بن العاص للاسكندرية ، وكاد يبعث الضجر في نفوس المحاصرين العرب . ولكن ما أن توفي هرقل حتى عم الاضطراب في القسطنطينية ، ويئس مانويل من وصول إمدادات تشد أزره في الدفاع عن الإسكندرية وانسحب منها بجرأ . وكانت مرتينا صاحبة النفوذ الأعلى إذ ذلك في الدولة البيزنطية قد منحت قيرس (المقوقس) سلطة مفاوضة العرب في مصر (٢) . على أن هيمنة مارتينا على شئون الدولة لم تطل كثيراً ، إذ توفي قنسطنطين الابن الأكبر لهرقل ، وسرت الإشاعات أن مارتينا هي التي سببت وفاته . وتمخص شعور الإستياء عن إقصاء مارتينا وإبنها عن الحكم وتولية ابن قنسطنطين المتوفى وهو قنسطانز الثاني (Constans II) (٣) . وفي عهد هذا الإمبراطور أخذت الدولة البيزنطية تعدل سياستها لمواجهة الحالة التي خلقها العرب لهم في البحر الأبيض المتوسط الشرقي . فعمل قنسطانز أولاً على استرداد مصر والشام من المسلمين معتمداً على قوته البحرية . وأرسل في نهاية سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ ثلاثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد لاسترداد مصر . وكانت تلك الحملة تحت قيادة مانويل ، ذلك القائد الذي دافع عن الاسكندرية في حصارها الأول دفاعاً مجيداً . وجاءت الحملة مفاجأة

(1) Bury, opcit, 283.

(١)

(2) Bury. op cit, 271 , 288,

(٢)

Butler, op cit , 304, 319, 320.

(3) Bury, op cit II , 284 , 285 , 286

(٣)

للمسلمين في مصر ، حيث سلمت الإسكندرية سريعاً واتخذها مانويل قاعدة للتوغل في الأراضي المصرية (١) . وتقدمت الجيوش البيزنطية فعلاً حتى كادت تقرب من حصن بابليون . واضطربت القيادة العربية العليا في الحجاز من أبناء هذه الحملة مما حملها على إيفاد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، ليصد العدوان البيزنطي . فكانت إعادة الخليفة عثمان قيادة الجيوش في مصر إلى عمرو بن العاص عملاً هاماً وخطوة موفقة ، إذ التقى فاتح مصر الأول والخبير بشؤونها ، بالقائد مانويل البيزنطي العنيد الذي أراد أن يعيد مجد دولته في مصر . ورغمما عن استماته مانويل في الحرب فإنه لقي هزيمة عند نيقوس وعاد إلى الإسكندرية حيث تحصن بها ونصب المجانيق على أسوارها (٢) .

وهناك وقف عمرو ، الذي تابع انتصاراته ، مشدوها مرة أخرى أمام أسوار الإسكندرية ، وفاض به الحنق لوقوفها في وجهه ، وأقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان (٣) . وذهبت مجهودات مانويل في التحصن داخل الإسكندرية أدراج الرياح ، إذ تمكن عمرو من دخول المدينة في أوائل سنة ٦٤٦ م عن طريق استمالة أحد حراسها وأعمل الذبح والتقتيل في الحامية البيزنطية التي خر قائدها مانويل نفسه قتيلًا في الميدان (٤) .

كانت حملة مانويل على مصر شعبة لحركة مزدوجة ، إتجه طرفها الآخر برآ في نفس تلك الفترة (حوالي عام ٦٤٦) لمهاجمة الشام . على أن هذه الحملة الأخيرة

(١) ابن عبد الحكم : نفس المرجع ، ص ١٥٧ ،

Bury, op cit II , 288

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٣٥٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) المقرئى : المواعظ ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٤) المقرئى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

منيت بدورها بهزيمة فادحة على يد معاوية وإلى الشام^(١) ، الذي أتم بذلك القضاء على مشروع قنسطانز لمحاولة إعادة سلطان الدولة البيزنطية في مصر والشام . وغدا المسلمون سادة أهم شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، ورأوا أن تدعيم تلك السيادة يستلزم إنشاء الأساطيل لرد أي عدوان تشنه بيزنطة . وكان اتجاه المسلمين لركوب البحر مشكلة اضطروا لمواجهتها بعد تلك الإغارات البحرية المتكررة التي شنها البيزنطيون على فتوحاتهم الجديدة . وبرهن العرب على حسن إدارة مصر والشام واستخدام أهاليهما في سياستهم البحرية ، حتى غدا لهم أسطول كانت مصر نفسها عموده الفقري وعصب حياته .

إعادة تنظيم الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي

وسار النصر في ركاب الأسطول الإسلامي منذ بدأ حركاته الأولى ضد البيزنطيين في مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقي^(٢) . فاستهل المسلمون نشاطهم البحري بالإستيلاء على قبرص (٦٤٩ م / ٢٨ هـ) لحماية شواطئ الشام وتأمينها من إغارات البيزنطيين^(٣) . كذلك أحرز الأسطول الإسلامي انتصاراً باهراً كان نقطة التحول في السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ففي سنة ٦٥٥ م / ٣٤ هـ ، أبحر الإمبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية كبيرة لعرقلة الاستعدادات البحرية التي كان المسلمون يعدونها في موانئ الشام لشن إغارة على القسطنطينية . وأسفرت المعركة البحرية التي نشبت عند فوينكس (Phoenix) قرب شواطئ ليكيا — بآسيا الصغرى — عن انتصار المسلمين واندحار

Bury, op cit, II, 288 . (١)

Vasiliev, op cit, 281. (٢)

(٣) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٤٠ . لم يكن احتلال المسلمين لقبرص دائماً ، وإنما توالى الأخذ والرد على هذه الجزيرة بين المسلمين والبيزنطيين .

البيزنطيين الذين كاد امبراطورهم نفسه يقع أسيراً في قبضة المسلمين^(١).
وتعتبر تلك الواقعة البحرية التي يسميها المؤرخون العرب معركة ذات الصواري،
لكثرة صواري السفن التي اشتبكت في القتال، حداً فاصلاً في سياسة البيزنطيين
إزاء المسلمين. فقد أفاق الإمبراطور قنسطانز بعدها إلى نفسه وأدرك أن إعداد أية
حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع، ومحاولات فات
أوانها. ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع
للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها، ويقوى أداها الحربية لصد هجوم المسلمين
الذي أخذ يتطلع إلى القسطنطينية نفسها. وكان ذلك إتجاهاً سليماً دلّ على حصافة
رأى الإمبراطور قنسطانز، واستطاع خلفاؤه على ضوء هذه السياسة أن يوقفوا
تيار الفتوحات الإسلامية عند أطراف آسيا الصغرى الجنوبية. ومما ساعد الأباطرة
البيزنطيين على الدفاع عن كياناتهم أن الفتوحات الإسلامية حملت لدولتهم نتائج
حسنة جاءت عن غير قصد. ذلك أن سقوط مصر والشام في أيدي المسلمين اقتطع
رقعة أقلقت الدولة البيزنطية كثيراً وأجهدتها زمناً طويلاً وصرفت إهتمام أباطرتها
إلى ميدان لا طائل من ورائه، وهو محاولة حل المشكلة المذهبية. وغدت الأراضي
البيزنطية باستثناء بعض الجهات التي ظلت تابعة للدولة، في شمال إفريقية وإيطاليا،
وحدة يسودها سكان إغريق يتكلمون لغة واحدة ويدينون بمقيدة واحدة ومذهب
واحد، ويكونون كتلة متماسكة موالية للإمبراطور. فأضحت بذلك المشا كل التي
تواجهها الدولة البيزنطية محدودة بسيطة. وصح لأحد المؤرخين القول بأن
الفتوحات الإسلامية خففت الأعباء الثقيلة التي ناءت بها الدولة البيزنطية،
وتركتها تجتاز فترة نقاهة تسترد فيها قوتها^(٢).

(١) ابن عبد الحكم، نفس المرجع، ص ١٩٠، ١٩١.

(2) Vasiliev, op cit, 282.

ويلاحظ أن المسلمين لم يتمكنوا من السير قدماً للاستفادة من نتائج النصر الذي أحرزوه في موقعة ذات الصواري ، إذ تلا هذه المعركة مقتل عثمان بن عفان (٦٥٦م/٥٣٥هـ) . ومن ثم بدأت فترة نزاع حول الخلافة بين علي بن أبي طالب وبين غيره من الطامعين فيها وأبرزهم معاوية بن أبي سفيان . فانتهز الإمبراطور قنسطانز فترة الهدوء التي سادت العلاقات الحربية بين دولته والمسلمين وعول على تدعيم إمبراطوريته . ورأى أن ينقل مقر حكمه من القسطنطينية إلى صقلية حيث يستطيع من هذا المقر الذي يربط الدولة البيزنطية بالبقية الباقية لها في شمال أفريقية ، أن يصد الزحف الإسلامي المتدفق من مصر عن هذه البقعة ويحفظ ممتلكاته في الغرب . لكن قنسطانز أغتيل في سيراكوز (٦٨٨م) وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من الإمبراطورية (١) .

الأمويون والقسطنطينية

وبينا هذه الأحداث تجرى في الإمبراطورية البيزنطية إنتهت الإضطرابات الداخلية التي جرت في الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان باستتباب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وإلى الشام سنة ٦٦١م/٤٨١هـ . وبذلك دبت الحياة مرة أخرى في حركة الفتوح الإسلامية ، إذ تطلع معاوية — أول الخلفاء الأمويين — إلى إكمال السياسة الحربية التي بدأها الخلفاء الراشدون من المدينة . فاندفعت العجلة

Vasiliev, op cit, 238, Bury, op cit II, 297, 298, 302.

(١)

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفكر فيها إمبراطور بيزنطي في نقل العاصمة من القسطنطينية إلى مكان آخر . فقد سبق محاولة قنسطانز تفكير الإمبراطور هرقل في نقل مقر ملكه إلى قرطاجنة في شمال إفريقية عندما اشتد الخطر الفارسي على أراضي الدولة البيزنطية وهدد القسطنطينية نفسها . ولكن محاولة قنسطانز كانت ذات طابع يختلف عن تلك التي أراد هرقل تنفيذها . فقد رغب قنسطانز بنقله العاصمة إلى سيراكوز عرقلة الفتوح الإسلامية وإتقاذ ما يمكن إتقاذه من أراضي الدولة البيزنطية في شمال إفريقية .

الحربية الإسلامية تطوى الأراضى البيزنطية في شمال أفريقية حتى وصلت في النهاية — في عهد خلفائه — إلى المحيط الأطلنطى . على أن معاوية تطلع إلى تحقيق تلك الرغبة التي جاشت في نفسه أيام أن كان والياً على الشام ، وهي الاستيلاء على القسطنطينية . فالآن وهو خليفة ، أصبح طليق اليد في إعداد العدة للاستيلاء على عاصمة البيزنطيين وتتويج الفتوحات الإسلامية — التي طوت المدائن من قبل — بهذه العاصمة الجديدة . (وشجع معاوية على الإقدام على تلك المحاولة الجرئية إعتلاء الإمبراطور قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) الصغير السن عرش الدولة البيزنطية بعد مقتل أبيه قنسطانز الثاني . على أن القسطنطينية كانت من معدن آخر غير المدائن ووقفت كالعنقاء أبعد من أن تصاب بفضل موقعها الجغرافى وجهود علماءها الموقفة في اختراع النار البحرية (أو النار الإغريقية) التي اجهدت المسلمين وأزلت بهم خسائر فادحة .

اتجهت الحملة الإسلامية ، التي أعدها معاوية ، شطر القسطنطينية في نهاية سنة ٦٧٢م واشتبكت في عمليات حربية مع الأساطيل البيزنطية في مياه القسطنطينية مدى سبع سنوات (٦٧٤ — ٦٧٠م / ٥٤ — ٥٦ هـ) ^(١) . على أن تلك الفترة كلها لم تكن مسرحاً لحروب متصلة ، فكانت خطة المسلمين قضاء الشتاء في جزيرة كيزيكوس . Cyzicus (وهي أرواد في المراجع العربية) ^(٢) ، وفي الربيع يحاصرون القسطنطينية براً وبحراً حتى يقبل الخريف فيعودون أدراجهم إلى مقرهم الشتوى في كيزيكوس وظل المسلمون يجاهدون على هذا المنوال دون أن تتمكن أساطيلهم أو جيوشهم من الإستيلاء على المدينة . فالقسطنطينية لم تكن إذ ذاك مدينة شبيهة بتلك المدن التي أخذها المسلمون عنوة في الشام ، وإنما كانت عاصمة لإقليم إدارى حربى (وهي

Vasiliev, op cit, 283.

(١)

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوكة (مصر) ، ج ٦ ، ص ٦٤ .

ما يسمى بالبند Theme (١) يستطيع أن يصمد لأي هجوم بري بحري؛ إذ به مؤنه وزاده، وتأتي إليه الإمدادات بحراً من المناطق المجاورة له واستخدم البيزنطيون للمرة الأولى إبان ذلك الحصار ضرباً من الفنون الحربية، عرقل حركات الأساطيل والجيوش الإسلامية، ذلك أن البيزنطيين استخدموا جندهم غير النظامي الذي كان يقيم في مرتفعات جبال طوروس وبصفة خاصة في حصون اللكام (Amanus) في القيام بهجوم مضاد على بلاد الشام نفسها، ذلك أن بلاد الشام غدت بعد سقوطها في أيدي المسلمين القاعدة التي تجمعت فيها القوات البرية والأساطيل الإسلامية لشن إغاراتها أو القيام بحملاتها ضد الدولة البيزنطية وكان هدف البيزنطيين شطر أجناد الشام البرية عن الأجناد الساحلية (٢) ومنع التعاون بينهما وشل حركتهما. وكان أولئك الجند الذين اضطلموا بهذا الهجوم ضد المسلمين عنصراً متمرداً عنيداً، يحيا حياة شبه مستقلة ملؤها المغامرة، فأدوا إلى سادتهم خدمات شبيهة بأعمال فرق الموت أو الصاعقة. وكان من عادة أولئك الجند حمل قضبان حديدية جعلت البيزنطيين يلقبونها باسم (apoblitoi). على أنهم اشتهروا بالاسم الذي أطلقه عليهم العرب وهو المردة، أي الثوار الخارجون على القانون (٣)، إذ أنهم أبوا الإذعان للمسلمين وتراجعوا أمام تقدم الجيوش الإسلامية — زمن الفتوحات الأولى — واستقروا في جبال طوروس، مفضلين

(١) أنظر، ص ٣٩، حاشية ٣.

(٢) كانت بلاد الشام أيام السيادة البيزنطية خاضعة لنظام البنود أو الأقاليم الحربية. وعندما استولى المسلمون عليها أبقوا على هذا التنظيم الإداري وأطلقوا عليه اسم الأجناد (وهو جمع لكلمة جند). فقد أقام المسلمون جنداً في كل إقليم من أقاليمها القديمة. وغدت هناك خمسة أجناد في الشام زمن المسلمين وهي: جند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين، وجند الأردن، وجند فلسطين. انظر ص ٣٩.

Bury, op cit II, 312; Vasiliev, op cit, 285.

(٣)

خدمة الدولة البيزنطية وتنفيذ سياستها ضد المسلمين^(١) . وكلت حركات المردة في الشام بالنجاح ، حيث كان اندفاعهم كالشوكة في جانب المسلمين وأدى إلى شل نشاطهم^(٢) .

كذلك عانى الأسطول الإسلامي وبجارته كثيراً من المتاعب بسبب النار البحرية التي استعملت لأول مرة في ذلك الحصار . وينسب اختراع هذه النار إلى مهندس سوري يدعى كالينيكوس ، كان لاحقاً في القسطنطينية . وجاءت هذه النار مفاجأة غير سارة للمسلمين حيث أذاقتهم أشد أنواع التعذيب والتحريق ، واضطر الأسطول الإسلامي إلى العودة إلى قواعده في الشام . ولكن لم تكن هذه الحادثة نهاية المسألة ، إذ هبت عاصفة حطمت معظم السفن الإسلامية ، على حين طارد الأسطول البيزنطي السفن التي قدر لها النجاة من العاصفة وغنم معظمها^(٣) .

وتوفي معاوية بعد ذلك بقليل سنة (٦٨٠ م / ٦٠ هـ) ، تاركا الدولة الإسلامية تمتاز مرحلة أخرى من الاضطراب الداخلي والنزاع على الخلافة نفسها بين أبنائه وبين كبار رجالات الدولة الإسلامية إذ ذاك . فقد ظلت الخلافة الأموية منذ عهد يزيد بن معاوية إلى أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٠ - ٦٩٢ م / ٦٠ - ٧٣ هـ) في شغل بالقضاء على المطالبين بالخلافة الذين كان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير من بعده أبرز رجالاتهم . فكانت تلك فترة ثمينة هيأت للدولة البيزنطية السكينة والتنعم بثمار انتصارها في الدفاع عن عاصمتها القسطنطينية . فأصبح اسم قسطنطين الرابع ، الإمبراطور الذي دافع بنجاح عن عاصمته ، محط احترام القبائل الضاربة بالأراضي المحيطة بالدولة البيزنطية وأرسلت تخطب وده . كذلك رأت الدول الأخرى

Bury, op cit II, 312 ; Hitti, op cit, 204, 205. (١)

H. Lammens, Etudes sur le Rigne du Mo'awia 1er, 18-20 (٢)

Vasiliev, op cit, 283, 284, (٣)

Bury, op cit II, 310. 311.

في غرب أوروبا أن روما الجديدة — أي القسطنطينية — لا تقل في عظمتها وأهميتها عن روما الخالدة ، وأن روما الجديدة أصبحت الحصن الذي يدافع عن المسيحية وخط دفاعها الرئيسي . ومكنت حالة القلاقل التي سادت الدولة الإسلامية الإمبراطور قسطنطين الرابع من شن إغارات على الشام نفسها ، قام بها أولئك المردة سكان اللكام في شمال الشام . وبقى خطر المردة أو الجراجمة ، كما سموا أحياناً ، جاثماً حتى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥ م / ٦٥ — ٨٦ هـ) . فقد عقد هذا الخليفة مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني (٦٨٥ — ٦٩٥ م) معاهدة من شروطها وقف خطر الجراجمة ونقل غالبيتهم إلى بعض جهات إمبراطوريته الفقيرة في سكانها ، مثل رومانيا وتراقيا . وبذلك حطم جستنيان الثاني هذا « الحائط النحاسي » على حد قول أحد المؤرخين ، والذي كان سداً منيعاً عرقل تيار الفتوحات الإسلامية عن التوغل في آسيا الصغرى ^(١) .

على أن الدولة الإسلامية لم تكن تخلت بعد عن مطمحها في الاستيلاء على القسطنطينية ، إذ اشتدت الحركة الذاتية في الفتوحات الإسلامية الثانية في عهد الوليد بن الملك (٧٠٥ — ٧١٥ م / ٨٦ — ٩٦ هـ) . وأخذ هذا الخليفة الذي اقترن عهده بفتوحات واسعة يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية . وإذا كان الوليد قد توفي قبل خروج الحملة إلى القسطنطينية فقد كلاً خليفته سليمان (٧١٥ — ٧١٧ م / ٩٦ — ٩٩ هـ) المشروع بعناية وحماسة جعلته يعتقد أنه سليمان الذي قالت النبوءات عنه أنه فاتح القسطنطينية ^(٢) . ولعل هذا الأمل الذي داعب الخليفة سليمان يعتبر صدى لشعور الساميين إذ ذاك ، وترديد للنبوءات التي سرت بينهم عن فتح

Theophanes, Chronographia, 295,

(١)

Bury, op cit II, 312,

البلاذري : نفس المرجع ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

Hitti, op cit, 203.

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٣ ،

القسطنطينية ، وتطلُّعهم إلى دخول تلك العاصمة التي كانت في بقائها بعيدة عن أيديهم ضمان لبقاء الدولة البيزنطية ، ووقوفها موقف الند والقرين للدولة الإسلامية .
وجلت حماسة الخليفة ، والدولة الإسلامية من ورائه ، في إعداد جيش وأسطول عظيمين وإعطاء مسامة أخى الخليفة نفسه القيادة العليا لهذه الحملة . وفي ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ وقفت الجيوش البرية أمام أسوار القسطنطينية على حين وصل الأسطول الإسلامي بقيادة أمير البحر سليمان إلى مياه القسطنطينية في أول سبتمبر سنة ٧١٧ م / (١) ٩٨ هـ .

كان إتمام حصار القسطنطينية وضمان الإستيلاء عليها رهنا بنجاح الأسطول الإسلامي في التعاون مع القوات البرية في إكمال الحصار وفرض حلقة منيعة من البحر . ولذا كان أول هدف أمام أمير البحر الإسلامي هو قطع المواصلات البحرية بين القسطنطينية وبين البحر الأسود شمالاً وبينها وبين بحر مرمرة وبحر إيجه جنوباً . واستطاع سليمان أن ينفذ الشطر الأول من خطته في قفل الباب الجنوبي . ولكن عندما انهز فرصة هبوب رياح مواتيية وبعثت قسماً من أسطوله لاحتلال مدخل البحر الأسود وقعت كارثة قلبت الخطط الإسلامية رأساً على عقب ؛ إذ كانت هذه المنطقة صعبة الملاحة بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وفضلاً عن ذلك لا تستطيع السفن الصاعدة ضد هذا التيار الإعتماد على تسخير الرياح في جانبها زمناً طويلاً . وهذا ما حدث للسفن الإسلامية التي أبحرت في تلك المنطقة لسد المدخل الشمالى ، إذ سارت ببطء شديد من جراء التيارات المائيه ، ثم لم تلبث الرياح أن غيرت إتجاهها ، فوقع الإضطراب بين السفن التي ارتطمت ببعضها البعض وفقدت توازنها . وفي هذه الأثناء بعث البيزنطيون ، الذين كانوا يرقبون حركات المسلمين بعين ساهرة من عاصمتهم القسطنطينية ، سفناً

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ ؛ Bury, op cit II, 401, 402

محملة بالنار الاغريقية أمت حلقة الإضطراب والذعر التي سادت الأسطول الاسلامي وقضت على خطة أمير البحر سليمان^(١). وينسب الفضل في حسن الدفاع عن العاصمة البيزنطية إلى أحد أباطرتها وهو ليو الثالث الذي تولى العرش في هذه الظروف الحرجة وأنقذ الدولة في الوقت المناسب^(٢). ولم يلبث الشتاء أن دهم المسلمين المحاضرين للقسطنطينية فعانوا من ذلك كثيراً إلى جانب ركود حركاتهم الحربية. وجاء هذا الشتاء قارصاً على غير العادة وقضى على كثير من الجند المسلمين الذين شاركهم هذا المصير أمير البحر سليمان نفسه. فكانت هذه الكوارث تجري بالمسلمين وسكان العاصمة ينعمون آمنين تصلهم الأمداد والمؤن.

و بمطلع الربيع تجدد الأمل عند المسلمين، إذ وصلتهم نجدة بحرية جديدة من مصر وشمال إفريقية. لكن هذه السفن بدورها لم تستطع إنجاز الخطة التي رسمها أمير البحر المتوفى سليمان خشية أن تلقى نفس المصير الذي تردى فيه الأسطول الإسلامي من قبل. ولذا بقي حصار القسطنطينية منقوصاً غير كامل، مما جعل مهمة المسلمين عسيرة شاقة. وزاد هذه الحالة سوءاً أن الجيش الإسلامي الذي عهد إليه حصار شواطئ البسفور وبحر مرمرة لقي هزيمة فادحة على أيدي الكمان البيزنطية التي كانت تنظماً حربياً جديداً عانى منه المسلمون متاعب جمّة. كذلك استعانت الدولة البيزنطية بالبلغار الذين فاجأوا القوات الإسلامية من الشمال وأنزلوا بها هزيمة فادحة. وفي ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م / ٩٩ هـ بعد حصار دام اثني عشر شهراً أمر

Bury, op cit II, 402, Vasiliev, op cit, 314.

(١)

(٢) كان الإمبراطور ليو يشغل أولاً منصب حاكم أنا تولى (أى البند الشرقي من أقاليم آسيا الصغرى). وحاول المسلمون إستمالة إلى جانبهم إبان زحفهم على القسطنطينية ، ولكنه إستغل هذه الفرصة وسحب الجيوش الإسلامية إلى أسوار العاصمة حيث عزم على تنفيذ ما بيته في نفسه من تحقيق مأربة الخاصة . فتمكن من الدخول إلى القسطنطينية ، وانتهر فرصة اضطراب أحوالها وتقلد أعنة الإمبراطورية . ولما كان خبيراً بأساليب العرب ومطامحهم ، فقد تمكن من توجيه دفة الدفاع عن العاصمة بشكل ضمن له الفوز .

الخليفة الأموي الجديد عمر بن عبد العزيز الجيوش الإسلامية برفع الحصار والعودة إلى الشام بعد أن أصبح الأطنل من متابعة القتال (١).

ويعتبر فشل المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية هذه المرة حدثاً من الأحداث الكبرى في تاريخ العصور الوسطى. فمن الناحية الإسلامية هزت تلك الهزيمة محور الحركات الحربية الإسلامية، إذ كانت الجيوش الإسلامية تلتقي فيضاً منهمراً من الأمداد والذخجات والمؤن من دمشق، قاعدة الدولة الإسلامية، التي امتازت عن غيرها من الحواضر الإسلامية بقربها من القسطنطينية. ورغمما عن ذلك استعصى على تلك الجيوش الاستيلاء على إحدى عواصم العالم القديم ووريثه عظمة الدولة الرومانية الأولى. ومن ثم تغيرت خطط المسلمين إزاء الدولة البيزنطية، وغدت أعمالهم الحربية المقبلة خلوا من الأطماع الواسعة التي امتلأت بها حركة الفتوح الإسلامية زمن الأمويين. ولو انتصر المسلمون في معركة القسطنطينية لانتشر الإسلام مبكراً في شرق أوروبا وغدت المساجد وأصوات المؤذنين تحتل أماكن الكنائس وقرع الأجراس ليس في ممالك أوروبا الشرقية فحسب بل في سائر أنحاء روسيا التي تلقت نظمها وتعاليمها الدينية عن الدولة البيزنطية.

أما الدولة البيزنطية فكتب لها البقاء بمخروجها ظافرة من دفاعها عن عاصمتها، وظلت محتفظة بمكانتها وهيبتها في أعين الدول المسيحية التي قامت في غرب أوروبا. كذلك بقيت هذه الدولة تتابع رسالتها كزعيمة للعالم المسيحي وراعية شئونه. غير أن النتائج العامة لمعركة القسطنطينية جعلت كلا من الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية تتطلع إحداها إلى الأخرى بمنظار جديد قوامه أن الدولتين لا بد وأن يعيشا جنباً إلى جنب لا غنى لإحداها عن الأخرى في التعاون على قضاء مصالحهما العامة، وأن الجشع في الاستئثار ببعض الفوائد المادية مثار لحروب لا جدوى من ورائها.

(١) ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٥، ص ١٨،

الفصل الثالث

ميزان القوة السياسية بين البيزنطيين والمسلمين

مظاهر التطور في العلاقات الإسلامية البيزنطية

ركود المشروعات التوسيعية (سقوط الخلافة الأموية — الحركة اللايقونية)

يعتبر ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنة ٧١٨ م خط تقسيم واضح في قصة العلاقات الإسلامية البيزنطية ، ونقطة تحول في نظم الدولتين الداخلية ، تجلت آثارها في المجرى العام لهذه العلاقات . ذلك أن جهود الدولتين انصرفت إلى معالجة المشاكل الداخلية التي انبثق خطرهما بعد انتهاء واقعة القسطنطينية ، وجاءت في بعض مظاهرها نتاجاً لما تخلف عن هذه الواقعة من آثار وأحداث . فانغمست الدولة الإسلامية في غمار حركة سرية ترمى إلى القضاء على الخلافة الأموية صاحبة السلطان والكلمة العليا في الدولة . وأثبت التاريخ أن هذه الحركة التي نبتت بدورها بعد معركة القسطنطينية كانت مؤذناً بانتهاء عصر الشام الزاهر ومجد دمشق القائم على تحدى القسطنطينية وإزهاق أراضيتها ، وبشيرا بقيام الدولة العباسية التي عملت على اتخاذ عاصمة لها — بغداد — تباعد بينها وبين عاصمة البيزنطيين ، واختلفت في أحلامها ومطامعها عن أهداف دمشق وعزمها على السيطرة على القسطنطينية .

فبعد وفاة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧٤٣ م / ١٢٥ هـ) تبرع على عرش الخلافة أشخاص ضعاف الهمة والعزيمة ، تخلوا عن تقاليدهم العربية القائمة

على الجهاد والوقوف بالمرصاد لحركات الطامعين في مركزها واقتناص الفرص لتوسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ولكن على النقيض من ذلك سقط أولئك الخلفاء صرعى للغواني والشراب ، وغدوا عبيداً للملاذ والشهوات ونماذج لانحطاط الخلق والسفه . ولذلك لم يكن مستغرباً أن تنطلق من معاقلها العوامل الهدامة الكامنة في جسم الدولة الأموية ، وتندفع للتشفي من سادة الدولة التي آن أفول نجمها . فكانت أولى هذه العوامل استيقاظ روح العصبية والنخوة القبلية بين قبائل عرب الشمال والجنوب تلك الروح التي استعرت في جهات عديدة من أرض الدولة الإسلامية ، وغدت بقاع كثيرة من الدولة مسرحاً للاصطدام بين بعض القبائل وبعض ، على ضفاف السند وشوطىء صقلية ، وفي أرض خراسان وفي منطقة دمشق نفسها . وانحطت هيبة الخلفاء الأمويين لمناصرتهم هذا المعسكر القبلي أو ذاك ، وأضحوا ممثلين للفروع القبلية المختلفة على حسب أنسابهم لا خلفاء للدولة الإسلامية الكبرى . ومما ضاعف في خطورة هذه الإنقسامات أن المسلمين من غير العرب ولا سيما مسلمي فارس كانوا متذمرين من الأمويين الذين نظروا إلى أولئك المسلمين نظرة أقل من نظرتهم للمسلم العربي ، فاعتبرهم الأمويون موالى لا يصح مساواتهم بالمسلمين العرب في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . وبذلك كان الجو مهياً لهؤلاء الموالى لضرب الأمويين الضربة القاضية لتهيأت لهم قيادة منظمة ، وفي الحقيقة كانت هذه القيادة تسرع الخطى لتتقدم الصفوف ، إذ وجدت بذور الشيعة أنصار سيدنا علي ، الحائقين على الأمويين لقتلهم أعظم رجالهم ، في فارس ، ولا سيما خراسان موطن الموالى ، تربة صالحة للنمو والازدهار . على أن شمس الأمويين آذانت بالأفول عندما استطاع العباسيون أن يدعواهم مع العلويين تحت ستار المطالبة بحقوق آل البيت الهاشمي باعتبارهم أعضاء هذا الفرع الهاشمي من قبيلة قريش ، فكان الشيعة يعتقدون أن حقوق البيت

الهاشمي تنحصر أول الأمر في سلالة علي بن أبي طالب .
على أن العباسيين عرفوا كيف ينفردون بالموقف ، إذ سرعان ما استغلوا حالة
الإفصالات في الدولة الأموية وانتشار التذمر بين الموالي ، فادعوا لأنفسهم حق
الدفاع عنهم وعن إعادة الدين الحق الذي انحرف به الأمويون عن جادة الصواب .
فأصبح العباسيون زعماء حركة المعارضة للبيت الأموي والمنظمين لها ، حتى نجحوا
أخيراً في إشعال نيرانها في خراسان . ففي رمضان سنة ١٢٨ هـ / يونيو سنة ٧٤٧ م
نشر أبو مسلم عامل العباسيين في خراسان العلم الأسود رمز لواء الرسول ، والذي
أصبح إذ ذاك شعار العباسيين ، ودخل « مرو » عاصمة خراسان . ثم تابعت
القوات العباسية سيرها إلى العراق تحت قيادة عبد الله بن علي عم السفاح ، أول
الخلفاء العباسيين ، وقضت هناك في معركة الزاب (أحد فروع دجلة) سنة ٧٥٠ م
١٣٢ هـ على جند الأمويين . وتمكنت جيوش العباسيين من إتمام ذلك النصر
بالقبض على مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين في بلدة « بوسير » بالقطر المصري
وقتلها (١) .

وإن سقوط الأمويين يعد حدثاً هاماً في التاريخ الإسلامي ، فلم يكن معناه زوال
أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسب ، وإنما زال بسقوط الأمويين أيضاً عظمة
إقليم الشام الذي كان يحتمل مركزاً استراتيجياً هاماً في الدولة الإسلامية ، أثر

(١) لقد دل العباسيون على دهاء وعلو كعب في السياسة عندما استطاعوا أن يستخدموا
العلويين ، وما هم عليه من سلامة الطوية حتى أعلن أبو العباس السفاح أول خليفة عباسي ،
وعندئذ ثاب العلويون إلى رشدهم ، ولم يستطيعوا مناهضة البيت العباسي ، ولا سيما أن أبا العباس
أخذ يبحث عن عاصمة له في مقر آمن بعيد عن مناطق التشيع للعلويين ، فاتخذ الهاشمية « نسبة
إلى هاشم أحد أجداده » قرب الأنبار عاصمة له . ولكن خليفته أبا جعفر المنصور وفق إلى
اختيار موقع بغداد التي أضحت عاصمة العباسيين حتى زوال ملكهم . ومن بغداد استطاع أبو
جعفر المنصور أن يقضى على حركات العلويين الذين نظروا إلى العباسيين على أنهم معتصبون
لحقهم في الخلافة . وهذه الحركة العلوية هي التي تزعمها « محمد النفس الزكية » وأخوة « إبراهيم »
بولدين لم يكتب لها الفوز لأن العباسيين كانوا قد دعموا سلطانهم على أسس متينة .

كثيراً في توجيه النشاط الحربي الإسلامي . وبقيام العباسيين في الخلافة انتقل مركز الإسلام إلى الشرق ، حيث أسسوا عاصمتهم الجديدة ، بغداد ، على ضفاف دجلة ، وأخذوا يؤقلمون سياستهم ، ولا سيما إزاء البيزنطيين ، على أساس هذا الوضع الجديد . فكان بعد الشقة بين بغداد والقسطنطينية مدعاة لرسم سياسة حربية جديدة اختلفت عن سياسة دمشق^(١) ، ولم تدخل دور التنفيذ الجدى إلا زمن الخليفة هارون الرشيد .

وظلت الدولة البيزنطية إلى عهد هذا الخليفة العباسي كذلك عاجزة عن القيام برد فعل حربي على نطاق واسع ، واستغلال فترة الانتقال بين الأمويين والعباسيين واختلال أحوال الدولة الإسلامية إبانها لتستعيد ما ضاع من أراضيها . فقد شغلت الدولة البيزنطية بحركة جدل ديني ساعد على ظهورها نجاح البيزنطيين في الدفاع عن عاصمتهم القسطنطينية ضد هجوم المسلمين . ذلك أن الامبراطور ليو الثالث الإيسوري منقذ القسطنطينية شن حملة شعواء على عبادة الإيقونات ، أى الصور المقدسة والتماثيل التي تصور العذراء والقديسين . وتعرف سياسة هذا الإمبراطور في التاريخ البيزنطي باسم الحركة اللايقونية ، أى الحركة ضد الصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات^(٢) .

على أن أصول هذه الحركة الدينية التي انفجر بركانها بعد ارتداد المسلمين عن القسطنطينية ترجع إلى أشباه تلك الحوادث التي أحاطت بالدولة البيزنطية وعاصمتها ، إذ نجحت الدولة من أزمات وكوارث حربية نجاة أشبه بالمعجزات ، مما حمل الناس وهم على جانب عظيم من التدين في تلك العصور الوسطى الأولى على الاعتقاد بأن قوى سماوية هي التي أنقذت الدولة من هذه الأخطار المتكررة . فالحرب الفارسية

T. Laurent, L'Arménie Entre Byzance et L'Islam, 221,222. (١)

Bury, op cit, 428,429.

(٢)

التي حطت من سمعة الدولة البيزنطية وألحقت بها كثيراً من الأضرار ، انتهت بانتصارات بيزنطية رائعة ، هدد بها هرقل المدائن نفسها عاصمة الفرس ، وأعاد صليب الصلبوت إلى حوزة البيزنطيين . كذلك لم تستطع الجيوش الإسلامية ، رغم محاولاتها العديدة ونجاحها في التهام بقاع شاسعة من ممتلكات الدولة البيزنطية أن تستولى على القسطنطينية نفسها . وكان ذلك لمناعة العاصمة البيزنطية واستماتة الناس في الدفاع عنها ، ولكن الناس لم يعتقدوا في مناعة الأسوار وشجاعة الرجال ، وإنما نسبوا الفضل في ذلك إلى المعجزات والبركات . ولما كانت الصور والإيقونات المقدسة عنصراً هاماً في الحياة الدينية في الدولة البيزنطية ، فقد زاد اعتقاد الناس في تلك الصور وفي بركتها ، وأنها هي التي أنقذت العاصمة مما حاق بها من أخطار . ولذا غدت قبور القديسين وصورهم مزار الناس ، ومقصد طلاب الحاجات .

وفي الحقيقة كانت الإيقونات عاملاً هاماً في الديانة المسيحية ، إذ اعتمدت المسيحية منذ قيامها في تزيين دورها وكنائسها على الصور والإيقونات المقدسة ، واتخذتها وسيلة لتقريب قواعد الدين وتاريخ المسيحية لعقول الناس . فكانت صور المسيح والعذراء والقديسين شيئاً عادياً في الكنائس والأديرة ، وعلى الأمتعة والملابس^(١) ، كما كان أمراً عادياً سجدوا بعض الناس أمام تلك الإيقونات المقدسة وإيقاد الشموع ووضع باقات الزهور عليها ، أو تقديم القرابين المختلفة من الذهب والفضة عند أقداسها .

وإذا كانت هناك عوامل عدة غير الوازع الديني والإغراق في التقوى شجعت على تقديس الصور والإيقونات بشكل حمل الأمبراطور ليو على مناهضتها ، فإن عوامل أخرى بدورها دفعت الإمبراطور على السير قدماً في حركته اللايقونية . فقد رأى أن الأديرة والبيوت الدينية أهم معاقل الإيقونية ، والرهبان والديارون

ودعاتها وسائل نشرها ، وأن هذه البيوت الدينية أضحّت واسعة الانتشار في أرجاء الدولة البيزنطية في القرن الثامن الميلادي ، ويتمتع أهلها بامتيازات وإعفاءات مالية حتى أترك كل ذلك في خزانة الدولة ، فضلاً عما أحدثته كثرة الرهبان والديارين من أضرار بحركة التجنيد والشئون الزراعية في الدولة^(١) . لذلك اتجهت سياسة الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري وخلفائه من بعده إلى الأديرة والرهبان لوضع حد لحركة عبادة الإيقونات وما نجم عنها من متاعب للدولة .

وفي سنة ٧٢٦ م أصدر الإمبراطور ليو الثالث مرسوماً يطلب فيه من القاعين على شئون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أما كن عالية حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين^(٢) . وأدى هذا المرسوم المعتدل إلى فتنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أنّ الإيقونات كانت تحتل ركناً أساسياً من اعتقادات الناس . غير أن الإمبراطور المعتمد بنفسه ، وصاحب اليد الطولى في إنقاذ العاصمة من حصار المسلمين ، رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس . وإنما زادت الفتنة عزماً ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصور الموجودة في الكنائس وغيرها .^(٣)

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية في القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، وكان ذلك إيذاناً باندلاع الحركة اللايقونية التي استنفدت قوى الدولة البيزنطية معظم القرن الثامن الميلادي ، وتفرعت عنها مشاكل لم تكن في الحسبان ، إذ ناهض معظم رجال الدين سياسة الإمبراطور متذرعين بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وتطور الموقف

(1) Vasiliev, op cit, 340,341.

(2) I bid, 342.

(3) I bid, 342, 343.

فيما بين الأباطور ورجال الدين إلى نضال بين الدولة والكنيسة ، وانضمت البابوية — التي رأت رأى رجال الدين في الصور والتماثيل المقدسة — إلى الحركة المناهضة للسياسة اللايقونية مما حمل الأباطورية البيزنطية على معاداة البابوية . وبذلك تطورت المسألة كلها أو آخر عهد الأباطور ليو الثالث من مسألة دينية بحجة إلى مسألة دينية غلبت عليها النزعة السياسية . فأجاب الأباطور على عداء البابوية لحركته بفصل الممتلكات البيزنطية في قلورية وصقلية وإليريا عن سلطان البابوية المهيمن عليها إذ ذاك ، ووضعها تحت سيطرة بطريفة القسطنطينية . وبذلك كان على ليو الثالث وخلفائه من بعده مواجهة قوى داخلية وخارجية . ولكن سار الأباطور قسطنطين الخامس بالحركة اللايقونية قدماً مكملاً ما تم في عهد أبيه ليو الثالث ، دون أن يأبه بما ناله من ألقاب السخرية مثل الأصطلي (Caballinus) التي أغدقها عليه العامة الذين رغبوا في تشويه سمعته والحط من قوانينه اللايقونية الصارخة^(١) .

وبذلك ظل أباطرة الدولة البيزنطية في شغل بالحركة اللايقونية حتى توفي ليو الرابع بن قسطنطين الخامس ، وخلفه ابنه القاصر قسطنطين السادس وأمه الوصية الأباطورة آيرين . ففي تلك الفترة (٧٧٦ — ٧٩٧ م) تجلى مبلغ انغماس الدولة البيزنطية في المشكلة الدينية واضطرار الدولة إلى الدفاع عن نفسها بشراء السلم عن طريق المال وتحصين الحدود من إغارات هارون الرشيد الذي تولى مقاليد الحكم حينئذ (٧٨٦ م / ١٧٠ هـ) في الدولة الإسلامية^(٢) .

(1) Vasiliev, op cit, 343,348.

Bury, op cit, 432,460,461.

(2) Bury, op cit, 493.

الغارات الحربية بمصر لإموسه ولبيزنطيين
تحصين العواصم والشعور

اتسمت الفترة التي انصرف فيها مجهود الدولتين الإسلامية والبيزنطية إلى حل مشاكليهما الداخلية بوقوع بعض المصادمات الحربية على منطقة الحدود بين الدولتين ، اتخذت في كثير من الأحيان طابع الأضرار المحدودة الأثر . ولم يكن منتظراً من الدولتين الإسلامية والبيزنطية أن تقوموا بأكثر من ذلك النشاط في ميدان العمليات الحربية ، ولا سيما أن مركز القوة الإسلامية انتقل إلى بغداد وأضحى بعيداً عن عاصمة الأبراطورية البيزنطية . ولذا كانت الإغارات التي شنها الطرفان عندما سمحت لهما الظروف تهدف إلى السلب والنهب ، وتخريب ما تستطيع تخريبه من المدن والحصون دون أن تتراعى إليها الآمال إلى القيام بمشروعات حربية واسعة ، شبيهة بما أعدته الخلافة الأموية . فكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون والبيزنطيون بتحصين مناطق الحدود بينهما للحد من نشاط الأضرار .

وكان خط الحدود يتكون من سلسلة جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التي تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك في الممرات الجبلية الضيقة . وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع (فوضع البيزنطيون منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدولة الإسلامية والتي سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور (Kleisurai) تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور (Kleisuriarchs)^(١) . ولما ازدادت حدة الأضرار الإسلامية في القرن الثامن الميلادي دعموا تلك المنطقة بحمايات أطلق

(1) Byzantium, 299.

يلاحظ أن المراجع العربية عبرت كلمة Kleisuriarch إلى كيلرج .

عليها حراس الحدود (Akritoi) ، ومهمتها مساعدة حكام منطقة الثغور (١) .
وكان هذا الخط الدفاعي يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى
حدود قيليقيا ، وينقسم قسمين : الأول يمتد من ملطية إلى عين زربة وكان مخصصاً
لدفع الإغارات الإسلامية الآتية من شمال العراق . وأهم حصون ذلك القسم ملطية
التي تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سبيسطة (Sebastea) أو سيواس
(Sivas) وقيصرية إلى أرمينيا وشمالى العراق . ويعبر هذا الطريق من ملطية إلى
مرعش (Germanica) عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة (Zapetra) . أما القسم
الثانى من الخط الدفاعي البيزنطى فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضى
البيزنطية ضد الحملات الشامية (٢) .

وقامت الدولة الإسلامية زمن العباسيين بمثل ما قامت به الدولة البيزنطية
لتحصين حدودها . فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون فى منطقة الحدود
المطلّة على الأراضى البيزنطية . ولكن المعروف أن الخليفة هارون الرشيد هو
صاحب الخطوة الهامة فى تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليمًا مشابهًا لإقليم
الأطراف البيزنطى على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسمّاه إقليم العواصم
والثغور ، وعاصمته أنطاكية ، وجعل عليه ابنه المعتصم . وكان الإقليم الجديد قسماً
من أرض قنسرين فصله هارون عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً
إلى الساحل (٣) . على أنه يقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية
بطرفها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، وفى نفس

Byzantium, 299.

(١)

Bury, History of The Eastern Empire, 244,246,

(٢)

Runciman, The Emperor Romanus Lecapenus, 121,122,

Anderson, The Road System of Eastern Asia Minor, 34.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٦ ؛ ج ٦ ، ص ٢٣٧

الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجة الملاصقة للحدود البيزنطية (١)، وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور لمواجهتها للشغرات أو المنافذ التي في أرض العدو. وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين: أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق، ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث؛ والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقرب من ساحل خليج الإسكندرونة، ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأدنة وطرسوس (٢).

وأهم الممرات في هذه المنطقة الممر القديم المعروف باسم أبواب قليقية (Cilician Gates)، ثم الممر الذي يسير فيه الطريق من مرعش إلى البستان أو الأبلستين (Arabissos). فالطريق الأول ترجع شهرته إلى العصور القديمة والعصور الوسطى كذلك، ويبلغ طوله سبعة أميال حيث يبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوبي طوانه (Tyana)، ويمتد إلى حيث يطل سفح جبال طوروس على سهل قبادوقيا.

(١) كانت حالة الحصون والمعقل الإسلامية تدعو إلى الرثاء في عهد الخليفة المهدي العباسي. ففي سنة ١٦٢ هـ غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلاد الدولة البيزنطية ونزل في مرج طرسوس وشاهد خراب المدينة، وقلة سكانها. فقدم تقريرا بذلك إلى الخليفة المهدي بعد عودته من الغزو، وأشار بإعادة بنائها وترميمها وشحنها بالمقاتلة لما في ذلك من حماية أرض الإسلام وزجر العدو عن شن الإغارات. فأمر المهدي ببناء طرسوس على أن يبدأ بمدينة الحدث. فلما كانت سنة ١٧١ هـ ترامت الأنباء إلى الخليفة هارون الرشيد أن البيزنطيين يديتون النية للاستيلاء على طرسوس، فأسرع بتنفيذ وصية الخليفة المهدي وبعث هرثمة بن أعين في نفس السنة لشن غارة على أرض العدو وتعمير طرسوس. وقام بمهمة البناء والتعمير فرج بن سليم الخادم، الذي بعث إلى طرسوس، بعد تحصينها، ثلاثة آلاف رجل من أهل خراسان، ثم أتبعهم بألفي رجل من أهل المصيصة وألف من أهل أنطاكية، وزاد في أعطياتهم. (أنظر البلاذري: فتوح البلدان — مصر ١٩٠٠ م — ص ١٧٦).

وعند أقصى الطرف الشمالى للممر تقع قمة منعزلة شديدة الارتفاع ، تبلغ حوالى ألف قدم تقريباً وتتحكم فى منطقة واسعة من سهول قبادوقيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية . وعلى هذه القمة المنيعة بنيت قلعة اللؤلؤة ، التى ظلت مضرب الأمثال فى المناعة ، وتبادلها المسلمون والبيزنطيون بوسائل الدس والخيانة مرات عديدة . وكانت تلك القلعة مفتاح الممر المعروف بأبواب قليقية . فإذا كانت فى أيدى الروم لم يتمكن الجيش الإسلامى من غزو قبادوقيا ، وإذا انتقلت إلى أيدى المسلمين لم يجرؤ جيش بيزنطى على المخاطرة لاجتياز ذلك الممر . ومما أضاف إلى أهمية قلعة اللؤلؤة أن الطريق الشمالى المؤدى إلى طوانة والطريق الغربى إلى هرقله (Heraclea) يتقابلان قربها مما جعلها تتحكم فى عدة ممرات هامة .

وتصف المراجع ذلك الممر بأنه ينحنى صوب الشرق بعد بدايته ، ثم يتجه جنوباً حيث يطل على وادى البزندون (Podandos) البيضاوى الشكل ، ويطلق عليه اسم معسكر قورش (Camp of Cyrus) لأن قورش الصغير عسكر فيه أثناء سيره لمحاربة أخيه ، ثم يسير الممر فى اتجاه مرتفع عبر وديان ضيقة شديدة الانحدار حتى يصل إلى نهايته . وعلى الجانب الشرقى من طرف الممر قلعة حصينة مبنية من الحجر الأسود على قمة تل مرتفع وتتحكم فى مدخله ويطلق عليها اسم حصن الصقالبة (أو قلعة السلاق) . ومن قمة ذلك التل المعروف الآن باسم تكير (Tekir) يؤدى ممر منزلق طوله ثلاثة أميال تقريباً إلى منحنى صخرى يعرف باسم أبواب قليقية ، وهو الاسم الذى أطلق على الممر بأجمعه . وطول ذلك الممر المنزلق مائة ياردة تقريباً ، وعرضه بضعة ياردات فقط ، وتحيط به جدران عالية فى ارتفاع عمودى ، مما جعل القلعة المعروفة باسم حصن الصقالبة تستطيع بحاميتها الصغيرة إيقاف جيش كبير العدد (١) .

(1) Bury, The Eastern Empire, 245,246.

وأقام البيزنطيون من قلعة اللؤلؤة (عندما كانت في أيديهم — أو بالقرب منها في حالة وقوعها في يد العرب) عبر آسيا الصغرى إلى القسطنطينية سلسلة من المنارات ، استخدمت في إرسال الأنباء بواسطة إشعال النار . فكانت النار التي توقد على تل حصن اللؤلؤة أو على مقربة منها ، يراها الحراس المقيمون على قمة جبل أرجايوس (Argaios) المطل على بحيرة تاتا (Tatta) ، وهذا الجبل يختلف عن جبل أرجايوس المطل على قيصرية . ومن جبل أرجايوس المطل على بحيرة تاتا تنقل الإشارة إلى تل إزاموس (Isamos) ، ومنه إلى مرتفع أيجيلوس (Aigilos) ثم إلى معسكر دوراليوم الكبير ، الذي يقع على تمبريس (Tembris) على بعد ثلاثين ميلاً من أيجيلوس ، ثم تحمل الإشارة إلى محطة ماماس (Mamas) ، ثم إلى موكيلوس (Mokiilos) ، حيث تعبر الإشارة خليج بيثينيا (Bythynian Gulf) إلى آخر منارة على جبل القديس أو كزنتيوس (Auxentios) . ومن هذه المنارة تنقل الإشارة إلى حراس القصر الكبير الذين يوقدون منارته دلالة على وصول برقية من طرف آسيا الصغرى (١) .

وهذه الوسيلة من المواصلات ترجع إلى العصور القديمة حيث استخدمها الرومان في جهات عديدة من إمبراطوريتهم . على أن استخدام البيزنطيين لتلك الوسيلة في آسيا الصغرى في القرن الثامن الميلادي اقتصر على إرسال إشارة واحدة تحمل نبأ قيام إغارة إسلامية . ولكن سرعان ما أدخل ليو الرياضي ، أحد العلماء البيزنطيين المتصلعين في علم الهندسة في عهد الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢م) تحسيناً جديداً على ذلك النظام ، واستخدمه الإمبراطور ثيوفيل في طرق البريد بآسيا الصغرى . وهذا التحسين الجديد يتلخص في إعداد ساعتين تسيران في زمن واحد ، توضع إحداها في القصر الإمبراطوري والأخرى في القلعة البيزنطية القريبة

(1) Bury, op cit, 245,246.

من حدود قليقيا ، ثم تتفق السلطان المقيمتان في القصر والقلعة على اثنتي عشرة ساعة ، ويرمزون لكل ساعة منها بساعة معينة من الساعات الاثنتي عشرة ، وتكتب كل ساعة أمام العدد المخصص لها على واجهة الساعة . فإذا حدث أن أحس حاكم قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً أن العدو على أهبة عبور الحدود ، انتظر إلى الساعة السادسة حتى يتبين حركات العدو ثم يشعل النار ، وعندما تنقل تلك الإشارة عبر المحطات السالفة الذكر حتى تصل إلى القصر الإمبراطوري ينظر الحراس إلى الساعة ، فيعلمون متى أشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ، ويقفون بذلك على معنى هذه الإشارة ، أي أن العدو أخذ يحرك ركابه للهجوم ؛ والإشارة التي يعرف حراس القصر أنها أشعلت في الساعة السابعة تدل على أن الحرب وقعت بين الطرفين ، وتلك التي أشعلت في الساعة الثامنة تدل على أن العدو أعمل الحرائق وهكذا^(١) ...

وكانت الحملات البيزنطية على العراق تتبع غالباً طريق البستان — مرعش حيث تجتمع قوات البنود الآسيوية الشرقية مع قوات البنود الغربية عند قيصرية ، ومن ثم تسير في ذلك الطريق مخترقة جبال طورس إلى البستان عبر ممر كورو — خاي (Kuru—Chai)^(٢) .

واستخدم المسلمون في حملاتهم واتصالاتهم بآسيا الصغرى نفس الممرين الرئيسيين اللذين عرفهما البيزنطيون . فأطلقوا على الممر الذي يصل مرعش بالبستان درب الحدث . وترجع هذه التسمية إلى ما لقيه العرب عند ذلك الممر من هزائم متكررة زمن الفتوحات الإسلامية الأولى وكان لها حدث سيء^(٣) . أما الممر الثاني فكان الطريق الذي يسمى أبواب قليقية ، وكان مستخدماً للبريد والسفارات المتبادلة

(1) Bury, op cit, 247, 248.

(2) Ibid, 248.

(3) Le Strange, op cit, 128.

بين الخلفاء والأباطرة ، وربما كان هذا الاستخدام السلمي هو الذي جعل المسلمين يطلقون على الجزء الجنوبي من ذلك المراسم درب السلامة ^(١) .

وكانت الدول الإسلامية تنفق بسخاء على أقاليم الثغور ، إذ كان خراجها قليلاً لا يقوم بأود الدفاع عنها . فكان يجبي من الثغور الشامية بما فيها طرسوس وأدنه ألف دينار ، كانت تنفق جميعها على المرافق العامة لتلك المناطق ، من دفع أجور الجواسيس والبريد ومسالح الدروب الجبلية وتقوية مخاضات ^(٢) الأنهر هناك . أما نفقات الغزوات التي كانت تشن من هذه المناطق صيفاً وشتاءً ، فكانت الدولة الإسلامية تتكفل بها وبلغت أحياناً مائتي ألف أو ثلثمائة ألف دينار ^(٣) . أما ثغور الجزيرة بما فيها مرعش والحديث وملطية وبعض بلاد أخرى فكان خراجها سبعين ألف دينار ينفق منها أربعون ألفاً على مرافقها العامة ويخصص الباقي وقدره ثلاثون ألفاً لدفع أعطيات الجند ، التي كانت الدولة تساهم فيها سنوياً فوق المبلغ السالف الذكر بمقدار مائة وعشرين ألفاً أو مائة وسبعين ألف دينار . هذا عدا النفقات على الحملات التي كانت تتكفل بها الدولة ، وكانت تتراوح بين الكثرة والقلة حسب أهمية الغزوة وعدد المشتركين فيها ^(٤) .

وهكذا كانت الدولتان الإسلامية والبيزنطية تعنيان كل العناية بتقوية مناطق الحدود بينهما ، والإنفاق عليها بسخاء لتكون دائماً على أهبة الاستعداد والدفاع ولعل الأموال الطائلة التي أنفقتها الدولة الإسلامية على مناطق الثغور تشير جلياً إلى مدى حرصها على حمل الناس على الإقامة في تلك الجهات وتعميرها .

Le Strange, op cit, 134.

(١)

(٢) المخاضات هي الأماكن القليلة الغور في الأنهار ويمكن العبور منها بسهولة .

(٣) قدامه بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج ، ص ٢٥٣ .

(٤) قدامه بن جعفر ، نفس المرجع ، ص ٢٥٤ .

الغشاط البرى والبحرى

الصوائف والشواتى البرية

تعتبر قصة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع الميلادى تاريخاً زمنياً لإغارات تبادلها الطرفان لم تتوغل كثيراً ، اللهم إلا نادراً ، فى أراضى الدولتين .

وكانت الصفة البارزة لتلك الإغارات الاستيلاء على معاقل جبال طوروس والتخلى عنها حسب مدد الحرب وجزرها ، وإن تمخضت بعض الإغارات الكبرى منها عن تخریب كثير من المدن الهامة .

وكان للمسلمين أوقات معينة يغيرون فيها على أراضى الدولة البيزنطية : بعض الإغارات تحدث فى فصل الربيع والصيف وتسمى الصوائف ، وأخرى فى الشتاء وتسمى الشواتى . فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمت وقويت من رعيها فى كلاً الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً أى إلى منتصف الشهر التالى . وفى هذه الإغارات تجرد الخيول غذاء وفيراً فى مراعى البيزنطيين التى تمر بها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا فى حالات الضرورة القصوى ، دون أن يعمنوا فى التوغل داخل أراضى البيزنطيين . فلم تستغرق الشواتى أكثر من عشرين يوماً يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التى تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفترة ما بين أواخر فبراير والـ نصف الأول من مارس^(١) .

(١) قدامة بن جعفر، الخراج ، ص ٢٥٩ . أنظر الملاحق فى آخر الكتاب ، ملحق ٢ .

وتحتفظ المراجع العربية بسجل واف دقيق لهذه الإغارات أكثر مما دونته المراجع البيزنطية . على أن استعراض هذه الإغارات تفصيلاً يؤدي إلى التكرار الذي لا طائل من ورائه . ومن ثم يجدر الاقتصار على وصف الجو العام لحوادث الإغارات ، وذكر إغارتين يمكن اعتبارها نموذجاً لأحداث ذلك العصر ، مع العلم بأن هاتين الإغارتين بالذات قد ارتبطتا بما كان يموج في جوف الدولتين من حركات . فند أيام الخليفة هارون الرشيد تكاد تكون إغارات المسلمين منتظمة سنوياً في أراضي الدولة البيزنطية^(١) ، عدا تلك الفترات التي انشغلت فيها السلطات الإسلامية بإخماد بعض الفتن الداخلية والقتال . وقد شجعت الأحوال الداخلية في الدولة البيزنطية هارون الرشيد على التوغل في إقليم آسيا الصغرى وحصوله على كثير من الغنائم . فكان القائم على شؤون الدولة البيزنطية الإمبراطورة أيرين (Irene) الأم الوصية على ابنها القاصر قنسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧ م) . وكانت تلك المرأة من النسوة القلائل اللاتي عرفهن التاريخ في مختلف العصور والبلاد بما اجتمع فيهن من أطماع واسعة وصفات فذة .

غير أن الأطماع السياسية والكبرياء والطموح الذي ملأ نفس الوصية أيرين دفعها إلى التخبط في شؤون الدولة ، ذلك أنها لم تطق صبراً أن ترى ابنها قنسطنطين يبلغ سن الرشد في الثامنة عشرة من عمره وأن يصبح بذلك كفوفاً لتولي العرش الإمبراطوري .

ولم يطق الابن الشاب بدوره أن يرى أمه تهيمن عليه وعلى الإمبراطورية ، حتى غدا الاصطدام بينهما أمراً محتوماً^(٢) . فلجأت الإمبراطورة إلى تهيمته الجولها بمسألة الخلافة العباسية سنة ٧٨٣ م ، ووافقت على أن تدفع للخلافة العباسية جزية سنوية مقابل المحافظة على السلام . غير أن الجيش البيزنطي لم يرض عن هذه

(١) أنظر ملحق ٢ .

Bury, op cit II, 483,

(٢)

السياسة الخارجية التي انتهجتها الإمبراطورة أيرين ، ولا سيما بعد سلسلة الحملات التي أنفذها هارون الرشيد سنة ٧٨٩ م / ١٧٣ هـ . وساد الاعتقاد في دوائر الجيش البيزنطي بأن الكوارث الخارجية ناشئة من وجود امرأة على رأس الدولة . فأعلنت فرق الجنود في الأقاليم العصيان ، وطلبت تنصيب قنسطنطين السادس إمبراطوراً وإلغاء الوصاية . فاضطرت الإمبراطورة إلى التنازل مكرهة عن العرش ، وظلت تنصب لابنها الشراك حتى نجحت أخيراً في القبض عليه وهو بإحدى مدن آسيا الصغرى وأمرت بسمل عينيه وكتبت عليه حياة يقضيها في الظلام^(١) .

على أن ذلك لم يكن معناه استقرار الأمر لأيرين ، إذ غدا العرش الإمبراطوري محط أنظار الوزراء . وانتهى الأمر بأن أصبحت مسائل الدولة الخارجية مهمة ، واتسع مجال المؤامرات حول الإمبراطورة حتى نجحت واحدة منها على يد تقفور ، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً في غياب أيرين عن القسطنطينية ، ونفاها سنة ٨٠٣ م^(٢) .

ويشتهر هذا الإمبراطور في التاريخ الإسلامي « بكلب الروم » ، وهو اللقب الذي أغدقه عليه هارون الرشيد في إحدى كتبه التي بعثها إليه رداً على تهديده للخلافة الإسلامية ومطالبته الرشيد برد ما دفعته أيرين له^(٣) . وأهم إغارات

Bury, op cit, 285,488

(١)

ويلاحظ أن أيرين ظلت وصية على ابنها من سنة ٧٨٠ إلى سنة ٧٩٧ م . ثم استأثرت بالسلطة من سنة ٧٩٧ م — ٨٠٣ م .

Bury, Hist. of the Eastern Empire.

(٢)

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٩٢

كتب تقفور إلى الرشيد : « أما بعد ، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الرخ ، ووضعت نفسها موضع الشاة . . . فأد إلى ما كانت المرأة تؤدي إليك ! » . فأجاب الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم . أما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه » .

هارون الرشيد في عهد تقفور كانت في صيف سنة ٨٠٦ م / ١٩٠ هـ عندما قاد الخليفة الجيوش الاسلامية بنفسه ولبس قلنسوة كتب عليها «غازى حاج». وكان جيشه يبلغ ١٣٥٠٠٠ جندي عدا المتطوعين ، واستولى على عدة معاقل هامة منها هرقله وطوانه شمال قلعة اللؤلؤة . واضطر الإمبراطور تقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠٠٠٠ دينار مقابل تخلى الخليفة هارون عما بيده من الأراضي البيزنطية^(١) . ولعل في هذا المثال ما يدل على أن الخلافة العباسية لم ترسم لنفسها سياسة ثابتة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية . ثم شغل هارون في أواخر أيامه ٨٠٨ — ٨٠٩ م / ١٩٢ — ١٩٣ هـ بثورات الأقاليم الشرقية من أرض الخلافة ، كما تلا وفاته اضطراب الدولة الإسلامية بالخلاف بين ولديه الأمين والمأمون .

ولما استتب الأمر للمأمون بعد مقتل الأمين سنة ٨١٣ م / ١٩٨ هـ كان عليه أن يواجه بعض الفتن العنيفة التي تجلت في ثورة طائفة الحرّمية^(٢) . لكنه لم يصرف نظره تماما عن الدولة البيزنطية ، إذ انتهز إحدى الثورات الهامة التي أعلنها توماس الصقلي^(٣) على الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وعمل على شد أزر هذا الثائر ضد الإمبراطورية . وكانت كل آسيا الصغرى تقريبا تساعد توماس بسبب الأحوال الدينية والاجتماعية التي سادت الدولة البيزنطية في ذلك الوقت . فقد استأنف الإمبراطور ميخائيل اضطهاد عباد الصور والإيقونات مما دفع هؤلاء الناس ، وكانوا كثيرين ولهم قادة متحمسون ، إلى تأييد توماس ، الذي ضمهم إليه باحتضان حركة المقاومة لسياسة الإمبراطور ميخائيل

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٩٩

(٢) انظر ص ٨٢ حاشية ٢ .

(٣) كان توماس من أولئك الرجال الذين امتلأت بأشباههم الدولة البيزنطية من خروج على الأباطرة ومنازعتهم السلطان . وأخذ صفة الصقلي من الجالية الصقلية التي اتهم إليها والتي كانت في آسيا الصغرى . ولكن توماس في الحقيقة من أصل أرمني .

اللايقونية^(١) . ولذلك لم يكن المأمون ليغفل أمر تلك الثورة ، ولم يتردد في أن يعقد حلفاً مع توماس تعهد فيه بأن يمدّه بجيش قوى يساعده على مهاجمة القسطنطينية . ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعية عندما توج بطريق أنطاكية التابع للخلافة الإسلامية توماس إمبراطوراً^(٢) .

وعندما تحرك توماس بجيشه وأسطوله لمهاجمة القسطنطينية لم يقدر الإمبراطور ميخائيل ما عليه منافسه من قوة وخطر ، إذ أرسل جيشاً صغيراً سحقه توماس في سهولة ويسر ، على حين تقدم أسطوله آخذاً في ركابه سفن الأقاليم البيزنطية البحرية^(٣) .

ولم يلبث الإمبراطور ميخائيل أن أدرك منذ هزيمة جيشه خطورة توماس ولا سيما تزعمه حزب الإيقونات . فجنح إلى السلم مع أنصار الإيقونات ليضعف جبهة توماس ، على حين ارتكب الأخير خطأ حريباً بتقدمه مباشرة لحصار القسطنطينية ، تاركاً وراءه بقاعاً في آسيا الصغرى احتشدت فيها بعض الفرق الإمبراطورية . وأخذ توماس في محاصرة العاصمة براً وبحراً في ديسمبر سنة ٨٢١ م . وكان يتوقع أن تفتح له المدينة أبوابها بمجرد اقترابه منها ، ولكن أمه لم يتحقق ، إذ أخذ الإمبراطور تمام أهبطه للدفاع عن عاصمة ملكه . وفي ربيع سنة ٨٢٢ م أخذ النصر يحالف الإمبراطور ، فاستطاع أن يهزم جند توماس المحاصرين للمدينة براً وأنزل بأسطولهم خسارة فادحة^(٤) . كذلك استعان ميخائيل بالبلغار ، فطاردوا فلول جيش توماس الذي ولى الأدبار لتطرق السأم والضجر بين أفراداه بسبب طول الحصار وبعدهم عن وطنهم دون جدوى . على أن توماس تحصن في مدينة أركاديوبولس (لولوبرجاس اليوم) ، ولكن نار أهل المدينة عليه وساموه

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 23 . 24 .

(2) Ibid , 31 , 32 .

(3) Ibid , 33 .

(4) Ibid, 34 , 35 .

في منتصف أكتوبر سنة ٨٢٣ م إلى الإمبراطور ميخائيل الذي أمر بإعدامه^(١) .
وباتهاء ثورة توماس تلاشت آمال الخليفة المأمون في إزهاق الدولة البيزنطية ،
على حين ظلت الحرّمية تقلق باله . وكان أنصار هذه الثورة التي أعلنت في سنة
٨١٦ م / ٢٠١ هـ من سكان الإقليم الجبلي الواقع بين أذربيجان وبلاد الديلم إلى
همدان والدينور . وكان كثير من قبائل هذه الغاحية قد اعتنق آراء بابك الذي
سمل لواء العصيان على المأمون^(٢) . واتسمت هذه الثورة زمن المأمون بالعنف
والشدة ، واستغرقت عشرين عاماً هزم فيها بابك جيوش الخليفة مرة تلو الأخرى ،
وأباد بصفة خاصة جيشاً بأكمله بعثه المأمون سنة ٨٢٩ - ٨٣٠ م / ٢١٤ - ٢١٥ هـ .
وظل أوار ثورة بابك متأججا إلى ما بعد وفاة المأمون ، واصطلى به الخليفة المعتصم
(٨٣٣ - ٨٤٢ م / ٢١٨ - ٢٢٧ هـ) في السنوات الأولى من حكمه . ولكن
النصر حالف جيوش المعتصم في النهاية ، ففي سنة ٨٣٣ م / ٢١٨ هـ أرسل المعتصم
إلى همدان جيشاً بقيادة أمير بغداد إسحاق بن إبراهيم قضى به على ستين ألفاً من
أتباع الحرّمية وهرب الباقون في أرض الدولة البيزنطية^(٣) .
على أن الدولة البيزنطية رأت في ثورة بابك فرصة للأخذ بثأرها من مساعدة
الخلافة العباسية للثائر توماس . فأتخذت خطوات إيجابية في سبيل احتضان ثورة

Vasiliev, op cit, Ibid . 42,43,45

(١)

(٢) ظهرت طائفة الحرّمية في بلاد فارس التي كانت موطن كثير من المعتقدات والبدع
زمن الإسلام وقبله كذلك . ويقال إن الذي أسس طائفة الحرّمية هو مزدك زمن كسرى قباد ،
وأخذت إسمها من امرأته خرما التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد وفاة زوجها . ويقال
الحرّمي معناه الواضح المنير . وسميت أحياناً طائفة الحرّمية بالحمرّة ، أي الذين يلبسون الثياب
الحمر ، تمييزاً لهم عن أصحاب المذاهب الأخرى ، فكان شعار العباسيين مثلاً اللون الأسود ؛
والشيعة اللون الأخضر . وكان بابك يخدم أحد رؤساء الحرّمية ، ولما توفي هذا الرئيس حل
مكانه ، وأخذ يعيث فساداً في عهد المأمون . وفي عهد المعتصم دخلت أذربيجان في حوزته ،
على حين ساعدته الدولة البيزنطية في إفلاق راحة الخلافة العباسية .

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

بابك ولا سيما أن المعتصم جرد جيشاً عديداً وضعه تحت أشهر قواده الأفسخين وإيتاخ
وجعفر الخياط للقضاء على بابك . وأرسل بابك كذلك عندما أدرك خطورة موقفه
إلى الامبراطور البيزنطي ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢ م) يحرصه على الإغارة على أراضى
الدولة الإسلامية المفتقره إلى وسائل الدفاع ، لأن قوات المعتصم كلها مشغولة بحرب
الخرمية . وكان بابك يرمى من وراء ذلك أن يضطر الخليفة المعتصم حين يعلم بغزو
البيزنطيين لأراضيه إلى سحب جزء من جيشه لمواجهة ذلك الخطر ، ويخف بذلك
العبء عن الخرمية . ولبي الإمبراطور ثيوفيل دعوة بابك ، وأعد جيشاً بلغ
١٠٠٠٠ رجل أتجه به إلى حصن زبطرة ، الذى يقع فى ثغور الجزيرة قرب الحدود
بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية .

وكانت الخطة الرئيسية لحملة ثيوفيل ترمى إلى الاتجاه إلى أعلى الفرات أملاً فى
الاتصال بثوار أرمينيا وأذربيجان . وتمخضت هذه الإغارة عن إشعال النار
فى زبطرة سنة ٨٣٧ م / ٢٢٣ هـ وقتل الذكور من أهلها وأخذ كثير من نساءها
وأطفالها أسرى ، وقنع الإمبراطور بعد ذلك بالقول إلى بلاده عائداً مظفراً^(١) .

على أن المعتصم لم يعجل بالانتقام وآثر أولاً القضاء على ثورة بابك ، وضيق
عليه الخناق حتى تمكن من القضاء عليه فى نهاية نفس السنة (٨٣٧ م) التى خرب
فيها الإمبراطور ثيوفيل زبطرة . وبذلك استطاع المعتصم أن يتفرغ لتنفيذ الخطة
التي بيدها للانتقام ، والتي هدفت إلى تخريب عمورية موطن الأسرة المالكة فى الدولة
البيزنطية للحط من شأنها . فكانت عمورية يومئذ فى أعز أيامها ، إذ من المحتمل
أن الإمبراطور ميخائيل الثانى جعلها أسقفية مستقلة بنفسها ، ثم شيد لها فيما بعد
حصن منيع .

أعد المعتصم سنة ٨٣٨ م / ٢٢٣ هـ ثلاثة جيوش لغزو آسيا الصغرى سار أحدها

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٧٦

تحت قيادة الأفشين عبر جبال طوروس من درب الحدث ، وزحف الجيشان الآخرا ن تحت قيادة الخليفة نفسه والقائد أشناس عبر أبواب قليقيا ، واتخذت تلك الجيوش الثلاثة أنقرة نقطة التلاقى قبل الزحف على عمورية^(١) . على أن الإمبراطور البيزنطي علم بخطة المسلمين وأنهم يريدون الاستيلاء على أنقرة . فجمع قواته عند نهر هاليس Halys حيث قدر أن المسلمين سوف يزحفون من طريق ساندوس — بارناسوس (Soandos — Parnassos) ، الذى يسير قرب ذلك النهر ، وبذلك يستطيع قطع الطريق على الجيوش الإسلامية . وعلم الخليفة بدوره حركات البيزنطيين وعمل على استجلاء كنة الموقف البيزنطى قبل التقدم صوب أنقرة . فأرسل إلى أشناس الذى كان يزحف بجيشه أمام قوات الخليفة يأمره بالوقوف وأن يحاول أسر بعض رجال العدو ليعرف منهم مكان معسكر الإمبراطور وجيشه . وكان أشناس إذ ذاك فى منطقة تسمى مرج الأسقف والخليفة فى إحدى جهات تلك المنطقة وتسمى المطامير . فبعث أشناس أحد رجاله ويسمى عمر الفرغانى فى قوة عددها مائتا فارس^(٢) لاستطلاع تلك المنطقة . واتجه عمر إلى قلعة قرّة التى كانت مقراً لحاكم حدود إقليم قبادوقيا ، معتقداً أن ذلك الحاكم وجنده لا بد أن يكونوا على علم بموقع قوات الإمبراطور ، لما تتمتع به قلعته من مكانة إستراتيجية هامة . وتمكن عمر من أسر أحد الفرسان البيزنطيين من منطقة قلعة قرّة وقفل به راجعاً^(٣) . وعلم أشناس باستجواب الأسير أن الإمبراطور عسكر وراء الهاليس مدة ثلاثين يوماً يرقب عبور المعتصم للوثوب عليه ، ولكنه عند ما وصلتته الأنباء

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ،

Bury, The Mutasim's March Through Cappadocia, 120.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ ،

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦ ،

Bury , op cit , 121 , 123

Vasiliev, op cit, 149,150.

بدخول جند الأفشين أرض الدولة البيزنطية في اتجاه منفرد أتجه للقضاء عليها . فأسرع آشناس بإرسال الأنباء إلى الخليفة ، ولكن لم يستطع إبلاغها إلى الأفشين الذى كان قد التقى بالإمبراطور وأوقع به هزيمة فتحت الطريق لأنقرة . وسرعان ما استولى المسلمون على هذه المدينة واتجهوا بعدها إلى عمورية (١) . ووصلت جيوش المسلمين إليها بعد مسيرة سبعة أيام ، واستطاعت اقتحام المدينة وأعملت فيها التخريب والتقتيل . وهناك شفى المعتصم غلة انتقامه من زبطره وأخذ منها كثيراً من الأسرى . ثم فكر في متابعة انتصاراته بالزحف على القسطنطينية ، لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده ، إذ ترامت إليه أنباء مؤامرة تدبر لخلعه . ولم يلبث أن توفى سنة ٨٤٢م / ٥٢٢٧هـ ، حيث تبعه في نفس السنة الإمبراطور ثيوفيل ، الذى قضى نجه مهموماً لفشل سياسته الخارجية .

والخلاصة أن حروب الصوائف والشواتى لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء للمسلمين أو البيزنطيين . فقد ظل خط الحدود بينهما فى أخذ ورد دون أن يستطيع أحد الفريقين السيطرة التامة على معاقله ودروبه ، كما أن نجاح إحدى الإغارات أو غيرها كان متوقفاً على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين . ولكن إذا كانت الجبهة الشرقية من ميدان الصراع بين المسلمين والبيزنطيين لم تتغير تغيراً واضحاً نتيجة الحركات الحربية بينهما فإن أثر أحداث هذه الجبهة تردد صداه فى النشاط البحرى بين هذين الفريقين .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ ،

الإغارات البحرية

شهدت الأيام الأولى من تولى العباسيين الخلافة مطلع نشاط بحرى قوامه شن إغارات ضيقة النطاق لم تلبث أن تطورت إلى حركات بحرية منظمة اختلفت آثارها عن نتائج الإغارات البرية على أرض الدولة البيزنطية . فمن ذلك أن القائد المسلم ثمامة بن وقاص ، وهو بانا كيس (Banaces) فى تاريخ ثيوفانيز ، قام بحملة برية بحرية سنة ٧٧٣ م / ١٥٧ هـ على شواطئ إقليم إيسورة بآسيا الصغرى للإغارة على بعض المدن الساحلية . فأرسل الإمبراطور قنستنتين الخامس (٧٤٠ — ٧٧٥ م) أوامره إلى الجيش والأسطول المقيم فى آسيا الصغرى بالتوجه إلى إقليم إيسورة وقطع خط الرجعة على ثمامة . واستطاعت السفن البيزنطية احتلال المياه الإقليمية لشاطئ إيسورة عند مدينة سيس (Syce) وقطعت الاتصال بين ثمامة وبين سفن الشام التى أبحرت معه ، على حين ألقى الجيش البيزنطى الحصار على قوات ثمامة البرية^(١) . وإذا كان ثمامة استطاع أن يفلت من حلقة الحصار البرى والبحرى التى فرضت حوله فإن الجدير بالملاحظة هنا هو ظهور نشاط الأساطيل الإسلامية والبيزنطية لشد أزر الحركات البرية .

على أن الإغارات البحرية أخذت تظهر بصورة جلية منذ عهد الخليفة هارون الرشيد ، فى الوقت الذى اشتدت فيه الإغارات الإسلامية البرية . وكانت خطط الفريقين البحرية تعتمد على مراقبة سواحلهم والانتقاض على أهدافهما نجاة .

Theophanes, Chronographia, 375.

(١)

كان الأسطول البيزنطى ينقسم قسمين ، الأول أسطول الإمبراطورى ومقره مياه القسطنطينية ويعهد إليه بالدفاع عن العاصمة ، والقسم الثانى هو أسطول الأقاليم . وكان الأخير يضم أسطول إقليم « كيرا » (Kibyrhaeot) فى غرب آسيا الصغرى ، وأسطول جزر بحر إيجه . وهذه الأساطيل الأخيرة هى التى وقفت بالمرصاد لنشاط السفن الإسلامية واشتبكت معها مراراً .

فمن ذلك أن الأسطول البيزنطي الذي كان يراقب شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقى التابعة للخلافة العباسية ، أسر في سنة ٧٩٠ م بضعة سفن إسلامية وهي في طريقها من مصر إلى الشام^(١) . ولكن حدث في تلك السنة نفسها أن أغار أسطول إسلامي على قبرص^(٢) . وربما كان الأسطول البيزنطي الذي أسر السفن المصرية السالفة الذكر يراقب حملة إسلامية بحرية مزماً قيامها على قبرص . على أن انشغال السفن البيزنطية مكن الأسطول الإسلامي من إنزال قواته في الجزيرة . ولما علمت الإمبراطورة أيرين بانباء الحملة الإسلامية ، أرسلت قسماً من الأسطول البيزنطي وصل سريعاً إلى مياه قبرص . غير أن أمير البحر البيزنطي تعجل مهاجمة السفن الإسلامية ، فلقى هزيمة منكراً ووقع أسيراً في قبضة المسلمين . وعاد المسلمون من إغارتهم ومعهم أمير البحر البيزنطي ، الذي أمر الخليفة هارون بقتله لرفضه التعاون مع المسلمين^(٣) .

وفي سنة ٨٠٦ م / ١٩٠ هـ ، بعث هارون حملة بحرية أخرى أغارت على قبرص وأعمت التخريب والتدمير فيها ، وعادت بأسرى وغنائم وفيرة^(٤) . وفي السنة التالية كذلك (٨٠٧ م / ١٩١ هـ) قامت إغارة إسلامية أخرى على جزيرة رودس وعادت محملة بالغنائم والأسرى^(٥) . على أن إغارات المسلمين البحرية توقفت مثل إغاراتهم البرية على الحدود الشرقية بين دولتهم والبيزنطيين إبان انشغال هارون الرشيد في أواخر أيامه بالفتن والقتال ، وكذلك طوال فترة الخلف بين ولديه الأمين والمأمون .

Brooks, The relation between Egypt and the Empire, 385 (١)

Theophanes, op cit, 392. (٢)

Ibid, 392, (٣)

(٤) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ،

Cedrenus, Annals, 393. (٥)

غير أن مجرى الأحداث أبي إلا أن يجعل فترة الركود الأخيرة بداية لنشاط
بحرى إسلامي حمل لواءه مهاجرون من بلاد الأندلس . ففي سنة (٨١٤م / ١٩٩هـ)
ثار أهل قرطبة على الخليفة الحكم الأموي . ولكن هذا الخليفة استطاع بدهائه
أن يقضى على الثورة ، إذ أشعل النار في الحى الذى كان يقطنه معظم الثوار مما
حملهم على الإسراع لنجدة نساءهم وأطفالهم . ثم انهز الخليفة هذه الفرصة وهاجم
الثوار وأوقع بهم هزيمة نكراء . ولم يكتف الحكم بذلك ، وإنما قرر أن يدمر
حى الثوار تدميراً تاماً ، وأمر من بقى من سكانه على قيد الحياة أن يغادر أسبانيا
خلال ثلاثة أيام ، وأن يصلب من يوجد منهم بعد هذه المهلة . فجمع أولئك
السكان نساءهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله من المال والمتاع وأبحروا إلى شواطئ
أفريقيا ، على حين قصد قسم منهم يبلغ خمسة عشر ألفاً أرض مصر^(١) ، واستقروا
في ضواحي الإسكندرية سنة ٨١٤ / ٨١٥م (١٩٩هـ) . ولكنهم سرعان ما احتلوا
المدينة سنة ٨١٦م / ٢٠٠هـ منتهزين فرصة انشغال المصريين بثورتهم ضد
العباسيين ، زمن الخليفة المأمون العباسي . ولما استتب الأمر للمأمون في أقاليم الدولة
الشرقية بعث قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين سنة (٨٢٥م / ٢٠٩هـ) إلى مصر
حيث نجح في إخماد القلاقل هناك . ثم توجه إلى الإسكندرية وطلب من الأندلسيين
مغادرتها ، على أن ينزلوا إقليماً ينزطياً غير خاضع لحركات الدولة الإسلامية الحربية .
فقبلوا مغادرة الإسكندرية (يونيو ٨٢٧م / ربيع الأول ٢١٢هـ) إلى جزيرة كريت^(٢) ،
إحدى الجزر اليونانية الكبرى وأكثرها ثراء .

ولم يكن ذلك الاختيار إرتجالياً ، إذ أرسل الأندلسيون سنة ٨٢٦م / ٢١١هـ
من الإسكندرية عدة سفن أغارت على كريت وعادت محملة بالأسرى والغنائم والكثير

(١) كندى ، تاريخ الولاية والقضاء ، ص ١٦٣

(٢) كندى ، نفس المرجع ، ١٨٠ ،

الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

من المعلومات عن تلك الجزيرة . ولم يلق الأندلسيون أية مقاومة عندما نزلوا في كريت نهائياً سنة ٨٢٧م ، إذ كانت الدولة البيزنطية في شغل بالجهة الشرقية والقتال هناك^(١) . كذلك لم يبد سكان الجزيرة معارضة لأنهم كانوا حائقين على الإدارة البيزنطية لاستعمالها القسوة والبطش في الحركة اللايقونية . واتضح عنم أولئك المهاجرين على اتخاذ كريت وطناً مستقراً لهم حين شيدوا حصناً منيعاً لهم ، حاطوه بخندق عميق واتخذوه عاصمة لهم أو حاضرة للمكهم على نهج السياسة الإسلامية العامة ، التي سار عليها الفاتحون المسلمون في الأقطار التي استولوا عليها . وسميت هذه العاصمة بالخندق نسبة إلى الخندق الذي أحاط بها^(٢) ، ولا يزال اسم هذه المدينة حتى أيامنا الحاضرة معروفاً بذلك (Candia) .

لكن الدولة البيزنطية سرعان ما تنهت إلى خطورة استقرار المسلمين في جزيرة كريت ، ووعول الإمبراطور ميخائيل الثاني على انتزاعها من أيدي أولئك الأندلسيين . بيد أن الحوادث دلت على أن كريت غدت معقلاً بحرياً إسلامياً منيعاً صدت إغارات البيزنطيين البحرية ، ثم بعث أساطيله فيما بعد لتنتقم من الأراضي البيزنطية وتعمل فيها السلب والتخريب . ففي سنة ٨٢٨م وقف أمير البحر البيزنطي فوتيناس (Photinas) عاجزاً عن مهاجمة كريت . وعندما أمده الإمبراطور بجيش كبير تحت قيادة دميان (Damian) وهاجم الجزيرة منى بهزيمة ساحقة جرح فيها داميان ووقع أسيراً ، على حين لم ينج فوتيناس من الأسر إلا بصعوبة^(٣) . ولكن ميخائيل لم يستسلم ، إذ أرسل إلى كريت حملة بحرية أخرى على جانب كبير من الأهبة وكال العدة . وحارب البيزنطيون مسلمي كريت بشجاعة وبأس من مطلع الشمس إلى مغربها ، وانتهى الأمر بفرار المسلمين عند سدول الليل تاركين

(1) Vasiliev, op cit, 54.

(2) Cedrenus, op cit, 418.

(3) Ibid. 418.

أسلحتهم . على أن البيزنطيين قنعوا بما نالوه من نصر ، وأجّلوا متابعة الأعمال الحربية إلى الغد اعتماداً على انهيار مقاومة المسلمين . لكن غافل المسلمون الجند البيزنطيين وهاجموهم في جنح الليل وأجهزوا على الكثير منهم ، وولى القائد البيزنطي هارباً ، لكن سفن كريت أدركته عند جزيرة كوس وقبضت عليه حيث قتل^(١) . وهكذا توالى فشل الإمبراطور ميخائيل الثاني في استرداد كريت ، وأقلع نهائياً عن القيام بأية محاولة أخرى في هذا الصدد ، لاسيما بعد أن انتهت على غير جدوى إحدى حملاته الكبرى التي بعثها لاسترداد كريت في عام ٨٢٩م تحت قيادة أمير البحر أوريفاس^(٢) (Oryphas) .

وبينما كانت الدولة البيزنطية تعاني متاعب جمّة من جراء ضياع جزيرة كريت في شرق البحر الأبيض المتوسط تعرض إقليم آخر من أقاليمها وهي جزيرة صقلية لغزوات مسلمي شمال إفريقيا . ففي سنة (٨٢٧ م / ٢١٢ هـ) أرسل زيادة الله الأول الأغلبي (٨١٧ - ٨٣٨ م / ٢٠١ - ٢٢٣ هـ) سبعين سفينة أقلت نحواً من ١٠٠٠٠٠ فارس لغزو صقلية تحت ستار مساعدة أحد الثائرين فيها على الحكومة البيزنطية . وإذا كانت هذه الحملة تعتبر بداية الاستيلاء على أرض هذه الجزيرة وتثبيت أقدام المسلمين فيها فإن الدولة البيزنطية لم توجه جهوداً محسوسة للدفاع عن هذه الجزيرة إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، وكذلك على حدودها الشرقية المتاخمة للدولة الإسلامية . ولذلك اعتبرت الدولة البيزنطية أحداث التوسع الإسلامي في صقلية أمراً ثانوياً بالنسبة لأخطار الإغارات البحرية التي شنها مسلمو كريت على أراضيها الساحلية . ففي سنة ٨٦٢م امتدت حركات مسلمي كريت إلى جزائر اليونان وبحر إيجه . وأزعج ذلك البيزنطيين ولا سيما أن الجرأة حملت المسلمين في بعض الأحيان على الاقتراب من مياه

(1) Cedrenus, op cit, 420

(2) I bid. 420,

القسطنطينية . على أن مجهودات البيزنطيين لكسر شوكة هذه الإغارات البحرية باءت بالفشل بسبب اضطراب الإدارة البيزنطية ، وتفشى عوامل الدس والمؤامرات في القصر الإمبراطوري . ففي سنة ٨٦٦ م أعدت حملة كبرى تحت قيادة برداس ، عم الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧ م) وأعظم شخصيات عصره . لكن أحد ندماء الإمبراطور ويدعى باسل — وهو مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد — رغب في أن يخلو له الجو ويزيل من طريقه أى منافس خطر . فانتهاز فرصة دخول برداس على الإمبراطور يستأذنه في السفر إلى كريت ، وبيت له مؤامرة اشترك فيها الإمبراطور بنفسه انتهت بقتل برداس^(١) . وهكذا ظل مسلمو كريت يتابعون إغاراتهم دون خوف أو وجل .

إغارة البيزنطيين على دمياط

يتصل بنشاط البيزنطيين لمحاولة تخليص كريت من براثن المسلمين قيامهم بإغارة كبرى مفاجئة على مدينة دمياط . ففي سنة ٨٥٣ م / ٢٣٨ هـ ألقع أسطول بيزنطى إلى الشواطئ المصرية وصب جام انتقامه على دمياط . ويبدو أن تلك الإغارة كانت ترمى إلى قطع الاتصال بين مسلمى كريت ومصر التي غدت دار صناعة هامة^(٢) ، تزود مسلمى كريت بالسفن والعتاد وأحياناً بالمقاتلة . وحدثت تلك الإغارة في عهد الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧ - ٨٦١ م / ٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ، ووالى مصر حينئذ عنبسه بن إسحاق آخر والٍ عربى تقلد أزمة الحكم في مصر . وكانت عدة الأسطول البيزنطى ثلثمائة سفينة ، على كل مائة منها أمير بحر يتولى قيادتها . واضطلع أمير البحر البيزنطى الذى يسمى في المراجع العربية بابن قطونة

Cedrenus, op cit, 465, 466.

(١)

Vasiliev, op cit , 259, 260.

(٢) دار الصناعة اسم أطلق على مكان صناعة السفن في البلاد الإسلامية .

وقائد القسم الثاني من الأسطول ، بمهمة الإغارة على دمياط^(١) . ويدل اليوم الذي أُحدد للهجوم على دمياط وهو ٢٢ مايو سنة ٨٥٣م / ١٠ ذى الحجة ٢٣٨هـ على مهارة تدبير الإدارة البيزنطية . فقد صادف ذلك اليوم أول أيام عيد الأضحى ، ودمياط خلو من حاميتها التي استدعاها الوالى إلى الفسطاط للاشتراك في عرض حربي رغب أن يجعله أكبر عرض حربي ممكن . ولا يقبل أن محض المصادفة أو اتفاق الأحداث هي التي جعلت الأسطول البيزنطي يهاجم دمياط وهي عارية من رباطها المدافع عنها . ومهما يكن من أمر ذلك فإن موقع دمياط سهل على البيزنطيين العبث والتخريب فيها على نحو كبير . فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التي تقع على الضفة اليمنى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثني عشر كيلو متراً من البحر الأبيض المتوسط ، ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضي اتساعه كيلو متر واحد . ولكن يستدل من أقوال الجغرافيين العرب في العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة أرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر الأبيض المتوسط^(٢) . كما أن الشريط الأرضي الذي يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنها جزيرة منعزلة في الماء^(٣) . فاتخذ ابن قطونة بحيرة المنزلة ميداناً لبدء إغارته البحرية ، وهاجم دمياط بسفنه التي كانت تقل خمسة آلاف رجل تقريباً . ففزع أهل المدينة لهذا الهجوم المفاجيء وعول سكانها على الهرب عبر المخاضات التي كانت تفصل المدينة عن الأرض المحيطة بها . ولكن هلك كثير منهم في تلك المحاولة ، على حين

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ ؛ لا يعرف اسم هذا القائد من المراجع البيزنطية .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ؛
ابن حوقل ، كتاب المسالك ، ص ١٠١

أشعل البيزنطيون النار في المدينة المهجورة وأعملوا فيها النهب والسلب^(١) .
ومما يدل على أن هذه الإغارة رمت إلى أهداف أكثر من السلب الذي جرت
عليه الإغارات التقليدية حينئذ ، وأنها كانت جزءاً من سياسة الدولة البيزنطية إزاء
مسلمى كريت ، أن الجند البيزنطيين استولوا على مؤن وذخيرة في دمياط كانت
معدة للشحن وإرسالها إلى والى كريت ، ثم أحرقوا أشرعة السفن المكدسة في
المخازن البحرية وقبضوا على ستين شخصاً مملوهم أسرى . ويلاحظ أن بعض
المسلمين أظهروا ضروياً من الشجاعة في صد البيزنطيين ، لكنها كانت بسالة فردية
لم تؤثر كثيراً في سير الحوادث . وبعد أن قضى الأسطول البيزنطى يومين في حصار
دمياط ونهبها ، أقلع في ٢٤ مايو محملاً بالغنائم متجهاً شرقاً لمهاجمة تنيس ، وهي
جزيرة في بحيرة المنزلة تقع بين الفرما ودمياط . ولكن التيار أفسد خطة البيزنطيين
الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم إلى الرمال . ومن ثم
اتجهوا إلى أشتوم التي لا تبعد كثيراً عن تنيس وكانت مركزاً حصيناً له سور به
أبواب حديدية أقامها الخليفة المعتمد . فاقتحم البيزنطيون ذلك الحصن وأحرقوا
ما كان به من الآلات الحربية ، من المجانيق والعرادات ، ثم اقتلعوا الأبواب
الحديدية ، وأبحروا عائدين إلى بلادهم قبل أن تصل الإمدادات الإسلامية من داخل
البلاد^(٢) .

ولم تذكر المراجع العربية شيئاً عن حركات القسمين الآخرين من الأسطول
البيزنطى الذى هاجم قسمه الثانى ، تحت قيادة بن قطونه ، مدينة دمياط . على أنه
يلاحظ أن نشاط الأسطول البيزنطى وقيامه بهذه الإغارة المخربة الواسعة النطاق
جعلت السلطات المصرية تفتيق إلى الاهتمام بسواحلها وتقوية أسطولها . ومن ثم

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

اتجهت عناية المصريين بالأسطول وأقبلوا على العمل به ، وغدا البحارة موضع التقدير والرعاية . فيروى المقرئزي أنه « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشوانى^(١) برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الأمراء له الرماة . فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمر الحرب^(٢) » .

تبادل الأسرى (الفداء)

يرتبط بقصة الإغارات البرية والبحرية على الأراضي البيزنطية والإسلامية ظهور نظام للفداء أو تبادل الأسرى . ذلك أن تلك الإغارات اتسمت بطابع التخريب والمفاجأة وحمل الغنائم ، والقبض على كثير من رعايا وجند الطرفين المتحاربين . فتطلب هذا المظهر الحربي وضع نظام خاص لمعاملة الأسرى ووسائل إطلاق سراحهم .

فكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التي أسرته ، حيث وجدت أما كن خاصة أو ثكنات لإيواء الأسرى . وكانت معسكرات الاعتقال هذه تنقسم قسمين : أحدهما خاص بكبار رجال الجيش ، والآخر بعامة الجنود . ورسم لنا أحد الرحالة المسلمين ، الواسع الخبرة والاطلاع ويسمى المقدسى ، صورة عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة البيزنطية . فيقول : إن مسامة بن عبد الملك لما غزا أرض الدولة البيزنطية اشترط على الامبراطور أن يبني بالقرب من قصره داراً ينزل فيها كبار أسرى المسلمين ، وذلك ليكونوا تحت رعايته وإشرافه . وهؤلاء العظماء

(١) الشوانى نوع من السفن الحربية .

(٢) المقرئزي ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

كانوا يعاملون معاملة حسنة ، ولم يكلفوا أداء أى عمل . أما عامة الأسرى من المسلمين وكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعة التى يجيدها كل واحد منهم ويوزعون تبعاً على ذلك على مختلف المصانع للعمل بها . وكانت هناك دار خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط ، تشتمل على غرف واسعة يقيم فيها الأسرى كذلك^(١) .

وكانت الدولة البيزنطية ترى مبادئ التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين . فلم تذكره أحداً منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شىء يخالف السنن الإسلامية ، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى ؛ فلم يثقب أنف ولا شق لسان ولا فقتت عين أسير ، إذ لجأت الدولة البيزنطية لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية . ولعل هذه المعاملة الممتازة التى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال ، وإلى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين . فمن ذلك أن الدولة البيزنطية سمحت للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعاً من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح . ومن الطريف أن يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحية ، واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن أنفسهم ، وتفاؤلاً باقتراب تحسن مصيرهم . فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكة لها درج يجتمع فيه الأسرى للعب ، وينقسمون فى ذلك قسمين : أحدهما يمثل حزب الملك ، والثانى يمثل حزب الوزير ، ثم يرسلون خيولاً تجرى حول الدكة التى تتوسط الميدان . فإن سبقت خيل الملك صاحوا منادين أن الغلبة للمسلمين . وهنا يقبل البيزنطيون المشاهدون للمباراة على الأسرى المسلمين ، ويتلطفون معهم ويفذقون

(١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٨ ؛ أنظر ملحق ٥

عليهم الهدايا لأن الغلبة كانت لهم^(١) .
ولم يحرم الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة ،
فكان لهم في القاهرة مثلا مكان خاص يسمى «المناخ» ينزل فيه الأسرى من الرجال
فقط ، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطى جزءاً منهم للخليفة^(٢) ، وجزء
يوزع على كبار رجالات الدولة .

ولم يقض الأسرى كل أيام حياتهم في الاعتقال ، وإنما كان هناك نظام دقيق
للفداء بين المسلمين والبيزنطيين . ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا في عهد
الدولة العباسية بسبب الأغارات السالفة الذكر . أما في أيام الدولة الأموية فكان
الفداء فرديا ، أى تبادل أسير واحد بأسير من الجانب الآخر^(٣) . وحرصت كل
من الدولة العباسية والبيزنطية كل الحرص على سلامة كبار رجال الدولة الذين
وقعوا أسرى في أيديهما ليبادلا بهم كبار رجال دولتيهما . وكان هناك مكان خاص
على شاطئ آسيا الصغرى الجنوبي يسمى اللامس ، في مقاطعة سلوقية على مسيرة
يوم من طرسوس جرت فيه حركات تبادل الأسرى^(٤) ، وأحيانا أخرى حدثت
عمليات فداء على شواطئ فلسطين^(٥) . وكانت تسبق حركة التبادل إيفاد سفارات
يشارك فيها عمال المغور لتقرر أسس الفداء . ويتضح من هذه المفاوضات أن
تبادل الأسرى كان يجرى طبقاً لقواعد مرسومة ونظم خاصة . فإذا ما نجحت
المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للاحتفال بالتبادل . فتروى المراجع أن
سفن البيزنطيين كانت تذهب إلى اللامس أو إلى شاطئ فلسطين وهي مزينة حاملة

(١) المقدسي ، نفس المرجع ، ص ١٤٨ ،

ابن رسته ، الأعلام النفسية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) المقرئزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٤٤٤

(٣) المقرئزي ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩١

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣١٥

(٥) المقدسي ، نفس المرجع ، ١٧٧

أسرى المسلمين الذين تقرر إطلاق سراحهم . وإذا ما اقتربت هذه السفن من الشواطئ الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل ، دقوا الطبول إيذاناً بحضور السفن . وهنا يخرج كبار الحكام في أبهى زينة وعليهم اللباس الحربى لمقابلتها ، وكذلك كان أهالى القرى المجاورة للسواحل يخرجون زرافات ووحداناً مهرولين نحو الشاطئ لمشاهدة التبادل^(١) . ويجدر أن نصف على سبيل المثال حادثة فداء سنة (٨٤٥ م / ٢٣١ هـ) لأن ذلك يلقى ضوءاً على إدراك الملاحظات السالفة .

حدث ذلك الفداء فى عهد الخليفة الواثق والإمبراطور البيزنطى وقتئذ ميخائيل الثالث . فى سنة ٨٤٥ م وصل إلى بلاط الخليفة رسول بيزنطى مكلف باسم الإمبراطور أن يفاوض فى أمر الفداء . ولما كانت حالة الحروب والإغارات بين الدولتين قد سببت لهما كثيراً من المتاعب ، رضى الخليفة بإجراء فداء ، وأرسل أحد رسله إلى البلاط البيزنطى ليعرف معلومات دقيقة عن عدد الأسرى المسلمين فى الدولة البيزنطية ، ومدى استعداد الحكومة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء . ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وولد ، وتقرر إجراء عملية التبادل على ضفاف نهر اللامس . وحضر الفداء مسلم بن قتيبة الباهلى أمير الثغور والعواصم الإسلامية ومعه سبعة عشر فارساً ، كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين بلغت أربعة آلاف رجل^(٢) . وكان البيزنطيون فى مثل هذا العدد ولكنهم أظهروا قلقهم من كثرة جند المسلمين ، وعقدوا هدنة مداها أربعون يوماً حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم .

واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى ١٦ سبتمبر سنة ٨٤٥ م / ٢٠ محرم سنة ٢٣١ هـ ، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر والبيزنطيون على

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٧٧

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ص ١٩

الجانب الغربي . ولما بدأت عملية التبادل كادت أن تنتهي بالفشل لاختلاف رسل المسلمين مع البيزنطيين على الفداء ، إذ اشترط البيزنطيون ألا يأخذوا في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً مقابل من في أيديهم من الأسرى . ولكن تم الاتفاق أخيراً على فداء كل نفس بنفس . ويبدو أن عدد الأسرى المسلمين فاق الأسرى البيزنطيين ، إذ اضطر الخليفة إلى شراء من كان يباع في بغداد من الرقيق البيزنطيين ، وأخرج من في بلاطه كذلك من أولئك الرقيق حتى يتكافأ العددان . ثم أقام المسلمون على النهر جسراً لهم وكذلك اتخذ البيزنطيون لأنفسهم جسراً على النهر . فكان المسلمون يطلقون أسيراً ممن في أيديهم ويطلق البيزنطيون بدورهم أسيراً ممن عندهم . فإذا اقترب المسلم من لداته قابله مهلين (الله أكبر) ، على حين يفعل البيزنطيون بأسراهم ما يشبه ذلك من عبارات التهليل . واستمر هذا الفداء أربعة أيام تم فيها إطلاق سراح نحو من أربعة آلاف أسير مسلم بين رجال ونساء . ويشتهر هذا الفداء بالهيئة التي عقدها الخليفة لامتحان من يطلق سراحه من المسلمين في القول بخلق القرآن . فمن قال بأن القرآن مخلوق قبل المسلمون أن يرسلوا الفداء عنه ، ومن رفض تركوه في أيدي البيزنطيين ^(١) . كذلك تميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامة في التاريخ الإسلامي ، وهو مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، « وكان ذا محل في الشعوب ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم ، وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر (Avars) والبرغز (Bulgars) والصقالبة (Slavs) وغيرهم ^(٢) » . واستمد الجغرافي ابن خردادبه كثيراً من معلوماته عن آسيا الصغرى من الجرمي ، وغدت معلوماته الأسس التي بنى عليها باقي الجغرافيين العرب مادتهم في العصور الوسطى .

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٢٠ .

(٢) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

حركة الإفافة البيزنطية وقيام الدولة الفاطمية

الأسرة المقدونية والدويلات الإسلامية

الظاهرة الرئيسية في العلاقات الإسلامية البيزنطية من النصف الثاني من القرن التاسع إلى مدى قرنين تقريباً هي رجحان كفة البيزنطيين باطراد في ميدان العمليات الحربية وتأرجح كفة المسلمين بين الزيادة والنقصان . ففي سنة ٨٦٧ م أسس باسل الأول المقدوني أسرة ارتبط بركبها أبهى عصور الدولة البيزنطية ، وهوى بأفولها نجم البيزنطيين الزاهر وانهارت دعائم عظمتهم وهيبتهم . وظلت هذه الأسرة مدى قرنين تحمل لواء الدفاع عن بيزنطة ، وتعمل على توسيع رقعتها وتحسين مرافقها العامة . وساعدها على ذلك ما اشتهر به بعض أباطرة هذه الأسرة - ولا سيما مؤسسها الإمبراطور باسل الأول - من مقدرة فائقة على تحمل الأعباء والعمل دون كلل أو ملل مدى طويلاً . ولذلك يقرون بعصر هذه الأسرة حركة الإفافة البيزنطية واندفاعها للذود عن حياض الدولة دون وجل أو فتور . ومما جعل حركة الإفافة البيزنطية تسير قدماً دون اضطراب أن الظروف هيأت للدولة البيزنطية في الفترات التي تولى عرشها أباطرة ضعاف من الأسرة المقدونية سلسلة من القادة الحربيين الممتازين ، ظلوا يحملون لواء النصر إلى جهات عديدة حتى يسلموه إلى السليل المقدوني الجدير بالقبض على ناصية الموقف .

استهلت الدولة البيزنطية يقظتها بنجاح باسل المقدوني في التخلص من الإمبراطور ميخائيل الثالث الذي يلقب بالسكير في التاريخ البيزنطي ، واعتلائه العرش باسم الإمبراطور باسل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦) ^(١) . فكان ذلك إيذاناً

(1) Cambridge Mediaeval History, iv, 48.

بأن الدولة البيزنطية خلعت عنها ثياب التعثر والفوضى والاضطراب ، واتسحت ثياب اليقظة والمهابة والفلاح . ونجح الأباطرة المقدونيون في رسالتهم لأنهم ساروا وفق سياسة طيبة مرسومة واضحة المعالم ، هيأت لهم إدارة صالحة طوع مشيئتهم . فاهتموا أولاً وقبل كل شيء بإعداد المال اللازم لمشروعات الدولة ، وخصصوا القسم الأكبر منه للدفاع عن الدولة ورعاية عملياتها الحربية ، ومن ناحية أخرى كرسوا جهودهم لحماية الطبقة الوسطى ، العمود الفقري للدولة ، والممولة لها بالضرائب . فأصدروا سلسلة من التشريعات هدفت إلى شد أزر هذه الطبقة وحمايتها من جشع الأغنياء بالحد من شوكتهم وتضخم ثرائهم . وكثيراً ما صدرت هذه القوانين إبان الفترات التي اجتاحت الدولة فيها مجاعة أو وباء ، وجاءت بلسماً شافياً وظهيراً للطبقة الوسطى ، التي تتحمل في مثل هذه الكوارث أفدح الأعباء وتكتوى بما يتزل بها من آثار وأحداث .

وبينما كانت الدولة البيزنطية تسير في طريق المجد في الشؤون الداخلية والخارجية ، أخذت الخلافة العباسية المهيمنة على الدولة الإسلامية تتعثر باضطرابات داخلية وتعماني انحلالاً أدى إلى انقسامها سياسياً إلى دويلات متعددة ، حتى أزال التتار سنة ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ ما تبقى في بغداد من سلطان العباسيين .

وكانت الدولتان البيزنطية والإسلامية تسيران في معالجة شئونهما الداخلية في طريقين متباينين ، فبينما الأولى قد اهتمت برعاية طبقها الوسطى الغالب عليها الصفة اليونانية وتبعث فيها الحيوية والقوة ، إذ بالدولة الإسلامية تشاهد انقلاباً خطيراً في الأداة الحربية قوامه التخلي عن العنصر العربي والاستعانة بالأترك ، الذين كانوا حينئذ عنصراً جديداً في جسم الدولة . وسرعان ما علا نجم العنصر التركي حتى طمس هيبة الخلافة العباسية ، ووقف الخلفاء عاجزين عن كبح جماحه ، وكل من حاول القيام بحركة جدية في هذا المضمار لقي حتفه عاجلاً أو آجلاً . ولم يلبث أن جاء

ضعفًا على إباله اضطراب جوف الخلافة العباسية بالفتن والاضطرابات ، مثل حركة الزنج^(١) وما أحدثوه من هياج وفوضى استمرت أربع عشرة سنة (٨٧٠—٨٨٣ م) شلت نشاط العراق وذهب نخيتها أكثر من نصف مليون نسمة .

وتفشى في الدولة الإسلامية إبان هذه الفترة المضطربة ظاهرة قيام الدول المستقلة وانفصالها عن السلطة المركزية . فمن أمثلة ذلك ظهور الدولة الطولونية التي اتضح قيامها واستقلالها إبان ثورة الزنج ، إذ استطاع أحمد بن طولون الذي ولى مصر سنة ٨٦٨ م / ٢٥٤ هـ أن يؤسس لنفسه في مصر والشام دولة مستقلة تجلت قوتها عندما رفض إمداد السلطة المركزية في بغداد بالأموال المطلوبة لقمع ثورة الزنج . وتعتبر الدولة الطولونية نموذجاً نهج على منواله مؤسسو الدول التي قامت على أنقاض سلطان الخلافة ، وانفصلت نهائياً عن الحكومة المركزية أو ظلت تابعة اسمياً للخليفة في بغداد .

على أن أشباه هذه الدول اتسمت بقصر أعمارها وعدم استقرار أحوالها الداخلية ، مما جعل نشاطها لا يقدم كثيراً أو يؤخر في دفع الخطر البيزنطي الذي وضحت مطالعه على عهد المقدونيين . فسرعان ما انهارت الدولة الطولونية معمرة سبعاً وثلاثين سنة (٨٦٨ — ٩٠٥ م / ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، ثم قام على أنقاضها دولة

(١) كان الزنج من العبيد الذين استوردوا من أفريقيا الشرقية ليعملوا في مناجم الملح (ملح البارود) الواقعة في نهر الفرات الأدنى . وكان زعيمهم أو صاحب الزنج ، كما لقب بذلك داهية ما كراً ، يدعى علي بن محمد من أصل عربي ، وأراد أن يستفيد من اضطراب الحالة في العاصمة (بغداد) ومن تذمر رجال المناجم البؤساء ، فادعى سنة ٨٦٩ م أنه علوى بعث لإقناذ الناس . وسرعان ما انضوى الزنج تحت لوائه ، ولم تتمكن جيوش الخلافة التي أرسلت واحداً تلو الآخر من القضاء على ثورة الزنج ، إذ ساعدت بيئة المسكن الذي قاموا به وما به من المستنقعات والترع على انتصارهم . وهجر الناس البصرة والأهواز والأبلة ، ولم تخمد ثورة الزنج إلا سنة ٨٨٣ م ، عندما تولى الموفق طلحة أخو الخليفة قيادة الجيوش بنفسه وهجم على حصن المختارة معقل الزنج واستولى عليه وقتل زعيمهم .

الأخشيديين في مصر التي أسسها محمد بن طغج الأخشيدي سنة ٩٣٥ م / ٣٢٣ هـ .
وعمل محمد بن طغج على ضم سوريا وفلسطين إلى مصر ، مما دفعه إلى الاحتكاك
بالحمدانيين في شمال الشام . وكان أولئك الحمدانيون قد اتخذوا لهم دولة في شمال
العراق أولاً عاصمتها الموصل ، ثم انتقلوا سنة ٩٤٤ م / ٣٣٣ هـ إلى الشام تحت قيادة
سيف الدولة الحمداني الذي استولى على حلب وحمص من نائب الأخشيديين في
الشام . وبذلك غدا الأمر سجالاتاً بين الأخشيديين ، لاسترداد نفوذهم ومكانتهم في
الشام ، وبين الحمدانيين الذين دعموا مركزهم في شمال هذه البلاد^(١) . وظلت
الأحداث تجري على هذا المنوال في جسم الدول الإسلامية من حركات انفصال
واصطدام بين القوى الإسلامية بعضها مع بعض ، والدولة البيزنطية استلمت سيفها
تسترد ما يعن لها من بلادها التي كانت في قبضة المسلمين ، حتى تمكنت الخلافة
الفاطمية من الاضطلاع بمهمة الدفاع عن العالم الإسلامي وأوقفت زحف البيزنطيين .

الصحوة البيزنطية

بدأت الصحوة البيزنطية باتجاه الأمبراطور باسل الأول صوب الحدود
الإسلامية البيزنطية في آسيا الصغرى ليضع حداً لأغارات المسلمين المتكررة .
وكان هدفه الاستيلاء على معابر الجبال وانزاع القلاع المتحكمة في مداخلها من
أيدي المسلمين . فاستهل نشاطه الحربي بانتصار باهر ، حيث استولى سنة ٨٧٦ م
على قلعة اللؤلؤة ، الحصن المنيع الذي يسيطر على الطريق المؤدى من طرسوس إلى
القسطنطينية . ثم تابع انتصاراته مستولياً على عدة حصون أخرى هامة كانت
تسيطر على المعابر المؤدية إلى آسيا الصغرى^(٢) . وتوج انتصاراته في هذا الميدان

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ ، ٢٨٣

Anderson, The Road System, 34.

(٢)

وقوع عبد الله بن كاوس والى الثغور الشامية أسيراً في قبضته سنة ٨٧٧ م
٢٦٤ هـ (١).

على أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الانتصارات البيزنطية أزججت الخليفة
العباسي المعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢ م / ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) الذي رأى أن جميع
الممتلكات الإسلامية في قليقية أصبحت مهددة بالخطر البيزنطي ، لضياح قلعة
اللؤلؤة من أيدي المسلمين . ولذا طلب الخليفة من أحمد بن طولون والى مصر أن
يتولى الدفاع عن الثغور الشامية . فأثر باسل الأول مهادنة ابن طولون القوي الشكيمة ،
إذ أرسل إليه سنة ٨٨٧ م / ٢٦٥ هـ عبد الله بن كاوس الذي وقع في الأسر ومعه
بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه (٢) . لكن قصر عمر الدولة
الطولونية وحالة الضعف التي كانت تعانيها الخلافة حينئذ بسبب شغب الجند الترك
المقيمين بسامرا ، وظهور حركات القرامطة في شمال العراق وبادية الشام ، ساعدت
باسل الأول على أن يدفع المسلمين شرقاً على طول خط الحدود بين الدولتين
الإسلامية والبيزنطية ، وأن يستولى تدريجياً في الفترة ما بين ٨٧١ — ٨٨١ م ،
على جميع المعابر التي كانت تنفذ منها الجيوش الإسلامية إلى آسيا الصغرى . كذلك
استهل باسل الأول نشاط البيزنطيين البحري باستيلائه على جزيرة قبرص التي ظلت
تابعة للدولة البيزنطية من سنة ٨٧٤ إلى ٨٧٧ م (٣) .

وحاول المسلمون القيام بهجوم مضاد لإفساد هذا النشاط البيزنطي ، تجلى في
الحملة الإسلامية البحرية التي شنت بانتظام من جزيرة كريت على الجزر البيزنطية
والسواحل المجاورة . ولذا كان على الإمبراطور ليو السادس (٨٧٠ — ٨٨٦ م)
خليفة باسل الأول أن يناهض هذه الإغارات البحرية التي اضطرت أهل الجزائر

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١١٠

(٢) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١١٠ .

Runciman, *Romnus Lecapenus*, 123.

(٣)

والمدن الساحلية إلى هجر بلادهم والاستقرار في داخل البلاد فراراً من التخريب والانتقام . ونجحت سياسة ليو السادس ، إذ أنشأ أسطولاً قوياً ودعم القواعد البحرية في دولته وترك خلفائه سياسة بحرية ثابتة إلى جانب الجيش البري المنظم الذي خلفه أبوه باسل الأول (١) . وبذلك امتلأ عهد الإمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ — ٩٦٣ م) بانتصارات باهرة استرد بها من المسلمين ما حصلوا عليه من أملاك الدولة البيزنطية في أوائل القرن التاسع الميلادي . وآية هذه الانتصارات اتجاه القائد تقفور فوقاس إلى جزيرة كريت ، ونجاحه في الاستيلاء عليها وانزعاجها من أيدي المسلمين سنة ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ رغم المحاولات والمجهودات الهائلة التي بذلها المسلمون للدفاع عنها . ويعتبر استرداد البيزنطيين لجزيرة كريت حدثاً هاماً في القرن العاشر الميلادي ، إذ أبعده عن الأراضي البيزنطية شبح الأساطيل الإسلامية التي أذاقت البيزنطيين العذاب ، كما هيأاً للبيزنطيين قاعدة تجارية هامة أضافت إلى مجدهم ونشاطهم التجاري (٢) .

وفي الفترة التي كان القائد تقفور يحارب فيها في كريت كان أخوه ليون يقوم بمهمة مماثلة ضد الدولة الحمدانية بحلب . ذلك أن سيف الدولة الحمداني بعد أن مكّن لنفسه في شمال الشام ، بدأ في سنة ٩٤٧ م حملاته السنوية على آسيا الصغرى ، وظل على ذلك نحواً من عشرين سنة حتى توفي . وكان الحظ حليف سيف الدولة في بادئ الأمر ، حيث استولى على مرعش وكثير من المدن الأخرى الهامة على الحدود الإسلامية البيزنطية . وظلت الحرب سجّالاً بين سيف الدولة وليون حتى انتهى تقفور من حملاته في كريت وانضم إلى أخيه في آسيا الصغرى . وبذلك قويت الجبهة البيزنطية وأخذ البيزنطيون يدفعون الحمدانيين إلى الوراء حتى انتهى الأمر بحصار سيف الدولة نفسه في حلب واضطراره إلى الجلاء عنها سنة ٩٦٢ م /

(1) Vasiliev, Hist. de L'Empire Byzantin, I, 407.

(2) Ibid ,407.

٥٣٥١ هـ ، تاركا للبيزنطيين هذه المدينة الهامة في ميدان النشاط الحربى والتجارى^(١) .
وجعلت هذه الانتصارات من نقفور أعظم رجل في الدولة حتى تمكن من اعتلاء
العرش الإمبراطورى بعد وفاة رومانوس الثانى .

ولم يهمل الأمبراطور نقفور (٩٦٣ - ٩٧٩ م) بعد توليته العرش سياسته
إزاء الدولة الإسلامية . فتابع حملاته الحربية براً وبحراً ، وظل النصر يسير فى ركابه
من سنة ٩٦٤ إلى ٩٦٩ م حتى توج بمجوداته بالاستيلاء على أنطاكية التى ضارعت
القسطنطينية فى شهرتها ؛ حيث كانت مدينة البطارقة والقديسين والجامع الدينية .
وبعد احتلال أنطاكية بفترة قصيرة دخل أحد قواد نقفور مدينة حلب مرة أخرى
وأكره ابن سيف الدولة وخليفته سعد الدولة (٩٦٧ - ٩٩١ م / ٣٥٦ - ٣٨٠ هـ)
على إبرام معاهدة أهدرت فيها كرامة الحمدانيين^(٢) .

على أن السنوات الأخيرة من عهد الأمبراطور نقفور شهدت دخول دولة
إسلامية جديدة ، وهى خلافة الفاطميين بشمالى أفريقيا ، حلبة النزاع مع البيزنطيين ،
إذ بسطت هذه الدولة نفوذها على مصر (٦٩٨ م / ٣٥٨ هـ) ثم لم تلبث أن
نقلت مقر حكمها إلى القاهرة (٩٧٣ م / ٣٦٢ هـ) ، وغدت حاملة لواء الحرب
ضد الدولة البيزنطية . وكانت سياسة الدولة الفاطمية إزاء البيزنطيين تقوم على
أسس وقواعد مقررة . فهدفت إلى استعادة البلاد التى ضاعت من المسلمين فى شمال
الشام ، وهى حلب وأنطاكية ، تمكيناً لنفسها ، ورغبة فى أن تظهر بمظهر حامية
الإسلام والمصالح الإسلامية من دون الخلافة العباسية .

وبدأت الدولة الفاطمية فى تنفيذ سياستها حين أرسل الخليفة المعز أحد قواده
لاسترداد أنطاكية سنة ٩٧١ م / ٣٦٠ هـ من البيزنطيين ، وكان يدبر شئون
الدولة البيزنطية إذ ذاك إمبراطور من الرجال الحربيين الممتازين يسمى حنا ترمسكيس

(1) Vasiliev, op cit, 407,408.

(2) Vasiliev op cit 408,409.

(٩٦٩ — ٩٧٧ م). وكاد القائد الفاطمي ينجح في مهمته لولا مهاجمة القرامطة^(١) للجيوش الفاطمية وحملها على التمهقر إلى مصر .

وتلا هجمات القرامطة نشاط الحملات البيزنطية على الأراضي الإسلامية . فقاد حنا ترمسكيس حملة بنفسه ، وتوغل داخل الأراضي الإسلامية حتى بلغ كثيراً من المدن مثل نصيبين وميافارقين والرها وملطية . وكانت هذه الحملة من الشدة بحيث أن ثورة قامت في بغداد تطلب من الخليفة العباسي إعلان الجهاد ، على حين تابع حنا ترمسكيس زحفه سنة ٩٧٤ م وبرأسه مشروع جرىء ، وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين . ويعتبر حنا ترمسكيس بذلك أول من فكر في مشروع الحروب الصليبية المعروفة في غربى أوروبا بنحو مائة سنة تقريباً^(٢) . ولتنفيذ مشروعه تقدم حنا ترمسكيس في أوائل سنة ٩٧٥ م من أنطاكية إلى حمص ، ومنها إلى بعلبك ، وسامت له دمشق ، ووعد أهلها بدفع جزية سنوية . ثم سار بعد ذلك إلى شمالى فلسطين وسامت له طبرية والناصره وقيصرية ، وأرسلت إليه مدينة بيت المقدس نفسها تطلب الأمان . على أن الأمبراطور لم يكن متأكداً من مقدرة قواته على متابعة مشروعه الحربى والتقدم جنوباً للاستيلاء على بيت المقدس . ذلك أن الدولة الفاطمية رغم هجمات القرامطة وتعثرها بنشاطهم ، كانت من القوة بحيث

(١) عندما فشل الشيعة في نقل الخلافة إلى العلويين بعد سقوط الدولة الأموية ، ثاروا ضد العباسيين . وحوالى منتصف القرن التاسع الميلادى استطاع عبد الله بن ميمون القداح أن ينشر دعوة الشيعة فى شمال أفريقيا . ثم نجح خلفاؤه فى تأسيس دولة لهم هناك عرفت باسم الخلافة الفاطمية ، وبسطت سلطانها على مصر فى القرن العاشر الميلادى . وكان القرامطة فرعاً آخر من الشيعة ، غدا ذا بطش وسلطان فى إقليم البحرين وبين القبائل العربية الضاربة على الحدود الشامية . وعلى الرغم مما كان منتظراً من تعاون هذين الفرعين الشيعيين دب الخلاف بينهما عند ما بسط الفاطميون سلطانهم على دمشق ومنعوا الأتاوة التى كانت ترسل إلى القرامطة ، وكان ذلك السبب الذى حمل القرامطة على مهاجمة الجيوش الفاطمية وإفساد خططها فى مهاجمة البيزنطيين .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٩٥ ،

يجب على الأمبراطور أن يعمل لها حساباً . ولذا تحول الأمبراطور شمالاً ، واستولى على عدة مدن ساحلية بالشام ، مثل بيروت وصيدا . ولكن عند طرابلس صدقت مخاوف حنا ترمسكيس من قوة الفاطميين ، إذ نالته هزيمة عند هذه المدينة التي كان يشد أزرها أسطول فاطمي ، فقفل الأمبراطور راجعاً إلى القسطنطينية وتوفي فجأة سنة ٩٧٦ م^(١) .

وبدأت الدولة الفاطمية من جديد (٩٩٥ م / ٣٨٥ هـ) سياسة استرداد الأراضي الإسلامية التي استولى عليها البيزنطيون حديثاً . فاستولت جيوشها على حلب وحمص وشيرز ، ولكن جاء الأمبراطور باسل الثاني سنة ٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ إلى الشام لامتداد العمليات الحربية الفاطمية إلى أنطاكية ، واستطاع أن يوقف زحفهم . ثم جاشت بنفسه المطامع ، فتقدم لينتزع من الفاطميين مدينة طرابلس ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها^(٢) . أو أن يتقدم خطوة أخرى إلى ما بعدها . ولذا عقدت معاهدة بين الأمبراطور باسل الثاني والخليفة الحاكم بأمر الله كفلت حسن العلاقات بينهما حتى أواخر عهد هذا الأمبراطور^(٣) . ولما ولي الخليفة الظاهر الفاطمي (١٠٢٠ — ١٠٣٥ م / ٤١١ — ٤٢٧ هـ) استمرت العلاقات ودية بين الدولتين ، وعقدت بينهما اتفاقية سنة (١٠٢٧ م / ٤١٨ هـ) نصت على أن يخطب باسم الخليفة الفاطمي في مسجد القسطنطينية ويعاد بناؤه مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة بيت المقدس التي هدمها الخليفة الحاكم الفاطمي في ثورته النفسية الجامحة .

وبذلك كانت الدولة الفاطمية التي ينظر إليها دائماً أمها دولة شيعية آذت

Vasiliev, op cit, 410,411

(١)

Brehier, vie et Mort de Byzance, 206.

(٢) أبو المحاسن ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

Brehier, op cit, 228,229.

(٣)

الوحدة الإسلامية هي صاحبة الفضل في منع التقدم البيزنطي إلى البلاد الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ، في وقت لم يكن في استطاعة الدولة العباسية أن تقاوم الجيوش البيزنطية مقاومة جدية . كذلك اتسمت سياسة خلفائها بتفضيل السلم على الحرب مع أباطرة الدولة البيزنطية ، والعمل على أن يعيشوا جنباً إلى جنب على قاعدة الإخاء والمحبة والاحترام المتبادل .

على أن هذه السياسة لم تدم طويلاً ، إذ لاح في الأفق الشرقي من الدولة الإسلامية خطر السلاجقة وبسط سلطانهم على الخلافة العباسية ، وامتداد هذا الخطر إلى كل من الفاطميين والبيزنطيين^(١) . ولاح في نفس الوقت في الأفق الغربي من الإمبراطورية البيزنطية خطر النورمان^(٢) وزحفه على أراضي الدولتين الفاطمية والبيزنطية أيضاً .

(١) ظهر السلاجقة على مسرح التاريخ في عصر سادته العداة بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية ولعبوا دوراً هاماً في هذا الصراع . فكان لنشأتهم أثر في توجيه نشاطهم ، ففي ٩٥٦ م ترعم شخص يدعى سلجوق قبيلة من الأتراك الغز من برارى القرغيز في تركستان ، وأقام مع قبيلته في بخارى حيث اعتنقوا الإسلام على المذهب السني . واستطاع أحفاد سلجوق أن يرفعوا من شأن قبيلتهم ويوسعوا نفوذها حتى تمكن أحد أولئك الأحفاد ويدعى طغرل من دخول بغداد سنة ١٠٥٥ م . وهناك استقبله الخليفة بالترحاب باعتباره منقذا ومدافعاً عن السنة . وفي عهد خليفة طغرل المسمى ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢ م) بدأ السلاجقة ضرباتهم ضد الفاطميين والبيزنطيين . ففي سنة ١٠٧٠ استطاع أحد قادة ألب أرسلان الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين ، وظل يتابع نشاطه حتى توجه بعد خمس سنوات أخرى بالسيطرة على دمشق . وفي تلك الأثناء كان ألب أرسلان نفسه يتابع جهاد المسلمين ضد البيزنطيين ، وكسب أول نصر مظفر في معركة منزكرت ١٠٧١ م التي وقع فيها الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجين أسيراً . وكان لهذه الواقعة صدى كبير في الدولة البيزنطية إذ ضاعت آسيا الصغرى نهائياً من أيدي البيزنطيين وفقدوا أهم ركن في صرح إمبراطوريتهم . وتعتبر هذه المعركة بداية نهاية الدولة البيزنطية التي ساهم فيها النورمان كذلك .

(٢) النورمان اسم يطلق على مجموعة الشعوب التي سكنت شبه جزيرة اسكنديناوة وحوض البحر البلطي . وتدفتت هذه الجموع على غرب أوروبا في القرن التاسع الميلادي من =

وهكذا ظهرت مطرقتان كالتا لكل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية ضربات قاصمة ، وغدا عالم العصور الوسطى مقبلاً على عهد جديد ، قوامه السلاجقة في الدولة الإسلامية ، والنورمان في الدولة البيزنطية . فودع المسرح العالمي الوسيط نجمين وشاهد بزوغ آخرين اصطدما في ذلك الصراع المعروف بالحروب الصليبية بين الشرق والغرب^(١) . وانزوت الدولة البيزنطية تدريجياً في هذا الصراع حتى تلاشت ، مما يجعل الحروب الصليبية خاتمة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، وبالتالي نقطة تحول جديدة في مجرى تاريخ العصور الوسطى العام .

== أراضيتها في الشمال ، مما جعل الناس يطلقون عليهم إذ ذاك إسم الشماليين (Northmen) وحرف الإسم إلى النورمان . وامتد فرع من النورمان إلى جنوب أوروبا وظهر في إيطاليا أوائل القرن الحادى عشر إبان اشتداد حركات السلاجقة في الشرق . ونجح النورمان في الاستيلاء على صقلية من العمال الفاطميين ، ثم بدعوا في سنة ١٠٨١ م حملتهم ضد الأراضى البيزنطية حيث هاجموا شاطىء دالمشيا . ودفع هذا الخطر النورمانى الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول (١٠٨١ — ١١١٨ م) على الاستعانة بالبنادقة في صد الزحف النورمانى مقابل منح البندقية امتيازات تجارية ضرت الدولة البيزنطية وعجلت بزوالها فيما بعد .

(١) هزت حركات السلاجقة وهزيمة منكرت دول غرب أوروبا للتلبية استغاثة الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول دفاعاً عن المسيحية . وإذا كانت هناك أسباب أخرى أكثر أهمية من ذلك في تحليل هذا الصراع ، فالهام هنا ما تفرع على أعمال السلاجقة من آثار في الدولة الإسلامية لعبت دورها في الحروب الصليبية ، وما قام به النورمان في ذلك الصدد أيضاً من جهودات . وتمخضت أحداث الحملات الصليبية عن ازدياد شعور الكراهية في أوروبا الغربية نحو الدولة البيزنطية التى وجدت من الصليبيين أداة تعمل على غير ما كانت تبغيه منهم . وانتهى الأمر بأن تحولت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مقصدها الأسمى ، وهو الاتجاه إلى الأراضى المقدسة واستولت على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م .

الفصل الرابع

مظاهر التبادل الاقتصادي

بين الدول الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية

مناطق النفوذ التجاري

الميدان الإسلامي

بظهور الإسلام استقرت الأوضاع التجارية في العالم الوسيط ، وغدا التيار التجاري يجري بين عميلين رئيسيين هما : الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية يصرف كل منهما في أسواق الآخر ما تفيض به ينابيعه التجارية ، ويحصل منها على ما يحتاج إليه من مقومات الحياة ، سواء الضرورية منها أو الكمالية ، وفق ما تمليه نوااميس الاقتصاد وقواعد التبادل التجاري . فالناظر إلى خريطة العالم التجارية في العصور الوسطى الأولى ، يرى أن هذين العميلين اقتسما مناطق النفوذ بينهما قسمة طبيعية ، أملت الظروف الجغرافية وهيأت لكل فريق ميدانه الخاص يجول فيه ويصول حسبما يكفل له اليد العليا أو الكفة الراجحة في الميزان التجاري . وكانت الأحداث السياسية وتطور الأوضاع الزمنية العامل الأساسي أو المحور الذي دارت عليه العلاقات التجارية بين المسلمين والبيزنطيين ، وأقنعت الطرفين طواعية أو كرهاً بأن يولى كل منهما وجهه شطر أمورهِ التي تعنيه ، والأخذ من الطرف الآخر عن رضا وقنوع .

فالدولة الإسلامية غدت باستيلائها على فارس وريثة نشاط الفرس التجاري في ميدان الشرق الأقصى ، كما غدت بفتح الشام ومصر المسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، وهو الحلم الذي عجز الفرس عن تحقيقه المرة بعد الأخرى . على أن هذا الوضع الجديد لم يحمل في طياته انقلاباً في أحوال هذه المنطقة التجارية ، أو تغييراً في طرقها الرئيسية ، غير أن السيد المهيمن عليها قد تبدل ، وأن الأسس التجارية هناك استقرت على قواعد منظمة وأساليب جديدة . فقد ترتب على استيلاء المسلمين على فارس ، القضاء على هذا العدو اللدود الذي ضايق الدولة البيزنطية زمناً طويلاً ، وانتهاء عهد التنافس التجاري القديم المتأصل الأوتاد بين الفرس والبيزنطيين . وقام دور تجارى جديد بنت فيه الدولتان الإسلامية والبيزنطية علاقتهما على أسس المصلحة المشتركة والتبادل التجاري الطبعي ، بما يكفل لهما تصريف منتجاتهما دون احتكار أو تنافس غير مشروع .

فقد أدركت الدولة الإسلامية سريعاً وضعها الجديد ، وكذلك الأسس الحقيقية في صرح كيائها الاقتصادي ، إذ تطلعت إليها الدولة البيزنطية لاستيراد المتاجر الشرقية التي كانت العمود الفقري لاقتصادياتها ومورد الجزء الأكبر من مالياتها . ولذلك أقبلت الدولة الإسلامية على تراث الفرس التجاري في الشرق الأقصى تنظمه وتنميه حتى تستطيع القبض على ناصية الميزان التجاري في العالم الوسيط . وتطلب ذلك من المسلمين تثبيت أقدامهم في الجهات التي تفيض بالمنتجات الشرقية ، وتنظيم الشرايين التي تحملها إلى أراضى الدولة البيزنطية . وكان أمام الدولة الإسلامية الطريقان الرئيسيان اللذان احتكرهما الفرس قبل زوال دولتهم ، أحدهما الطريق البحري إلى الهند والصين والآخر الطريق البري إلى هذين البلدين . ودب النشاط التجاري الجديد في ظل الإسلام في هذين الطريقين ديباً منظماً وبخطوات ثابتة حثيثة . ذلك أن أنفة العرب — دعائم الدولة الإسلامية الجديدة — من الاشتغال بأعمال

الزراعة والتجارة وما إلى ذلك جعلتهم يتركون أهالي الأقاليم المفتوحة يتابعون رسالتهم العامة في الحياة الاقتصادية دون حد من نشاطهم أو جهودهم^(١).
وفضلاً عن ذلك شجعوا الفرس على متابعة رحلاتهم التجارية إلى سيلان والصين، إذ يذكر رحلة صيني في سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ أن سفن الفرس كانت تتردد على سيلان لتتاجر في البضائع الشرقية^(٢). وتحدث رحلة صيني آخر يدعى (Hwi cao) عن أهل فارس سنة ٧٢٧ م / ١٠٨ هـ، قائلاً: «إن السكان يميلون بفطرتهم إلى الاشتغال بالأعمال التجارية، ومن عاداتهم الابحار في مراكب كبيرة يسرون بها في البحر الغربي، وأنهم يتابعون مسيرهم حتى يدخلوا البحر الجنوبي إلى بلاد الأسود (سيلان) حيث يجمعون الأحجار الثمينة... وإيهم يتجهون بسفنهم الكبيرة أيضاً إلى الصين مباشرة حيث مدينة (كانتون) للحصول على الحرير وغيره من البضائع^(٣)».

كذلك قام المسلمون بمجهود إيجابي لتشجيع التجارة الشرقية، فأسسوا ميناء البصرة (٦٣٥ / ٦٣٦ م) على الضفة اليسرى لشط العرب^(٤). وكانت هناك تجارة مصب النهر جزيره صغيرة بها مدينة ذات حصن صغير، هي مدينة عبادان أقامت بها حامية لمكافحة القراصنة الذين هددوا سير السفن التجارية. وعلى نحو ستة أميال من المدينة تجاه البحر وجد موضع يعرف بالخشبات، فيه عمد من الخشب منصوبة في الماء بنى عليها مرقب أطلق عليه الناظور، ويوقد الرقب ليلا تهتدى به السفن وتستدل به على مدخل نهر دجلة^(٥).

-
- Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Ages I, 25. (١)
G. Ferrand, Relation De Voyages et Textes Geographiques, 637. (٢)
F. Hirth, The mystery of Fu-lin, 205. (٣)
Heyd, op cit , 48, 49. (٤)
(٥) الاضطخري: المسالك (ليدن ١٩٢٧) ص ٣٢.

ويوجد وصف متأخر لأحد الرحالة في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، وهو « ناصري خسرو » تحدث فيه عن الخشبات ، قائلاً : إنها عمد مصنوعة من خشب الساج منصوبة ، قاعدتها واسعة مربعة الشكل ، ثم تضيق إلى أعلى فوق سطح البحر في ارتفاع يبلغ خمسين متراً ، وفي أعلاها حجرة مربعة الشكل للناظور (١) .

ولم يلبث المسلمون من العرب أن دخلوا ميدان التجارة منذ قيام الدولة العباسية ، مما أضاف إلى أهمية ونشاط الطريق البحري المؤدى إلى الصين . وأجاد العرب فنون الملاحة في هذا الطريق ، ولا سيما استخدام الرياح الموسمية في دفع السفن (٢) ، مما يدل على أنهم بنوا نشاطهم على هدى التراث الباقي من مجهودات التجار والرحالة الأقدمين ، من أمثال المغامر هيبالوس (٣) . ويتضح من رحلات السنديباد البحري المذكورة في كتاب — ألف ليلة وليلة — والتي تنسب إلى عهد الرشيد ، أن التجار العرب قاموا برحلات بحرية من بغداد إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو) والصين ، وأن ازدياد ثروة العباسيين ولا سيما الخلفاء شجع هذا النوع من الرحلات للحصول على العطور والتوابل والحرير (٤) .

وكان الدين الإسلامي عاملاً هاماً في صبغ هذا النشاط التجاري بلون جديد ، إذ امتلأ التجار المسلمون حماسة لنشر دينهم على طول الطريق التجاري ، مما أكسب جالياتهم في المراكز التجارية الهامة امتيازات خاصة ، وجعل لهم لدى سادة البلاد منزلة سامية . فقد تمتع التجار المسلمون المقيمون في مدينة خانفو جنوب شنغهاي الحالية بحق اتخاذ قاض مسلم لهم يحكم بينهم وفق الشريعة الإسلامية ،

(١) Nassiri Khosrau, Safar Nameh, 246,247.

(٢) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ج ٢ ، ص ٣٧٧

(٣) انظر الكتاب ، ص ١٢

(٤) Heyd, op cit, 26.

كما منحوا جوازات تسمح لهم بالتنقل داخل البلاد وتبادل التجارة مع أهلها^(١). وكانت الأحوال التجارية في « خانفو » تقوم على قواعد منظمة تكشف عن مدى النظام الذي ساد هذا الطريق البحري . فأسماء ربان السفن كانت تدون في ديوان « الجمارك » بتلك المدينة ، وخضعت سفنهم بدورها لنظام التفتيش الدقيق ، قبل السماح لها بإتزال حمولتها . وكانت تحصل الضرائب المقررة على السلع قبل توزيعها على التجار ، وكل من كان يحاول التهريب يعاقب بالحبس^(٢).

ولم تقتصر هذه الامتيازات التي تتمتع بها التجار المسلمون على بلاد الصين ، بل شمل أمراء المدن الهندية الساحلية كذلك أولئك التجار بعظفهم وبسطوا رعايتهم على جالياتهم بها^(٣) . وساعد ذلك العطف التجار المسلمين على متابعة نشاطهم ، دون تأثر بالأحداث التي قد تنزل ببعض المدن التجارية ، وتؤثر في أهميتها ومكانتها . فمن ذلك أنه حينما اضطرت الأحوال التجارية في مدينة خانفو سنة ٧٥٨ م / ١٤١ هـ نتيجة قيام بعض الثورات بها ، انتقل التجار المسلمون إلى « كله » في شبه جزيرة ملقا ، في الوضع الذي يعرف الآن بسنغافورة . وفتحت هذه المدينة أمام تجار المسلمين سوقاً جديدة للتجارة في سلع الهند الصينية وهي الكافور والقرنفل وخشب العود وجوز الهند^(٤) . ثم توج هذا النشاط التجاري ظهور كتب المسالك^(٥) التي تصف للتجار المسلمين طرق ارتياد مناطق المنتجات

Heyd, op cit, 30-23 .

(١)

(٢) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .

Arnold, The Preaching of Islam, 264.

(٣)

(٤) سلسلة التواريخ ، ص ١٣ ، ١٥ .

Hadi Hassan, Persian Navigation, 98,99.

(٥) شجع اتساع نطاق التجارة في العصر العباس الأول وإصلاح الطرق التي سادها الأمن ، الرحالة والمسافرين على ارتياد كثير من الأقطار . ووصف أولئك ما شاهدوه من البلدان والطرق المؤدية إليها وصفاً دقيقاً ، ودوتوه في كتب وأسفار هي خلاصة تجاربهم وتجوالمهم . وهذه الكتب هي التي تعرف باسم مسالك الممالك .

الشرقية . ففي القرن التاسع الميلادي ، الثالث الهجري ، وضع أبو القاسم بن خرداذبه دليلاً للمسافرين تناول فيه وصف الطريق البحري الذي يبدأ من الأبله عند مصب دجلة حتى بلاد الهند والصين .

وكانت أهم مراكز تجمع التجارة الشرقية في القرن العاشر الميلادي ميناء سيراف (مدينة تاهيرا الحالية) على ساحل الخليج الفارسي . ويستدل من رحلة أبي زيد حوالي ذلك القرن أن البضائع كانت تنقل من ذلك الميناء إلى عدن على البحر الأحمر^(١) حيث تتابع طريقها إلى البحر الأبيض والأسواق البيزنطية . أما الطريق البري إلى الهند والصين فقد أصبح أكثر استقراراً وأمناً في ظل الإسلام ، مما كان عليه أيام دولة الفرس الساسانيين . ففي ذلك الوقت الذي شجع العرب فيه تجار فارس على ارتياد الطريق البحري الجنوبي كانت الجيوش الإسلامية قد استولت على بلاد السند منذ أوائل القرن الثامن الميلادي . وكان ذلك بداية لازدياد النشاط التجاري عبر أواسط آسيا على نحو لم يعرف من قبل ، حيث غدا الطريق عامراً بالمحطات التجارية الهامة والمراكز التي خضع معظمها لإدارة المسلمين . ففي عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥ م / ٨٦ — ٩٦ هـ) نجد القائد قتيبة بن مسلم ، الذي ولاه الخليفة على خراسان ، يعبر نهر سيحون ويشرع في سلسلة من الحملات الناجحة ، أخضع فيها على التوالي بخارى وسمرقند ومدناً أخرى ، ثم مضى قدماً في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الغربية للامبراطورية الصينية . وأرسل قتيبة

(١) سلسلة التواريخ ، ص ١٣ ، ١٥

زار رحلة عربي اسمه سليمان الهند والصين عدة مرات ، وكتب وصفاً لسياحته سنة ٨٥١ م / ٢٣٧ هـ . ووضع رحلة آخر من سيراف ، اسمه أبو زيد حسن ، في القرن العاشر الميلادي ، الرابع الهجري ذيلاً أكمل به وصف رحلة سليمان .
وتمتاز تقارير سليمان وأبي زيد بما فيها من وصف للطرق التجارية وللمنتجات في الهند وسيلان وجاوه والصين . انظر :

زكي حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٢٣ ، ٢٤

في سنة ٧١٣ م / ٩٤ هـ رسلا إلى إمبراطور الصين وعادوا من عنده تحملين بهدايا
ثمينة . وهكذا كان امتداد نفوذ المسلمين إلى نهر سيحون من أكبر العوامل التي
شجعت التجار على ارتياد الطريق البري إلى الصين . دون أن يواجهوا عقبات من
السلطات الرسمية أو يتعرضوا لمتاعب في الطريق ^(١) .

وكان هذا الطريق متصلا بدروب الهند وقوافلها التجارية . فكانت قوافل
البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان إلى كابل وغزنة ،
ثم تسير إلى خراسان غربا ، وبخارى شمالا ، وعند البلدة الأخيرة تتلاقى مع قوافل
الصين الآتية عبر آسيا الوسطى . وكان التجار يسلكون دربين في هذا الطريق
التجاري المؤدى إلى الصين ، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع والآخر قصير
جدا ، ولكنه متشعب ومجهد ^(٢) . وازدادت قيمة هذا الطريق وأهميته نتيجة
جهود بعض الحكام الذين دخلوا حلبة السياسة الإسلامية في أوائل القرن العاشر
الميلادي ، الرابع الهجري .

فقد استطاع أولئك الحكام من آل سامان ^(٣) نشر الأمن في خراسان وبلاد
ما وراء النهر حتى غدت قوافل التجار تضرب في طريقها إلى الصين آمنة مطمئنة .
بالإضافة إلى ذلك شاهد عهد هذه الأسرة رواجاً في التجارة الشرقية لقيام علاقة
مصاهرة بين السامانيين وإمبراطور الصين ، إذ تزوج ولد نصر بن أحمد الساماني
من ابنة هذا الإمبراطور ^(٤) .

Arnold, op cit, 213,214.

(١)

Heyd, op cit, 36,37.

(٢)

(٣) تلقب أولئك الحكام بهذا الإسم نسبة إلى سامان ، أحد أشرف مدينة بلخ .
واستطاع أحد أحفاد سامان ويدعى إسماعيل (٨٩٢ — ٩٠٧ م) أن يدعم سلطان أسرته
في بلاد ما وراء النهر ، وكانت عاصمتهم بخارى وأشهر مدنها سمرقند .

(٤) آدم متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٤ ، ٣١٥

وبذلك كلف ظهور الإسلام وانتشاره في أواسط آسيا حدثاً هاماً في قصة استيراد الإمبراطورية البيزنطية للمتاجر الشرقية ، إذ أضحت الطمأنينة ووسائل الراحة التي تمتع بها هذا الطريق عاملاً قرب هذه المتاجر إلى بلاد الدولة البيزنطية ، وأزال من طريق البيزنطيين كذلك العقبات التي أثارها من قبل الفرس ، والقبائل التي أقامت على جانبي هذا الطريق . ومن ناحية أخرى أضاف نشاط هذا الطريق التجاري مدداً جديداً إلى عظمة الدولة البيزنطية ورواجها التجاري ، إذ غدت الأراضي الشرقية للدولة البيزنطية خاتمة المطاف لهذا الطريق ومحط قوافله ومتجاره والوسيط المهيمن على تصديرها إلى دول أوروبا .

الميدان البيزنطي

إنعكست آثار هذا النشاط الإسلامي التجاري في الدولة البيزنطية . فتدفقت عليها المنتجات الشرقية وتولت تصريفها بقدر للمالك التابعة لها في أوروبا وغيرها ، مستوحية في ذلك الدفاع عن كيانها التجاري وعدم إتاحة أى منافس لها يشاركها في هذا الميدان . فكانت الواردات التي تصل إلى القسطنطينية^(١) تجدد طريقها إلى أوروبا في سفن التجار البيزنطيين وغيرهم من الشعوب الموالية لهم . وغدا هذا الطريق البحري أهم المسالك التجارية التي اعتمدت عليها الدولة البيزنطية في تحصيل مكوسها على المتاجر الصادرة منها والواردة إليها . فكانت تجبي في القسطنطينية نفسها الضرائب على الصادرات ، على حين جمعت المكوس على السلع الواردة إلى الدولة

(١) تعتبر القسطنطينية وريثة مجد مدينة بيزنطة القديمة على البوسفور . فهذه المدينة الأخيرة كانت ذات مكانة تجارية ملحوظة لإبان الدولة الرومانية الكبرى ، وقام بها قوة من الجند لمساعدة حكامها المحليين على حفظ النظام : انظر :

من الغرب في مدينة أبيدوس (Abydos) على الدردنيل أو في مدينة هيرون (Hieron) على البسفور (١) .

ووجهت الدولة البيزنطية عنايتها إلى إكمال سيطرتها التجارية على دول غرب أوروبا باحتكار الصناعات التي يمكن أن تقوم على الواردات الشرقية . فكان من أهم هذه الصناعات التي حملت اسم بيزنطة عالياً لدى الدول الغربية صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والأحجار الثمينة . وبلغ من اهتمام بيزنطة بالمنسوجات الحريرية أن جعلت مصانعها خاضعة لإشراف الإمبراطور ، واعتبر إنتاجها من الأمور التي تتكفل بها الدولة نفسها . فكانت المصنوعات الحريرية جزءاً من سياسة الدولة العامة في حفظ ولاء الممالك الغربية لها ، إذ تهافتت هذه الدول على شراء المنسوجات الحريرية الموشاة وتلمست الحصول على أنواعها الغالية ، ولا سيما تلك التي لم تطلقها الدولة البيزنطية حرّة في الأسواق ، وآثرت أن تبعث بها هدايا لرؤساء الدول الأجنبية (٢) . فكان لذلك المظهر الأخير معنى أوسع من مجرد الهدايا عند الأمراء والحكام في غرب أوروبا ، إذ حملت هذه الهدايا معنى الإعتراف بهم أو تقدير الدولة البيزنطية لهم ، وهو أمر جهد قادة الممالك الأوربية في الحصول عليه لدعم سلطانهم وكيانهم . ومن ثم راقبت الدولة هذا النوع الأخير من الصادرات مراقبة شديدة ، ولم يسلم من هذه المراقبة سفراء أولئك الملوك الغربيين بصفة خاصة مهما كانت درجاتهم .

ففي سنة ٩٦٨م فتشت حقائب السفير ليود براند الألماني في القسطنطينية عندما قفل عائداً إلى بلاده ، ووجدت بها بعض قطع من المنسوجات الحريرية . فصادر عمال « الجمارك » هذه المنسوجات دون رعاية للسفير الذي انتهك قوانين البلاد محاولاً

(1) Runciman, Byzantine civilization, 170.

(2) Baynes, op cit, 217.

استغلال مكانته في التهريب^(١). على أن هذه الحادثة تدل من ناحية أخرى على مبلغ الغيرة التجارية التي تملكها السلطات البيزنطية، فالمعروف أن الدولة وضعت احتياطات محكمة لمراقبة المتاجر الغالية، وبذلت الأموال عن سعة لقلم المخبرات السرية الذي وكل إليه كشف حركات التهريب.

وازداد دخل الدولة كثيراً نتيجة نظامها التجاري المحكم. فكانت القوانين تنص على أن تفرض مكوس حوالى ١٠٪ من قيمة الصادرات أو الواردات، كما حددت أنواع المواد التي تأخذ عليها هذه المكوس، مثل التوابل والقطن الغفل والجلود الثمينة والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف^(٢) الشرقية.

وكان الطريق البحري يبدأ من القسطنطينية ويطوف بالجزر اليونانية الهامة وينتهى غالباً عند مدينة بارى بإيطاليا، أهم الموانئ في الغرب حتى القرن العاشر^(٣) الميلادى. على أن هذا الطريق شاهد ظهور عناصر جديدة شاركت البيزنطيين نقل المتاجر. ففي القرن العاشر الميلادى غدت سفن أمالفي ونابلى تمخر عباب الماء بين إيطاليا والقسطنطينية، وأضحى لتجار أمالفي فندق مستقر في القسطنطينية. ولكن البندقية كانت أهم المدن الإيطالية التي لعبت دوراً كبيراً في هذا الطريق التجارى. فكانت سفن البنادقة تحمل المتاجر البيزنطية إلى إيطاليا وتعود إلى القسطنطينية محملة بمتاجر الدول الجرمانية، التي كان أهمها الأسلحة والأخشاب^(٤). وفي نهاية القرن العاشر الميلادى غدا البحر الأدرياتي في أيدي البنادقة الذين أغدقت عليهم الدولة البيزنطية كافة أنواع التشجيع ومنحهم الإمبراطور باسل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) عدة مميزات هامة. فكان التجار البنادقة يدفعون ضرائب جمركية

(1) Runciman, op cit, 168.

(2) Runciman, The Widow Danelis,
Runciman, Byzantine Civilization, 168.

(3) Ibid, 170.

(4) Ibid, 168.

مخفضة عندما يغادرون القسطنطينية ، وعهد إلى سفنهم حمل البريد ونقل السفراء بين القسطنطينية وإيطاليا^(١) .

على أن الدولة البيزنطية انفردت بتصريف بعض منتجاتها المحلية وأشهرها النيذ إلى سكان الأراضى المتاخمة لحدودها الشمالية ، واستوردت منها منتجاتها الطبيعية التى ساعدتها على اتصالاتها التجارية بالدولة الإسلامية .

وترجع الأسس الأولى التى استندت إليها بيزنطة فى نشر نفوذها فى هذا الطريق البرى إلى المدن البيزنطية القائمة على الساحل الشمالى للبحر الأسود . فكان الفراء والسماك الجاف يأتى من مناطق الاستبس إلى مدينة خرسون حيث ينقل إلى القسطنطينية ، ويعود التجار إلى تلك المناطق محملين بما يحتاجون إليه من منتجات الدولة البيزنطية^(٢) ، ولم يلبث هذا الميدان الجديد أن ازدهر وغدا ركناً هاماً فى التبادل التجارى بين بيزنطة والإسلام عندما اتجه الطرفان إلى توسيع مناطق نفوذها والبحث عن عملاء جدد لتصريف منتجاتهما .

التبادل التجارى

كان أول شىء وضعه المسلمون والبيزنطيون نصب أعينهم المحافظة على الأوضاع الاقتصادية فى مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقى ، لما تقوم به تلك المنطقة من دور فعال فى حركة التبادل التجارى بينهما . فكانت هذه المنطقة تتحكم فى أطراف الطرق التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية ، واتجهت إليها بيزنطة لاستيراد المتاجر الشرقية . والمتتبع لانتشار الإسلام فى هذه البقعة التجارية الهامة يرى أن المسلمين جهدوا منذ أيامهم

(1) Runciman op cit, 168.

(2) Ibid, 167.

الأولى على تقوية أركان حياتها التجارية وبعث حياة جديدة فيها ، لا أن يهدموا أسسها ويقوضوا أركانها على نحو ما توهم كثير من أصحاب النظريات السطحية في دراسة التاريخ الإسلامى .

فالشریان التجارى القديم المتدفق إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير ، إذ أدرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة وإعجاب أن العرب الفاتحين ليسوا شعباً متبرراً أو متعظراً يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، أو يعمل على التقليل من شأنها . ولكن على النقيض من ذلك رأوا من العرب أناساً يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ، ويحوظونها بتشجيعهم ورعايتهم^(١) . ودل ذلك على أن العرب أدركوا ببصائرهم النافذة ما للتجارة من أهمية فى حياة هذه البلاد التى ارتادتها قوافلهم مراراً وتكراراً قبل ظهور الإسلام . ولذلك كان اهتمام العرب بالتجارة بعد أن بسطوا سلطانهم فى ظل الإسلام على هذه البلاد يقوم على أسس متينة راسخة ، وعن يقين بأن هذه التجارة التى كانت أهم عنصر فى حضارتهم أيام الجاهلية ، لا زالت الجوهر الذى لا بد منه لبناء حضارة جديدة لهم . ويمكن تلمس عناية العرب الفاتحين بالتجارة منذ الأيام الأولى للإسلام . فى غزوة تبوك التى قادها النبى سنة ٦٣٠ م / ٩ هـ اهتم الرسول بتأمين أهالى أيلة (العقبة) ، الميناء المطل على البحر الأحمر ، على أموالهم ، ومنحهم عهداً بالألا يتعرض بأى أذى لسفنهم التجارية أو سفن الموالين لهم^(٢) .

وتبين المسلمون بجلاء أهمية الاتصال بالدولة البيزنطية بعد أن دانت لهم بلاد الشام ومصر . ويدل على ذلك أنهم تركوا أهالى هذه البلاد يواصلون جهودهم الاقتصادية بمعونة عمال بيزنطيين ، سواء من الذين كانوا قبلاً فى تلك البلاد أو أولئك

Heyd, op cit, 25.

(١)

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ، ١٨١

الذين جلبوهم من بيزنطة . فحركة المصانع وبناء السفن ظلت زاهرة ، والمتاجر تنقل من البلاد الاسلامية المفتوحة إلى الدولة البيزنطية . وخلف لنا رحلة مسيحي يدعى أركولف (Arculf) جاء إلى مصر في طريقه إلى بيت المقدس سنة ٦٧٠ م ، أى بعد نحو من ثلاثين سنة من استيلاء المسلمين عليها ، وصفاً لميناء الاسكندرية يبين مبلغ النشاط التجارى الذى امتلأ به هذا الميناء ، وأنه لم يتعرض لأى إهمال من الحكام المسلمين . فشهد منارة الاسكندرية تؤدى عملها ليلاً لهداية السفن التجارية ، وأن الميناء ما زال على صلاحيته لاستقبال السفن وحماتها من العواصف (١) .

وجنت بيزنطة فائدة عظيمة من الرواج الذى أصاب البلاد الاسلامية المطلّة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . فأوراق البردى أصابها كثير من التحسن وغدت من أهم الواردات التى حصلت عليها بيزنطة من مصر . فأصبح طول الورقة منها المعدة للتصدير نحواً من ثلاثين ذراعاً . وحليت بطرز عليها عبارات التمثيل ، إذ لم يعد يلائم الوضع الجديد كتابة اسم الإمبراطور البيزنطى على هذه الطرز بعد أن دخلت مصر فى حوزة المسلمين . ولكن فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك استبدل بالعبارات الأخيرة عبارات إسلامية . ورغمما عن أن ذلك كان عاملاً فى إثارة النزاع بينه وبين الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥ م) فإن الدولة البيزنطية ظلت تستورد أوراق البردى من مصر التى كانت تحتكر هذه الصناعة فى العصر الاسلامى كذلك (٢) . وظلت قراطيس مصر تحتل الصدارة فى قائمة الصادرات إلى بيزنطة حتى القرن العاشر الميلادى حين ظهرت صناعة الورق فى سمرقند . فظلت الدولة الإسلامية كذلك الوطن الرئيسى لتصدير الورق الذى انتشرت صناعته فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام .

(1) The Pilgrimage of Arculf in the Holy Land, 49,50.

(2) S. Lopez, Mohamed and Chatlemagne, 24.

وتنهض العملة التي تداولتها البلاد الاسلامية دليلاً على اتصالها التجاري بالدولة البيزنطية واحترامها للأوضاع التجارية التي كانت سائدة فيها من قبل زمن السيادة البيزنطية . فقد ظلت العملة المحترمة الدينار البيزنطي حتى أيام الخليفة عبد الملك ، إذ ترتب على اتساع دائرة النشاط التجاري للدولة الاسلامية عدم استقرار قيمة النقد وما استتبع ذلك من تلاعب في الأسعار . فأمر عبد الملك بسحب النقد المتداول على جميع أنواعه من السوق ، واستعاض عنه نقداً جديداً . ولكنه لم يتخل عن النقد البيزنطي مما يدل على التأثير التجاري المتبادل بين الطرفين . فقد أخذ الدينار البيزنطي أساساً للعملة الذهبية في الدولة الاسلامية ، وكان يساوي في القرنين التاسع والعاشر الميلادي نحواً من خمسين قرشاً أو أقل قليلاً^(١) . كذلك ظلت الموازين البيزنطية مستعملة في البلاد الإسلامية ولا سيما في سوريا ومصر ، أهم مناطق تصدير المنتجات الشرقية إلى بزنطة . فالأوقية كانت الوزن البيزنطي (Ouggia) ، والرطل هو تحريف للاسم البيزنطي (Litra)^(٢) أي لتر . على أن التبادل التجاري بين بزنطة والدولة الإسلامية أدى إلى ازدياد النشاط التجاري في حوض البحر الأبيض الشرق بشكل جعل تجارة القسم الغربي من ذلك الحوض تبدو قليلة أو في حكم الخاملة إذا ما قرنت بتجارة القسم الشرقي . وكان ذلك صحيحاً إلى حد كبير ، ولكن حاول بعض المؤرخين أمثال پيرن (Pirenne) أن ينسب قلة التجارة وكسادها في غرب البحر الأبيض إلى ظهور الإسلام وامتداده على ضفاف ذلك البحر . فيذكر أن إغارات المسلمين البحرية من شمال أفريقيا وامتداد الإسلام إلى أسبانيا ، كان كل ذلك كالشبح المخيف الذي أنزل الرعب في قلوب دول أوروبا الغربية وصرفها عن أمورها التجارية^(٣) . على أن هذا

G. Le Strange, Palestine under The Moslems, 43,44. (١)

Ibid 48,49. (٢)

(٣) أسهب پيرن في شرح نظريته الخاصة بتأثير انتشار الإسلام في قسم وحدة حوض =

الاضمحلال التجارى لغرب أوروبا لم يكن منشؤه الإسلام ، وإنما صادفت فترة امتداد الفتوحات الإسلامية إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى استمرار الاضطراب الذى ساد من قبل أحوال الممالك المطلة عليه وتزعزع كيانهما التجارى . فالحروب الأهلية التى استعمر أوارها فى غرب أوروبا منذ نهاية القرن السادس الميلادى وحالة القلق التى سادت الدولة الميروفنجية ^(١) منذ نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادى ، كل ذلك أدى إلى تدهور الأحوال التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وعجز دوله عن استيراد المتاجر الشرقية ^(٢) فى كثرة تضاهى الدولة البيزنطية . ومن ثم اعتمدت ممالك غرب أوروبا على بيزنطة فى استيراد ما يلزمها من المتاجر الشرقية بقدر ما سمحت به مواردها المالية ، مما أدى إلى بقاء القسم الغربى من البحر الأبيض المتوسط على اتصال غير مباشر بالقسم الشرقى . ولعبت جزيرة صقلية ، التى ظلت تابعة للدولة البيزنطية حتى سنة ٨٢٧ م ، دوراً هاماً فى حركة نقل هذه المتاجر بين بيزنطة وغرب أوروبا ^(٣) .

= البحر الأبيض المتوسط فى كتابه «محمد وشرلمان» Pirene, Mahomet et Charlemagne كما كررها فى مؤلفاته الأخرى حيث تناول الحياة الاقتصادية فى أوروبا فى العصور الوسطى . ولكن الأبحاث العديدة التى قام بها كثير من العلماء الذين كتبوا فى تاريخ غرب أوروبا فى العصور الوسطى أثبتوا خطأ بيرن . وقد ذكرت بعضاً من هذه المراجع التى تصدت للرد على بيرن فى عرض هذا الباب يلمسها القارىء فى سهولة ويسر .

(١) أسس هذه الدولة بعض عناصر من القبائل الجرمانية تعرف باسم الفرنجة . فقد استقرت هذه القبائل فى غالة (فرنسا) فى القرن الخامس الميلادى ، إبان حركة الإغارات الجرمانية العامة على غرب أوروبا ، وكونت لأنفسها دولة هناك بفضل زعيمهم كلووس (Clovis) . وأطلق على هذه الدولة اسم الميروفنجية نسبة إلى جد المملك كلووس عرف بهذا الاسم .

Cambridge Economic History, 186, (٢)

Ganshof, Notes Sur Les Ports de Provence, 29.

Gay, Note Sur L'hellenisme Sicilien, 218. (٣)

ولم يكن استيلاء الأغالبة^(١) على صقلية (٨٢٧م) وظهورهم في جنوب إيطاليا (٨٤٢م) سبباً في اضمحلال نشاط غرب أوروبا التجاري ، إذ دأب عمال الأغالبة هناك على جعل الطريق مفتوحاً لاتصال دول غرب أوروبا بحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي . فمن ذلك أن مدينة باري الإيطالية بعد أن سقطت في أيدي الأغالبة (٨٤٢م) غدت الميناء الرئيسي الذي أبحرت منه السفن إلى مصر والشام ، تنقل إليهما الصادرات الغربية وتعود منهما محملة بالمتاجر الشرقية . وحفظ لنا الحجاج المسيحيون صورة عن نشاط هذا الطريق التجاري وعن تسهيل المسلمين لهم مهمة السفر إلى الأراضي المقدسة بفلسطين . وتعتبر رحلة برنارد الرشيد الذي أبحر من باري سنة ٨٦٧م قاصداً الأراضي المقدسة مصدراً هاماً لمعرفة أحوال هذا الطريق ووسائل الانتقال عبره^(٢) .

ويوجد نص مشهور لابن خرداذبة ، أحد الجغرافيين العرب في القرن التاسع الميلادي ، الثالث الهجري ، يتضح منه أن البقية الباقية من تجارة غرب أوروبا كانت في أيدي اليهود ، الذين كانوا يحكم مركزهم الاجتماعي خير وسيط لنقل هذه المتاجر إلى شرق أوروبا وإلى القسطنطينية^(٣) . وأطلق المسلمون على أولئك اليهود إسم «تجار البحر»^(٤) ، إذ كانوا يخرجون من مقاطعة بروقانس بفرنسا (أوفرنجة) ومعهم الجوارى والغلمان والديباج وجلود الحز والفراء والسمور والسيوف . ثم

(١) تنسب دولة الأغالبة التي قامت بشمال إفريقيا إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الذي ولى هذه الجهات من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ . وفي عهد هذه الأسرة فتح المسلمون صقلية ، وغدت دولة الأغالبة ذات هيبة وسلطان حتى أزالها الفاطميون سنة ٩٠٩م / ٢٩٦هـ .

The itinerary of Bernard the wise 5,6. (٢)

Mann, The Responsa of Babylon, 477, (٣)

Galante, Les Juifs de Constantinple, 51. Note,5.

(٤) ابن الفقيه ، ص ٢٧٠

يسافرون بجزراً إلى الفرما ، حيث ينقلون متاجرهم على ظهور الدواب إلى القلزم ،
ومن هناك يستأنفون رحلتهم بجزراً إلى جدة وإلى السند والهند والصين (١) ،
« فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من
تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر
الغربي (أي البحر الأبيض المتوسط) فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية
فباعوها للروم (٢) » .

وبلغ النشاط التجاري بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية أوجه أبان القرن
العاشر الميلادي ، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والبيزنطيين أراضي الدولتين
والإقامة في المدن الهامة بهما . ومن تلك المدن التي ازدهرت وأضحت نموذجاً لمرآة
التبادل التجاري مدينة طرابزون ، فكانت هذه المدينة من أهم الأسواق التي وفد
إليها التجار المسلمون منذ العصر العباسي الأول وعادوا منها محملين بالمتاجر البيزنطية
مخرقين الممرات الجبلية في طريقهم إلى ملطية وغيرها من المدن الواقعة على الفرات
الأعلى . وضمت طرابزون كذلك أكبر جالية إسلامية أقامت في أرض البيزنطيين .
وكانت حركة التبادل فيها قائمة على قدم وساق ، فترد إليها من القسطنطينية
المنسوجات الصوفية والكتانية التي استوردها المسلمون بكثرة ، فضلاً عن الثياب
والأكسية البيزنطية ولا سيما الديباج البيزنطي الذي اشتهر بجودته وتفوقه على غيره
من المنسوجات ، وحمل إليها التجار المسلمون ، مقابل ذلك ، المتاجر الشرقية
ومنتجات بلادهم (٣) .

ويدل تنظيم الأسواق الإسلامية والبيزنطية ، والإشراف على نشاط تجارها

(١) ابن خردادبة ، ص ١٥٣

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥٤

(٣) المسعودي ، صروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ،

آدم متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠١

والقوانين التي وضعت لها ، على ازدهار التبادل التجاري ، ومحاوله كل دولة أن ترعى مصالحها الاقتصادية . فكانت الدولة الإسلامية تحصل العشر من قيمة بضائع البيزنطيين ، على أن ذلك خضع لحاجات البلاد والمحافظة على مصالح التجار . ففي بعض الأحيان فرضت الدولة الخمس على البضائع البيزنطية ولم تسمح للتجار بالإقامة طويلاً في البلاد ، وإذا عادوا في نفس السنة مرة أخرى بسلع يرغبون في تصريفها فرضت عليهم مكوس إضافية . على أن الدولة الإسلامية ، أحياناً أخرى ، خفضت قيمة المكوس عند ما أحست حاجتها إلى بعض المتاجر البيزنطية ، كما أعفت التجار من الضرائب الإضافية إذا عادوا مرة ثانية في نفس السنة (١) . ويحتمل أن الدولة الإسلامية قصدت من وراء ذلك إلى خدمة مصالح رعاياها من التجار الذين تكونت لهم في العصر العباسي نقابة كان لها شأن كبير . وكان المحتسب (٢) — وهو من كبار موظفي الدولة الإسلامية — يشرف على الأسواق وحركة البيع والتبادل فيها . وكان ذلك هو شأن الأوضاع التجارية في الدولة البيزنطية ، فلم تسمح للتجار المسلمين بالإقامة داخل بلادها أكثر من ثلاثة أشهر ، وإذا تبقى شيء من متاجرهم يترك في عهدة ورعاية حاكم المدينة الذي يتولى تصريفها ويحفظ ثمنها لديه حتى يعود أولئك التجار في العام التالي (٣) . كذلك عرف البيزنطيون وظيفة المحتسب ، التي أُنشئت من الدقة والصرامة بحيث خشى بأسها التجار . فكان من العسير على التجار تهريب أي سلع أو إحداث تلاعب في الأسعار .

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٣

(٢) المحتسب هو رئيس الشرطة ، وهي وظيفة أنشأها المهدي : وكانت مهمة المحتسب مراقبة الأسواق ، وحمل الناس على المحافظة على الآداب كما يطوف مع رجاله في الشوارع ليلاً ونهاراً ليتأكد من تعليمات الشرطة ، ومعاقبة من يحاول الغش في المقاييس والمكاييل والموازين . وكانت هذه الوظيفة تعتبر في درجات إدارة الدولة الإسلامية مرحلة وسط بين القضاء والهيئة التنفيذية .

وكانت كل طائفة من التجار تقيم في قسم معين من سوق المدينة الإسلامية أو البيزنطية ، وتعيش في ظل نظام خاص اختلف أحياناً من بلدة إلى أخرى . على أن النظام السائد هو أن يقيم التجار في فنادق ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Pandakeion ، مما يشير إلى التشابه بين الأحوال التجارية لدى المسلمين والبيزنطيين . وكان الفندق يتكون من مبنى تعرض في طابقه الأرضي السلع وفي أعلاه غرف لمبيت التجار . واستخدم المسلمون الأقفال البيزنطية بصفة خاصة لإغلاق أبواب فنادقهم ^(١) . ويلاحظ في هذا الصدد أنه كان للتجار البيزنطيين ورعاياهم من تجار الدول الأخرى حتى في القاهرة عرف بحارة الروم وآخر في بغداد أطلق عليه دار الروم .

وبلغ من كبر عدد الجالية البيزنطية في القاهرة أن أضحت لها تأثير على مجريات الحوادث التي حدثت في هذه المدينة والتي استهدفت من ورائها خدمة مصالح دولتها . فمن ذلك ما حدث في عهد الدولة الفاطمية صاحبة السيادة على مصر والشام عندما جهدت أن تضم في دائرة نفوذها مدينة حلب التي تمتعت بمركز تجارى ممتاز . فلم تترك الدولة البيزنطية الفاطميين يدعمون سيادتهم التجارية في الشام بالاستيلاء على هذه المدينة ، وساعدت صاحب حلب على مقاومة الحملة الفاطمية التي أرسلت ضده سنة ٩٩٢ م / ٣٨٢ هـ . فحضر الإمبراطور البيزنطى باسل الثاني بنفسه إلى الشام سنة ٩٩٤ - ٩٩٥ م عندما تخرجت الأحوال ، وحمل الفاطميين على الإرتداد عن حلب . على أن الفاطميين لم يقفوا مكتوفى الأيدي ، إذ أمر الخليفة العزيز ببناء أسطول في دار الصناعة بالمقس ^(٢) لشد أزر الحركات البرية ضد البيزنطيين وانتزاع

(١) آدم متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، س ٣٢٧

(٢) اهتم الفاطميون بعد استيلائهم على مصر بالأسطول ودور الصناعة التي كانت تبني فيها السفن . فمن ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أسس دار صناعة في المقس التي غدت ميناء القاهرة . وكان موضع المقس قرية تسمى أم دنين . وكانت المقس في العهد الفاطمى كذلك سوقاً هامة للجلال .

حلب منهم . وأظهر الوزير الفاطمي عيسى بن نسطورس هممة ونشاطاً كبيراً في إعداد السفن الحربية وتزويدها بالآلات والعدد . ولكن حدث في يوم الجمعة ٤ مايو سنة ٩٩٦ م / ١٢ ربيع الثاني سنة ٣٨٦ هـ — وهو اليوم المزمع فيه إبحار الأسطول — أن شب حريق في السفن دمر منها ست عشرة سفينة ، على حين أتلقت النيران العدد الحربية في باقي السفن الأخرى . ونسب ذلك الحريق إلى التجار البيزنطيين الذين كانت غالبيتهم من تجار مدينة أمالفي بإيطاليا والتابعة إسمياً للدولة البيزنطية . وكان أولئك التجار قد وصلوا إلى الأراضي المصرية قبل ذلك الحادث بقليل ، وأقاموا في فندق يسمى بيت مالك ، ويقع قرب دار صناعة القس . وعلى الرغم من انفجار العامة بالسخط فإن السلطات الفاطمية حافظت على متاجر البيزنطيين وردت عنهم عدوان الأهالي ، كما أزلت العقاب الصارم بكل من ثبتت عليه تهمة السلب والنهب^(١) . ولا شك أن هذه السياسة الرشيدة التي انتهجتها الحكومة الفاطمية أزاء التجار البيزنطيين تدل على مبلغ حرصها على بقاء الاتصال التجاري قائماً مع بيزنطة .

ويمتاز العصر الفاطمي كذلك بقلة الحروب مع البيزنطيين وكثرة فترات السلم التي ازدهرت فيها التجارة ولا سيما تجارة المنسوجات . فيروي ناصري خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي زار مصر زمن الخليفة الفاطمي المستنصر ، قصة يبدو عليها طابع المغالاة ولكنها تدل على رواج تجارة المنسوجات ، إذ ذكر أن الإمبراطور البيزنطي عرض على الخليفة الفاطمي مائة مدينة بيزنطية مقابل تنازل الخليفة عن مدينة تنيس وصناعة المنسوجات بها ، ولم يلق هذا العرض قبولا من السلطات الفاطمية^(٢) . وكانت مدينة تنيس وكذلك دمياط وديمق من أكبر مراكز صناعة

(١) المقرئزي ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ؛ يحيى بن سعيد ، صلة كتاب

سعيد بن بطريق ، ٤٤٣ ، ٤٤٧

Sefer Nameh, 111.

(٢)

النسيج في العصر الفاطمي . وكان الثوب الذي نبغ في صناعته أهل تنيس يعرف بالبدنه ، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب نسجاً محكماً .

ولم يقتصر هذا الرواج التجاري على مصر وإنما ساد سائر البلاد الإسلامية كذلك . وغدت الإسكندرية وبغداد في القرن العاشر الميلادي تقرران الأسعار للعالم ولا سيما أسعار السلع الكملية^(١) . وكان التجار المسلمون يمدون الدولة البيزنطية بما تحتاج إليه من المواد الغفل (الخام) اللازمة لبعض الصناعات بها ، مثل صناعة العاج الذي كان يجلب من إفريقيا الشرقية . كذلك أدى التبادل التجاري إلى تأثر الصناعات الإسلامية بالصناعة البيزنطية ، إذ يتضح من الفرش المعروفة « بالطنافس » التي اشتهرت بها الحيرة في العراق على أثر الفن البيزنطي ، فهذه الكلمة العربية ترادف الكلمة البيزنطية Tapetes^(٢) .

تنافس المسلمين والبيزنطيين في الميادين التجارية الجديدة

لم يقتصر المسلمون والبيزنطيون على التبادل التجاري بينهما فحسب ، وإنما تسابقوا كذلك إلى إدخال أسواق جديدة في دوائر نفوذهم يصرفون فيها متاجرهم ويجلبون منها ما بها من منتجات طبيعية . ففي القرن العاشر الميلادي ، الرابع الهجري ، اشتد التنافس بين المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على أسواق بلاد الروس (الصقالبة) . وكان المسلمون على اتصال سابق بهؤلاء الأقاليم قبل ذلك بقرن تقريباً ، إذ وصف لنا الجغرافي العربي ابن خردادبة في القرن الثالث الهجري الطريق الذي سلكه التجار الروس من بلادهم إلى الدولة الإسلامية . وذكر أنهم

(١) آدم منز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٢

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

جنس من الصقالبة يحملون جلود الثعالب السود والسيوف من أقصى بلاد روسيا إلى العراق ويمرون ببلاد الخزر حيث يجبي صاحبها منهم المكوس . ثم يتابعون سيرهم إلى بحر جرجان ومنه يحملون متاجرهم على ظهور الإبل إلى بغداد . وهناك كان الخدم الصقالبة المشتغلون في بغداد يتولون الترجمة بينهم وبين المسلمين . وكان أولئك التجار يدعون أنهم مسيحيون كي تطبق عليهم القوانين الخاصة بأهل الذمة^(١) . وفي سنة ٩٢١ م / ٣٠٩ هـ ، خطا المسلمون خطوة إلى الأمام في هذا الميدان التجاري ، إذ قام اتصال سياسي بين البلغار المقيمين على ضفاف نهر إتل (القلجا) والخليفة المقتدر العباسي^(٢) . فقد أرسل إليهم الخليفة رسولا ينشر بينهم تعاليم الإسلام ويلقنهم مبادئه . على أن الفضل الأكبر في انتشار الإسلام بين أهالي القلجا يرجع إلى التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع الأخرى التي جلبوها من بلاد روسيا الشمالية^(٣) .

على أن المسلمين لم يستطيعوا مزاحمة البيزنطيين في روسيا التي اعتنق أهلها

(١) ابن خردادبة ، نفس المرجع ، ١٥٤

(٢) كان للبلغار في أوائل العصور الوسطى دولتان ، أقدمهما في حوض القلجا الأوسط ، والأخرى في حوض نهر الطونة . وتطلق كلمة بلغار على البلاد التي كانت تقع شرقي نهر القلجا وسكانها كذلك . وأرسل الخليفة المقتدر العباسي سفيراً يدعى ابن فضلان إلى دولة البلغار في حوض القلجا ، إجابة لطلب ملك البلغار الذي كان قد اعتنق الإسلام منذ زمن يسير ، وبعث يطلب فقيهاً يعلمه أصول الدين الإسلامي . كذلك هدف ملك البلغار من وراء هذا الاتصال السياسي أن تساعد الدولة الإسلامية في بناء حصون تدفع عنه غائلة أعدائه ، وبصفة خاصة من الخزر . وكان ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار ، ومملكتهم تقع عند مصب نهر القلجا ، وديانتهم اليهودية ، وكانوا يعدون البلغار تابعين لهم .

وأمدنا ابن فضلان بصورة جلية عن البلغار ولا سيما تجارتهم ، وكذلك وصف بعض الروس القدماء الذين رأهم على نهر القلجا ، حيث قدموا للتجارة مع البلغار . ولكن لم يذكر ابن فضلان شيئاً عما تمخضت عنه سفارته من الوجهتين السياسية والحربية . انظر :

زكي حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) آدم متر ، نفس المرجع ، ص ٣١٤ ،

المسيحية على مذهب كنيسة القسطنطينية ، إذ فشل البلغار المسلمون في تحويل
فلاديمير أمير كييف الروسي — وكان على الوثنية — إلى الدين الإسلامي . فقد حدث
أن رغب هذا الأمير في اعتناق دين سماوي ، وعقد في بلاطه مناظرة بين دعاة يمثلون
الأديان السماوية المعروفة ، وقام كل داع بالدفاع عن دينه وشرح تعاليمه . فحال بين
فلاديمير وقبول الإسلام تحريم المسامين للخمر ، حيث أجاب فلاديمير الداعي المسلم
قائلاً : « إن الشراب متعة الروس ولا حياة لهم بدونها » . كذلك أخفق اليهود
الذين جاءوا من بلاد الخزر في استماتته إلى ديانتهم . فبعد أن أصغى فلاديمير إلى
حججهم سألهم : « أين بلدكم ؟ » فأجابوا : « بيت المقدس ، ولكن الله شمت شملنا
في كافة أنحاء العالم غضباً منه علينا » فقال فلاديمير : « إذا كان الله قد قطعكم
من رحمته فهل تريدون منا اعتناق دينكم فنلقى نفس المصير ؟ » ، على أن الصورة
التي رسمها قسيس بيزنطي عن تعاليم المسيحية لقيت هوى في نفس فلاديمير .

ورغمًا عن ذلك لم يندفع فلاديمير في اختيار دين من بين هذه الأديان محل محل
دينه الوثني . فاختر عشرة من بين رجال دولته المشهور لهم بالحكمة وسداد الرأي
ووجههم إلى البلاد المختلفة ليدرسوا أمور ديانتها . ودونت هذه السفارة ملاحظاتها
عن الأديان ومعتنقيها ، فكتبوا عن البلغار المسلمين أن أما كنهم حقيرة تنبعث منها
روائح كريهة وأن وقوفهم للصلاة بوجوههم الواجبة يبعث على الكآبة ، فالسلم يقف
ثم يركع ثم يسجد ثم يجلس ويلتفت ذات اليمين وذات الشمال كأنه شخص مأخوذ (١) .

(١) كان بلغار القلجا أقل في مستوى حضارتهم ومعيشتهم من سائر المسلمين مما حمل
السفارة على السخرية من منازلهم . أما وصف السفارة للمسلمين في الصلاة ، فهو وصف بدائي
لشعب بدائي لا يستطيع فهمه أو إدراكه أن يجعله يقف على كنه الدين الإسلامي . فالصلاة تجعل
المرء يتصل مباشرة بربه ، يقف أمامه خاشعاً يرجو منه الهداية والمعونة . فلم تقدر السفارة
هذا المعنى السامي ولم تدرك ما تنطوي عليه شعائر الصلاة من هيبة وجلال . فضلاً عن ذلك
دل أفراد السفارة على عقيلتهم البدائية حين استهوتهم مظاهر كنيسة القسطنطينية وأبهة نياح
القسس وما إلى ذلك . وإن هذا التقرير ينهض دليلاً على أن الدين الإسلامي يحق خاتم الأديان
السماوية ، وكان لابد لليهودية والمسيحية أن تمهدا له السبيل ، وتمهئا الأذهان لقبول تعاليم السامية

ووجدوا بين المسيحيين الكاثوليك طقوساً دينية خالية من الأبهة والجلال . وأخيراً بلغوا القسطنطينية حيث زاروا كنيسة أيا صوفيا ، وهناك أخذتهم وأدهشتهم عظمة القداس ونخامة البناء . فكان البطريق يرتدى ملابسه الرسمية الزاهية يحيط به القسس في ثيابهم الدينية الجميلة ، وزخارف الكنيسة هنا وهناك ، وتتدلى من سقفها المباخر ترسل رائحة ذكية ، فلأ كل ذلك قلوب الروس دهشة وعجباً ، حتى أنهم عندما عادوا إلى بلادهم زينوا لبني جلدتهم اتباع عقيدة الكنيسة البيزنطية . ولذا جهر فلاديمير سنة ٩٨٨ م بالمسيحية وأمر بأن يدعى كافة الروس أغنياء وفقراء لطقوس تلك الديانة^(١) .

وبفضل هذا التحول الديني في روسيا وجد البيزنطيون منفذاً لمنتجاتهم مزاحمين بذلك المسلمين الذين أقصوا عن الميدان وقل نشاطهم . فتولى أمير كييف حراسة التجار البيزنطيين أثناء مسيرهم في نهر الدنيبر الجنوبي ، إذ كان يتحتم عليهم نقل بضائعهم إلى البر والسير بها تفادياً للشلالات التي تعترض مجرى ذلك الجزء من النهر ، ومن ثم كانت القبائل المعادية تنهز هذه الفرصة وتغير على القوافل . وفضلاً عن ذلك اضطلع الروس بمهمة صد خطر بلغار القرم عن اجتياح منطقة خرسون^(٢) . وفي مقابل ذلك منحت الدولة البيزنطية سفن الروس عند وصولها المياه الإقليمية للدولة البيزنطية في البحر الأسود كافة التسهيلات ، كما سمحت للتجار الروس دخول القسطنطينية على شريطة ألا يكونوا مسلحين ، وألا يدخل المدينة أكثر من خمسين شخصاً دفعة واحدة . وفي القسطنطينية يقضى التجار الروس فصل الصيف ، وتهيء لهم الحكومة المسكن والطعام والحمامات طوال فترة إقامتهم دون مقابل . ومُنح تجار أمير كييف تسهيلات وامتيازات خاصة وأعفوا من دفع الضرائب

(1) Fisher, A history of Europe, 376,376,

Arnold, op cit, 243,244.

(2) Baynes, op cit, 215.

الجركية . وعندما يقفل التجار عائدین إلى بلادهم كانت تزودهم السلطات البيزنطية بالمؤن اللازمة وبأدوات السفن الضرورية مثل المراسي والجمال وغيرها (١) . ولم يلبث الجو أن خلا للروس والبيزنطيين تماماً عندما ظهر فرع من النورمان في بلاد روسيا وركبوا نهر القلجا وخربوا عاصمة الخزر سنة ٩٦٩ م / ٣٥٨ هـ . فعدا الروس هم الذين يتوجهون إلى بلاد الخزر وأراضي المسلمين مباشرة حاملين متاجرهم بأنفسهم (٢) . واتبع أولئك التجار الروس وسائل المقايضة في التجارة فاستبدلوا مثلاً بالفراء والشمع الخمر اليونانية والفواكه والمنسوجات (٣) .

تغير الأوضاع التجارية في البحر الأبيض المتوسط

في الوقت الذي راجت فيه المتاجر البيزنطية والإسلامية في بلاد الروس ظهرت قوى جديدة على المسرح التجاري، وأخذت تعمل عملها حتى أودت في النهاية بالوضع التجاري الذي كان سائداً بين المسلمين والبيزنطيين . وبدأت هذه القوى نشاطها في ميدان الدولة البيزنطية التجاري ثم انعكس صداه في الميدان الإسلامي . فكانت المدن الإيطالية ولا سيما البندقية ، التي اعتبرت تابعة إسمياً للدولة البيزنطية حتى القرن التاسع الميلادي ، تسعى حثيثاً في تثبيت أقدامها وتقوية مركزها والاستقلال بشؤونها التجارية عن بيزنطة . وغدا ذلك أمراً ملموساً عندما أسست البندقية أسطولاً مستقلاً واتصلت مباشرة بالدولة الإسلامية وتبادلت معها المتاجر . ولم يلبث أن اتضح ضعف هيبة الدولة البيزنطية وإحساسها بهذا المنافس التجاري الجديد

Baynes, op cit, 215.

(١)

(٢) متر ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣١٥

Baynes, op cit, 215.

(٣)

عند ما لم تستطع قوانينها منع تجار البندقية إبان القرن التاسع الميلادي من الاتجار في الأخشاب والمواد الحربية مع حكام مصر المسلمين^(١). ولم يقتصر الأمر على ذلك، إذ اضطرت الدولة البيزنطية إلى عقد معاهدة تجارية مع البندقية سنة ٩٩١ م كانت بمثابة اعتراف صريح باستقلال البندقية التجاري^(٢). ولم تلبث الخطوة النهائية في تلك السبيل أن تمت حينما أبرم الإمبراطور الكسبيوس الأول مع البندقية معاهدة سنة ١٠٨٢ م منح فيها تجار البنادقة مطلق الحرية في التنقل بين أنحاء الدولة دون دفع مكوس (جمارك)، وذلك في مقابل مساعدة البندقية للدولة في حروبها مع النورمان^(٣).

وهكذا كانت الأوضاع في غرب أوروبا آخذة في التطور منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ولم تعد دولها تنظر إلى الدولة البيزنطية نظرة الإحترام والهيبة التي كانت تبديها نحوها من قبل. وكان العامل الهام الذي حول الشعور الأوربي عن البيزنطيين هو نشوب الحرب الصليبية، التي دوت أصدائها بين الشرق والغرب. فقد تنقل الدعاة المسيحيون لهذه الحرب بين دول أوروبا يستثيرون الناس بأبناء العقبات التي تضعها الدولة البيزنطية في سبيل الجيوش الصليبية. ذلك أن الدولة البيزنطية التي رحبت بالجيوش الصليبية بادي الأمر ألفت الصليبيين الذين اجتازوا أراضيها جموعاً تبغى الفساد في الأراضي البيزنطية، فضلاً عن أنها لم تعد أداة تستطيع أن تستغلها

Heyd, op cit I, 109,110.

(١)

أصدر الإمبراطور البيزنطي ليو الخامس (٨١٤ — ٨٢٠ م) قراراً يحظر فيه الاتجار مع المسلمين، وأذعنت البندقية لذلك القرار مؤقتاً، إذ استأنفت في سنة ٨٢٨ م اتصالها التجاري بمصر، دون رعاية للقرار السابق.

Runciman, op cit, 168.

(٢)

Baynes, op cit, 213.

(٣)

لاستعادة ما استولى عليه السلاجقة من أراضيها . على أن العوامل الحقيقية التي دفعت القوى الإيطالية على التحمس لهذه الحروب ومشاركة الصليبيين سخطهم على البيزنطيين ، هي المنافع المادية التي هدفت إلى الحصول عليها من وراء نقل الجيوش الصليبية والرغبة في القضاء على سيطرة البيزنطيين التجارية . وليس أدل على ذلك من أن البندقية نجحت بفضل سياستها ونفوذها في تحويل الحملة الصليبية — المعروفة بالرابعة — عن مقصدها الحقيقي ، وهو أنقاذ الأراضي المقدسة ، وحملتها على مهاجمة القسطنطينية عروس التجارة البيزنطية^(١) . وبسقوط العاصمة البيزنطية في أيدي الصليبيين سنة ١٢٠٤ م فقدت الدولة البيزنطية مكانتها التجارية ودبَّ الانحلال في كيائها ، وزالت هيبتها إلى الأبد .

وانعكست آثار هذه الحادثة في العلاقات التجارية بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ لم تستطع بيزنطة أن تنهض من كبوتها ، كما أن الأوضاع الزمنية لم تهني لها فرصة تقال فيها من عثرتها بعد زوال سيطرة الصليبيين عن القسطنطينية . ذلك أن الصراع بين الدولة البيزنطية والبندقية كان صراعاً بين أرستقراطية بيزنطية متداعية متواكدة وأرستقراطية من التجار البنادقة ، وتمخض عن انتصار الطبقة الأخيرة المغامرة . غير أن دعائم الاقتصاد العالمي الوسيط لم تهتز بزوال عظمة الدولة البيزنطية التجاري ، إذ فتحت الحروب الصليبية أمام أوروبا طرقاً للاتصال المباشر مع أراضي الدول الإسلامية والحصول على المنتجات الشرقية . فحفلت الإمارات الصليبية في فلسطين والشام بالتجار الإيطاليين وغيرهم ، الذين اضطلعوا بمهمة النقل التجاري بين الشرق والغرب .

وهكذا ظلت الدولة الإسلامية مقصد طلاب المتاجر الشرقية على حين اضمحل

(1) Baynes, op cit, 218,
Runciman, op cit, 169.

عميلها الأول القديم . فأعلنت الدولة البيزنطية إفلاسها ، وانتقلت الأبهة والثراء اللذان تمتعت بهما القسطنطينية قروناً طويلاً إلى مدن البحر الإديراتي ، ودبت روح الحياة نشيطة من جديد بين حوض البحر الأبيض الشرقي والغربي . وغدت هذه المدن الإيطالية الوسيط في نقل المتاجر الشرقية بين الدول الإسلامية وبين أوروبا ، وظلت تحتكر هذه المتاجر وطرقها حتى أدى التنارع عليها إلى البحث عن طرق جديدة كانت إيداناً بعهد الكشوف الجغرافية^(١) وفجر العصر الحديث .

(١) ذلك أن احتكار البنادقة ودولة المماليك في مصر للمتاجر الشرقية شجع على كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح .

الفصل الخامس

مقارنات بين المجتمع الإسلامي والمجتمع البيزنطي

في العصور الوسطى

التبادل الثقافي

مراكز الاتصال الثقافي

عاشت الدولتان الإسلامية والبيزنطية عيشة جارين ، تحاصبا حيناً ، وجنحاً إلى السلم أحياناً ، تحمل العلاقات بينهما جميع معاني الحياة بما فيها من أخذ ورد ، وضر ونفع . فلم تقم الدولتان بينهما سداً منيعاً يجعل كلا منهما تحياً في واديهما الخاص بها ، وإنما كانت المسالك بينهما مطروقة ترخر بالركبان التي حملت ما يمكن حملة من نتاج الدولتين العلمي والثقافي ، وجهدت على حفز الدولتين على التمسك بأهداب حسن الجوار رغم ما ينشب بينهما من خصام وتزاع . وكان الميدان الثقافي أول حلبة دربت فيها أفكار الدولتين على التعاون معاً في بناء صرح مدنيتهما ، والتفاهم على ما فيه النفع العام . فكان أمامهما مورد واحد نهلا منه ، وتآزرا على الأفادة منه بما يهيء لهما حياة هنية . وكان ذلك الينبوع الذي استقى منه المسلمون والبيزنطيون وألف بين عقليتهما وقرب بينهما ، هو تراث الثقافة الهلينية «اليونانية» . التقى المسلمون بهذه الثقافة في الولايات البيزنطية وبعض الأراضى الفارسية التي بسطوا سلطانهم عليها . فما أن دخلت أرض الجزيرة والشام ومصر في رحاب الدولة الإسلامية ، حتى أقبل العرب الغزاة يرتشفون من مناهل حضارتها

الهيلينستية^(١) التي كانت تشع من مراكزها الثقافية الزاهرة ، مثل أنطاكية في الشام ، وقيصرية وغزة في فلسطين ، والاسكندرية بصفة خاصة في مصر . وأضحت هذه المدن بعلمائها ومدارسها ومتاحفها وجوها المشبع بالحياة الفكرية والحياة الهيلينستية ركناً هاماً في صرح الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد وضعوا أيديهم على شطر ثمين من الثقافة اليونانية ، فإن الدولة البيزنطية احتفظت بنصيب الأسد منها في بلادها . ذلك أن أراضى الدولة البيزنطية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي كانت — قبل ظهور الإسلام — الوطن الأصلي للثقافة اليونانية ، وحامية ذمارها من تأثير حضارة الغرب^(٢) . غير أن المسلمين لم يلبثوا أن عملوا على تنمية نصيبهم من هذا التراث الثقافي معتمدين على جهودهم الخاصة ، ثم استعانوا بالدولة البيزنطية فيما تراءى لهم بعد ذلك من نواحي المعرفة .

أقبل المسلمون بحماسة على نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، إذ كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولاً وقبل كل شيء . ومن ثم بدأت حركة

(١) تطلق هذه الكلمة على طابع الفكر والحضارة القديمة في العصر الذي بدأ بفتح الإسكندر للشرق (٣٣٦ ق) . ويمتاز هذا العصر بامتزاج الفكر اليوناني بالروح الشرقية ، مما جعل هذه الحضارة تختلف بعض الشيء عن حضارة اليونان القديمة . ثم أخذت هذه الحضارة تنمو وتمتد حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الإسكندرية ، وأدت إلى ظهور المدارس الفلسفية في مدن بلاد الشرق ، انظر :

حسين مؤنس ، الشرق الإسلامي في العصر الحديث ، ص ٦

(٢) حاولت روما بعد أن بسطت سلطانها على البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقي أن تفرض عليها حضارتها اللاتينية . لكن ثقافة هذه البلاد الهيلينستية كانت ثابتة الأركان لا تستطيع الحضارة اللاتينية مزاحمتها . كذلك ظلت اللغة اليونانية تغلب على هذه البلاد على الرغم من محاولات بعض أباطرة الرومان تشجيع اللغة اللاتينية . ولذا عندما ظهرت القسطنطينية وغدت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية كانت رقعة هذه الإمبراطورية تضم حضارة هيلينستية بعيدة عن مؤثرات الغرب ، وتابعت بيزنطة حماية هذا التراث .

الترجمة لتعريب الكتب اليونانية ، كما عرّبت من قبل النظم الإدارية وسجلاتها في البلاد المفتوحة . واضطلع بهذه المهمة أولئك الذين حملوا مشعل الحضارة الهلينستية قبل ظهور الإسلام . على أن الغموض يكتنف نشاط هذه الطبقة المستنيرة وجهودها في بعض الولايات ، على حين توجد معلومات كثيرة عنها في أقاليم أخرى^(١) . فمدرسة الاسكندرية مثلاً كانت لا تزال قائمة زمن الفتح العربي ، وكانت المدرسة اليونانية الوحيدة إذ ذاك ، ولكن الأخبار عن مجهوداتها ناقصة وغير دقيقة^(٢) . أما من ناحية أخرى فإن المراجع تفيض بذكر جهود علماء المراكز الثقافية في كل من الشام والعراق .

فقد ازدادت عناية المسلمين بالثقافة اليونانية في الشام ، ولا سيما بعد انتقال مدرسة الاسكندرية إلى مدينة أنطاكية في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز . ولا يعرف تماماً السبب في اضمحلال مدرسة الاسكندرية بهذه السرعة ، ولكن يمكن أن يعزى ذلك إلى أن الاسكندرية فقدت أهميتها بعد أن اتخذ العرب عاصمتهم في الفسطاط ، وأضحت المدينة في عزلة تامة عن مركز السيطرة والسلطان^(٣) . فكان قيام الدولة الأموية في الشام وعلو نجم الأمويين وعاصمتهم دمشق حافزاً على انتقال مركز العلم والعرقان إلى موطن حكمهم . وأخذ بعض الخلفاء والأمراء الأمويين يشجعون رعاياهم الضليعين في العلوم الإغريقية على متابعة جهودهم . وقربوا إلى بلاطهم من يمكن الاستفادة بهم كالأطباء ، حتى أضحت الشام تربة صالحة تنقل إليها معارف مدرسة الاسكندرية . فينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية اهتمامه بعلم الكيمياء ، واستدعاؤه بعض العلماء من الإسكندرية وتكليفهم ترجمة

(١) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني ، ص ٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٨

الكتب اليونانية التي تناولت هذا الموضوع^(١).

وفي عهد مروان بن الحكم ترجم طبيب فارسي الأصل يدعى « ماسارجويه » سنة ٦٨٣ م كتابا في الطب من السريانية إلى العربية ، ولكن هذا الكتاب كان موضوعا في الأصل باللغة اليونانية وينسب إلى أحد علماء الاسكندرية ويدعى أهرون^(٢) . وأخيرا نقل عمر بن عبد العزيز مدارس الطب من الاسكندرية إلى أنطاكية^(٣) .

وهكذا كانت الرعاية المبكرة التي أولاها بعض خلفاء بني أمية للعلوم الإغريقية سبباً في إنعاش المرا كز الثقافية لتلك العلوم في الشام وتجديد نشاطها القديم . فكانت أنطاكية مركزاً لثقافة يونانية زاهرة ، أشرف عليها اليعاقبة قبل ظهور الإسلام . ولكن أصابها الإضمحلال قبل استيلاء العرب عليها (سنة ٦٣٨م ١٧ هـ) . فقد خربها الفرس أثناء غزوهم للشام قبل ظهور الإسلام ، ثم أكلت الزلازل ما أحدثه الفرس بهذه المدينة . غير أن نقل مدرسة الأسكندرية إليها بعث فيها ماء الحياة من جديد ، وظلت تزدهر وتزدهر زمن الأمويين رغم وقوعها في منطقة الأطراف القلقة الأوضاع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . ذلك أن موقع أنطاكية سهل جلب المخطوطات من آسيا الصغرى والإشراف على حركة تبادل المراجع التي كانت ناشطة في فترات السلام التي تخللت الحروب ، والتي دفع عليها الرغبة في تكوين مكتبات جديدة أو دعم أخرى قائمة من قبل^(٤) . وظلت مدرسة أنطاكية زاهرة نحواً من ١٣٠ أو ١٤٠ سنة ، حيث انتقلت بعد ذلك إلى مدينة حران بالعراق الأعلى في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١م / ٢٣٢ - ٢٤٧هـ) .

Hitti, op cit, 255. (١)

Hitti, op cit, 255. (٢)

ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ج ١ ، ص ١١٦ (٣)

بدوى ، نفس المرجع ، ص ٦٩ (٤)

وتم نقل هذه المدرسة إلى حران على يد تلميذين لا يعرف إسمهما تتلمذا على أستاذ كان في أنطاكية لا يعرف إسمه كذلك ، وحمل هذان التلميذان معهما مكتبة أنطاكية إلى حران (١) .

ولم يكن مستغرباً أن تخلف حران مدينة أنطاكية ، إذ كانت مركزاً هاماً للثقافة اليونانية في المنطقة التي تكلم أهلها اللغة السريانية (الأرامية الشرقية) ، كما كانت كذلك مركزاً للتبادل والإتصال الثقافي . ومما يدل على ما لها من أهمية قديمة أن آخر الخلفاء الأمويين ، وهو مروان الثاني ، نقل مقر خلافته حيناً إلى هذه المدينة . وكان أهلها وثنين يعبدون الكواكب ، حتى غدوا نتيجة تأملاتهم وملاحظة السماء أساطين الدراسات الفلكية . وفي عهد المأمون في أوائل القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، نجوا من الحكم الذي صدر بالقضاء عليهم حين أعلنوا أنهم ذرية الصابئة من العرب القدماء ، وعرفوا منذئذ بذلك الأسم (الصابئة) .

وكانت مدينة حران تسمى « هلينبوليس » أي مدينة اليونانيين لتقدم العلوم اليونانية بها ، وإن كان هذا الاسم أطلق على أهلها بدافع السخرية والاحتقار (٢) . وأشهر علماء هذه المدرسة ثابت بن قرّة ، الذي ترجم إلى العربية عدداً من الكتب الفلكية والرياضية التي وضعها إقليدس وثيودوسيوس وبطلميوس . وظلت مدرسة حران زاهرة نحواً من أربعين سنة حيث ارتحل الفلاسفة والعلماء منها إلى بغداد في خلافة المعتضد (٨٩٢ — ٩٠٢ م / ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ، ومن هؤلاء العلماء ثابت بن قرّة الحراني الذي رحل إلى بغداد لخلاف قام بينه وبين أبناء دينه . وفي بغداد لفت الأنظار إليه بنشاطه العظيم في الترجمة ، واتخذه الأمير المعتضد ، قبل أن

(١) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٦٩ — ٧١

(٢) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٧٠

يصبح خليفة ، صديقاً له . وبقى ثابت دائماً عالماً منكباً على البحث والإستقصاء
والاشتغال بالترجمة (١) .

تبادل العلوم والعلماء

وإذا كان الخلفاء المسلمون بذلوا جهداً عظيماً في إحياء التراث اليوناني في بلادهم
فإنهم أدركوا تفوق الحضارة البيزنطية ، وأن ليس في استطاعتهم سد الفراغ في
التراث اليوناني الذي غدا في متناولهم دون الاستعانة بالدولة البيزنطية والإستفادة
من نشاطها الثقافي . فبيزنطة ورثت القسط الأوفر من مؤلفات الأساتذة اليونان
القدامى ، وأبدت القسطنطينية عناية وغيره شديدة في الإحتفاظ بهذا الكنز الذي
لا يقدر بثمن . وبلغ تقديس البيزنطيين لمؤلفات أسلافهم حداً دفعهم إلى دراستها
عن طريق التعليقات والشرح وتجنب أى تغيير فيها قد يؤدي إليه البحث
والإستقصاء . وتجلت هذه النزعة البيزنطية بصفة خاصة في ميدان الأدب حيث
غلب طابع المحاكاة والتقليد للنماذج القديمة على كل من حاول الاندفاع في التأليف
أو نحو نحو التجديد (٢) .

ويمكن أن نلمس بشكل واضح بداية الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين
منذ قيام الدولة العباسية ، ونشاط حركة الترجمة في عهدها . فعلى الرغم من قيام
هذه الدولة على أكتاف الفرس وازدياد التأثيرات الفارسية في نظمها الاجتماعية
فإن خلفاءها لم يغفلوا أهمية بيزنطية ومركزها في الميدان الثقافي . ومن ثم كان
الخلفاء العباسيون يرسلون في طلب بعض الكتب النادرة من بيزنطة التي لم تضر
بها ما دام ذلك في نطاق التعاون الثقافي أو تبادل المعرفة . فمن ذلك أن الخليفة أبا

(١) بدوى ، نفس المرجع ، ص ٧١ ، ٧٢

Baynes, op cit, 164-166.

(٢)

جعفر المنصور بعث إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلب كتباً يونانية ، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه وأرسل إليه كتباً من بينها كتاب إقليدس^(١) . ويرجع إلى عهد المنصور أولى المحاولات للترجمة من اليونانية ، وممن اضطلع بذلك أبو يحيى بن البطريق الذي ترجم الكتب الكبيرة لجالينوس وأبقراط . على أن كثيراً من الكتب التي ترجمت في ذلك الوقت أعيد ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون^(٢) .

واستحوذ المسلمون كذلك على كثير من الكتب اليونانية الهامة إبان إغاراتهم المتكررة على الدولة البيزنطية . فكانت إغارات هارون الرشيد على آسيا الصغرى لا تهدف إلى السلب والنهب والعودة محملة بالغنائم فحسب ، وإنما رمت كذلك إلى الاستيلاء على كنوز البيزنطيين الأدبية والعلمية ، وإفادة الدولة الإسلامية منها . وقام بمهمة ترجمة هذه الكتب التي جلبها الرشيد من حملاته على أنقرة وعمورية يحيى بن ماسويه الذي ترجم بعضها مما كان يبحث في الأمور الطبية^(٣) .

وبلغت حركة الاتصال الثقافي بالبيزنطيين أقصاها في عهد الخليفة المأمون ، الذي كان من أنصار حرية الرأي ، ومشايعاً لمذهب المعتزلة^(٤) ، الذين نادوا بأن النصوص الدينية يجب أن توافق أحكام العقل . فحدا ذلك المأمون إلى دراسة المراجع الإغريقية الفلسفية باحثاً فيها عما يمكن أن يؤيد آراءه . وأسس في بغداد سنة ٨٣٠م بيت الحكمة المشهور للأشرف على حركة ترجمة الكتب اليونانية . وكان هذا

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٠١

Hitti, op cit, 311.

(٢)

Hitti, op cit, 310,311.

(٣)

(٤) المعتزلة فرقة إسلامية فلسفية ترى أن الإيمان هو العلم ، وأن النظر العقلي من الواجبات المفروضة على المسلمين - وقد نال هذا المذهب تأييد الخلفاء العباسيين من أيام المأمون إلى عهد المتوكل .

المعهد يضم مكتبة ومجمعاً علمياً ولجنة للترجمة . ويعتبر هذا العمل خطوة جلييلة ورعاية عظيمة من المأمون لتغذية العلوم الإسلامية بشتى معارف اليونان (١) . فقد كانت حركة الترجمة حتى زمن ذلك الخليفة حرة يقوم بها أفراد من المسيحيين ، وممن اعتنقوا الإسلام حديثاً كذلك ، تحت إشراف بعض كبار رجال الدولة من محبي العلوم والفنون . ومن أمثال هذه الحركة الأخيرة الجهود الذي قام بها أبناء شاكر الثلاثة ، إذ شملوا بعنايتهم المترجمين وشجعوا كثيراً من البحوث العلمية الخاصة . ومما يشهد لهم بالذكور الحسن في هذا المضمار أنهم احتضنوا حنين بن أسحق الذي غدا شيخ المترجمين فيما بعد . وكانوا أصحاب الفضل في إظهار مواهبه ، إذ أوفدوه على نفقتهم إلى بعض البلاد التي تتكلم اليونانية ليجيد هذه اللغة وليحصل على المخطوطات القيمة المدونة بها . وكانوا يجزلون العطاء لحنين بن أسحق ، الذي كان يتناول منهم ٥٠٠ دينار شهرياً (نحواً من ٢٥٠ جنيهاً) (٢) .

ولم يغفل المأمون أهمية الاتصال الثقافي بالدولة البيزنطية وجلب المراجع الإغريقية منها . فراسل الإمبراطور ليو الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠ م) يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على المصنفات اليونانية القديمة في الفلسفة والهندسة والطب . وقبل الإمبراطور طلب المأمون الذي أوفد إذ ذاك جماعة من أشهر علماء عصره ، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة إلى القسطنطينية . فاختار هؤلاء المبعوثون ماراق لهم من المراجع وقفلوا عائدين بهذه الكنوز الثمينة إلى بغداد ، وهناك كان قسطا بن لوقا يشرف على ترجمة هذه المراجع الإغريقية (٣) . ومما يجدر بالملاحظة في هذا الصدد أن معظم الذين اضطلعوا بترجمة

Hitti, op cit, 310.

(١)

Hitti, op cit, 312,313.

(٢)

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ، ص ٢٧٣

الكتب اليونانية كانوا من السريان ، أى المتكلمين ، باللغة الآرامية الشرقية (١) .
ومن ثم كانوا يعتمدون إلى ترجمة المراجع اليونانية إلى السريانية أولاً ومنها إلى العربية ،
فكتاب الهرمنطيقا (Hermeneutica) لأرسطو ترجم أولاً من اليونانية إلى السريانية
على يد حنين ، ثم ترجمه أسحق بن حنين من السريانية إلى العربية (٢) .
ولم يكن مستغرباً أن تكون القسطنطينية قبله أنظار الخلفاء العباسيين ،
إذ شهدت الدولة البيزنطية في القرن التاسع الميلادي وهو عصر المأمون نهضة ثقافية
في الآداب والعلوم . فأحيا برادس أعظم رجال الدولة البيزنطية إذ ذاك ، والمتصرف
الحقيقي في شؤون الدولة ، جامعة القسطنطينية القديمة ، وعين لها أساتذة في الهندسة
والفلك وفقه اللغة (٣) . على أن أعظم شخصية بيزنطية في القرن التاسع الميلادي ،
هو الإمبراطور ثيوفيل . وقد عاصر الخليفة المأمون ، وكانت القسطنطينية في
عهده تنافس بغداد في الأبهة وفي حلبة الثقافة ، وكانت مدارسها وجامعتها القبلة
التي جذبت أنظار العلماء المسلمين إليها . وجهدت بغداد في استدعاء مشاهير العلماء
البيزنطيين إليها ، فمن ذلك أنه عاش في القسطنطينية في عهد الإمبراطور ثيوفيل
عالم مشهور في الرياضيات اسمه ليو ، وذاع صيت هذا العالم في الخارج ووصل إلى
الدولة الإسلامية عن طريق تلاميذه . فلما ترمى إلى المأمون نبأ هذا العالم البيزنطي

(١) دى بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، (ترجمة أبو ريدة) ص ٢١
كان السريان الوسطاء في نقل الثقافة اليونانية من الإسكندرية وأنطاكية ونشرها
في الشرق ، في مدارس الرها ونصيبين وحران وجنديسابور . وعصر ترجمتهم للكتب
اليونانية يمتد من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادي تقريباً . واشتهر النساطرة بالدقة
والأمانة في النقل ، حتى أن العرب الذين حملوا لواء الإسلام اعتبروا اللغة السريانية أقدم اللغات
وأكثرها صحة . ولذلك كان معظم الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين
الثامن والعاشر الميلادي من السريان .

Hitti, op cit, 312,313.

(٢)

Baynes, op cit, 162.

(٣)

أرسل إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بأجزال العطاء له . لكن الإمبراطور ثيوفيل علم بهذه الدعوة ، فمنح ليو وظيفة معلم في إحدى كنائس القسطنطينية ، وقرر له راتباً شهرياً . على أن حرص المأمون على هذا العالم البيزنطي دعاه إلى إيفاء رسالة شخصية إلى الإمبراطور يطلب فيها السماح بإيفاء ليو إلى بغداد لمدة قصيرة ، وذكر في رسالته أنه يمد قبول الإمبراطور هذا الطلب عملاً ودياً ، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم . غير أن ثيوفيل رفض إجابة طلب المأمون ، ولا سيما أن الدولة البيزنطية اعتبرت علم ليو واختراعاته التي كان يقوم بها من الأسرار التي ينبغي ألا يطلع عليها المسلمون^(١) .

وتبادل العلماء المسلمون والبيزنطيون كذلك الزيارات لمشاهدة الآثار ذات القيمة التاريخية في بلديهما ، ومنحت السلطات في كل من الدولتين أولئك العلماء جميع التسهيلات لأداء مهمتهم . فأرسل الخليفة الواثق سنة (٧٤٢ — ٨٤٧ م / ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) أحد العلماء المسلمين إلى مدينة إفيسوس لمشاهدة الكهوف التي كان محفوظاً فيها جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام دقلديانوس ، وأذن الإمبراطور ميخائيل الثالث للعالم الإسلامي بالقيام بهذه الزيارة كما أوفد معه رجلاً يؤدي مهمة الدليل^(٢) . ولم ينقطع الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين حتى القرون الأخيرة من حياة الإمبراطورية البيزنطية . فيذكر بسلوس (Pselus) أحد المؤرخين البيزنطيين ، ومن مشاهير فلاسفة الدولة ، وأعظم رجال السياسة في البلاط في القرن الحادي عشر الميلادي ، أن طلاباً من المسلمين تعلموا على يديه وكان من بينهم طالب من العراق نفسها^(٣) .

(1) Bury, The Eastern Empire, 336-438.

(2) Byzantium, 319,

(3) Runciman, opcit, 292.

صدى الأحداث السياسية في آداب الدولتين

إذا كانت الاتصالات الثقافية بدت سحب الأوهام المخيمة على عقول المسلمين والبيزنطيين وجعلت كلا منهما ينظر إلى صاحبه بمنظار صادق جلي ، فإن أحداث حروبهما وكذلك دوى حركتهما المحلية تردد صداها في آداب الدولتين وفلسفتيهما في الحياة . فأدت الاصطدامات المسلحة بين الطرفين إلى امتلاء آدابهما بالقصص والأشعار التي تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالأقدام والمغامرة ، وأضحى كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء أعمال مدهشة . فلراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبد الله البطل وتمجد مغامراته في حروبه ضد البيزنطيين . وكان هذا المغامر المسلم كبير حراس مسلمه بن عبد الملك الذي حاصر القسطنطينية سنة ٧١٧ م . فقد أبدى عبد الله البطل من ضروب الأقدام والشجاعة ما أكسبه لقب بطل الإسلام . وظل على جهاده حتى استشهد في معركة اكرونيون بأسيا الصغرى ، سنة ٧٤٠ م (١) .

وكذلك خللت الأشعار البيزنطية أعمال أبطالها الذين لقوا حتفهم في الحروب ضد المسلمين . فوضعت ملحمة تشيد ببطولة أحد الأشخاص ويدعى ديجينيس اكريتاس (Digenis Akritas) . وكان والده هذا المغامر مسلماً تحول إلى المسيحية ودخل خدمة الدولة البيزنطية . وقام ديجينيس نفسه بغارات سلب ونهب على أطراف الحدود الإسلامية في القرن الثامن الميلادي خارج نطاق الجيوش البيزنطية النظامية ، وإن كان قد ساهم في بعض الأحيان في العمليات الحربية لهذه الجيوش . وتصور هذه الملحمة كثيراً من الوقائع وحياة المحاربين على الحدود الإسلامية البيزنطية .

(1) Byzantium, 319,320.

ومن الطريف أنه حدث خلال تلك الإغارات المتكررة زواج بين أفراد الدولتين ، وأن الاتصال بينهما لم ينقطع رغم نشوب العداء . على أن ديجينيس لقي حتفه في آسيا الصغرى سنة ٧٨٨ م ، ودفن هناك حيث يوجد قبره بالقرب من مدينة عيساط (١) .

وتعتبر ملحمة ديجينيس اكريتاس وغيرها من ملاحم البطولة البيزنطية مصدراً غنياً عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والإسلام . وفوق ذلك تردد صدى أحداث إغارات المسلمين على بيزنطة في القرن التاسع الميلادي في الأغاني الشعبية التي دارت حول أحداث مناطق الحدود . ففيها تصوير لانتصارات المسلمين ولا سيما غارة عمورية وتخريبها على يد المعتصم سنة ٨٣٨ م / ٢٢٣ هـ (٢) .

وسجل الشعراء المسلمون أيضاً أبناء حروبهم وانتصاراتهم على البيزنطيين . ففي عهد الرشيد نرى الشعراء يجدون انتصاراته ويشيدون ببطشه وشدة انتقامه من الأعداء (٣) . كذلك صور الشعراء المهيم من إغارة الإمبراطور ثيوفيل على زبطرة سنة ٨٣٧ م ، وأهلبوا ببيانهم المهيم للأخذ بالثأر (٤) . فخرج المعتصم للانتقام وخرّب عمورية ، التي خلد ذكر حملتها الشاعر المشهور أبو تمام في إحدى قصائده

Runciman, op cit, 182,292. (١)

Byzantium, 320. (٢)

(٣) ومن ذلك قول أبي العتاهية حين خرب هارون الرشيد مدينة هرقلّة انتقاماً من

الإمبراطور ققفور الأول :

ألا نادى هرقلّة بالحراب	من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا	ويبرق بالمذكّرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها	تمر كأنها قطع السحاب

(٤) فقد دخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم وأنشده قصيدة يذكر فيها ما حل بزبطرة

من نكبات :

يا غارة الله قد عاينت فاتمهي	هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على إجرامها قتلت	ما بال أطفالها بالذبح تنتهب ؟

الرائعة (١) . على أن عصر الحمدانيين في شمال الشام يمدنا بالأدلة الواضحة على أثر الحروب الإسلامية البيزنطية في الأدب الإسلامي ، إذ اشتهر سيف الدولة الحمداني بإغاراته المتكررة على أرض البيزنطيين ، كما اشتهر بمجالس الأدب التي عقدها ، والتي أنشدت فيها قصائد المتنبي (٢) وأبي فراس الحمداني (٣) تمجيداً لبطولته وبسالته في الحروب . وضمت هذه المجالس الأدبية كذلك ابن نباته (المتوفى سنة ٩٨٤م) ذلك الخطيب البليغ . فكان لعظاته ذات الفقرات التي صيغت في قالب من السجع أثر كبير في إثارة حماس مستمعيها وحثهم على الاشتراك في الجهاد ضد البيزنطيين .

ويلاحظ في استعراض آداب الدولتين أن كثيراً من الكلمات العربية انتقلت إلى اليونانية . وكذلك دخلت كلمات يونانية اللغة العربية نتيجة الاتصال المتبادل . ولكن هذه الكلمات المنقولة سواء العربية منها أو اليونانية أخذت صوراً محرفة بدرجة يصعب معها معرفة الأصل الحقيقي للكلمة . على أننا يمكن أن نتلمس أثراً لمثل هذه الكلمات المنقولة وتعريفها في التراجم الأولى التي قام بها المسلمون . فعندما اعترضت المترجمين قطعة صعبة ، عمدوا إلى ترجمتها حرفياً ، فإذا لم يجدوا مرادفاً عربياً نقلوا اللفظ اليوناني بحروفه مع إدخال شيء من التغيير عليه (٤) . ومن ذلك

(١) ففي هذه القصيدة يقول أبو تمام:

السيف أصدق إبناء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) قال المتنبي يصف انتصار سيف الدولة في إحدى إغاراته وقتله الأعداء :

بناها على والقنا تقرر القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تائم

(٣) قال أبو فراس الحمداني يصف حملة لسيف الدولة أسر فيها شخصية بيزنطية كبيرة :

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزرازر
وولى على الرسم الدمستق هاربا وفي وجهة عنذر من السيف عاذر

(٤) De Lacy O'Leary, How Greek Science Passed to the Arabs, 160.

كلمات « أرتماطيقى » حساب ، و « جومطريقى » هندسة . . . الح ، التى ترى فى التراجم العربية الأولى .

وليس أدل على يرديد الحركات الداخلية فى الدولتين مما كان صدئ لآثار الاتصال الثقافى بينهما من المشككة اللايقونية ، التى ظهرت فى الدولة البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى . فـيتمجلى فى هذه الحركة مبلغ التأثير الإسلامى فى تفكير الإمبراطور ليو الثالث ، الذى أشعل فتيلتها الأولى . فىلى جانب الأسباب الساسية التى دفعت ذلك الإمبراطور إلى تحريم عبادة الصور والإيقونات ، وإصداره المرسوم المشهور سنة ٧٢٦ م ، كان للديانة الإسلامية وجالياتها العديدة فى أرض الدولة البيزنطية أثر كبير على هذه الحركة . فالمسلمون يحرمون تقديس الصور وأشباهاها من مخلفات القديسين ، ونشأ الإمبراطور ليو وقضى حياته الأولى فى بيئة إسلامية يسودها هذا الاعتقاد .

ويبدو أن مسألة تقديس الصور كانت شائعة كذلك عند المسيحيين التابعين للدولة الإسلامية . ذلك أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى سنة ٧٢٣م/ ١٠٤ هـ بكسر الصلبان وإزالة الصور والتماثيل من كنائس المسيحيين فى الدولة الإسلامية . ويلاحظ أن هذا القرار صدر قبل منشور الإمبراطور ليو بثلاث سنوات (١) . على أن الدولة الأموية لم تكتم بذلك العمل حرية رعاياها المسيحيين فى الاعتقاد بأهمية الصور . فى عهد الخليفة يزيد نفسه قام حنا الدمشقى ، أعظم رجال الكنيسة الشامية التابعة للدولة الإسلامية بالرد على سياسة الإمبراطور «ليو» اللايقونية . وكتب ثلاث مقالات مشهورة ردّ فيها على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة ، وغدت هذه المقالات سلاحاً ماضياً فى أيدي البيزنطيين الذين دافعوا

(1) Byzantium, 316.

عن الإيقونات (١) .

أثر النظم البيزنطية في تكوين الدولة الإسلامية

لم يقتصر المسلمون على التزود من معين الثقافة اليونانية والإفادة منها فحسب ، وإنما أخذوا عن البيزنطيين كذلك ثمار تجاربهم الطويلة في ميدان النظم الإدارية والحربية . ويلاحظ أن موقف الدولة الإسلامية في هذا الصدد كان سلبياً ، إذ حافظت على النظم الإدارية في ولاياتها التي كانت خاضعة من قبل للبيزنطيين ، وأبقت في المرحلة الأولى من الفتوح على هيئة العمال التي خدمت البيزنطيين (٢) . ولم يجد الحكام المسلمون غضاضة في الاستعانة بخبرة عمال يجلبونهم من بيزنطة نفسها ؛ حتى إنه يمكن القول أن الدولة البيزنطية ساهمت بنصيب كبير في بناء الحضارة الإسلامية . وهذه الروح الإسلامية الواسعة الأفق هيأت للمسلمين إمبراطورية زاهرة يسود رقعتها الهدوء والنظام ، وتحلى جنباتها العمائر والمنشآت . وتتجلى في مصر والشام عناية المسلمين في الاحتفاظ بالأوضاع البيزنطية واتخاذها أساساً لإدارتهم . فظلت الوظائف الإدارية في مصر تسير على النهج البيزنطي ،

(١) حنا دمشق أحد العلماء المسيحيين البارزين في ميدان الثقافة اليونانية . ورغم أنه لم يكن يونانياً ، وإنما كان سورياً يتكلم الآرامية ، فإنه كان يجيد اللغتين اليونانية والعربية ، وكتب بهما . وكانت أسرة حنا من المخلصين للدولة الإسلامية ، فكان منصور بن سرجيون جد حنا ممن سهل للمسلمين فتح مدينة دمشق ، وتولى إدارة الشؤون المالية لهذه المدينة زمن الفتح العربي . وتولى والد حنا هذا المنصب كذلك ، وكان حنا نفسه نديماً ليزيد بن معاوية . ووضع حنا كتباً في العقيدة المسيحية والجدل القائم حولها ، وكذلك في التاريخ والفلسفة ، وفي الخطابة والشعر . ويعتبر حنا بفضل هذه المؤلفات أشهر رجال الكنيسة المسيحية التابعة للدولة الإسلامية .

De Lacy O'Leary, How Greek science passed to the Arabs, 135, (٢)

Hitti, op cit, 246.

ذلك أن مهام الحاكم البيزنطي العام الذي أطلق عليه سيمبولوس (Symboulos) غدت في أيدي عامل إسلامي لقب بالأمير ، وكان يشرف على شئون الوجهين البحري والقبلي كما فعل سمييه أيام السيادة البيزنطية . وساعد هذا الأمير في أعماله كاتب عن كل قسم من قسمي الدولة عرف باسم «صاحب» وهو ما يردف Chartularius في اللغة اليونانية . كذلك قسم الوجهان إلى « كور » كانت هي الأقاليم التي عرفت في العهد البيزنطي باسم Pagarchies . وكان المهيمن على شئون الكورة يدعى «صاحب الكورة» وهو مرادف للكلمة Pagarchos . وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية ، فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعي الضرائب وممتلكاتهم ، وكذلك أرباب المهن والحرف . وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى الذين عرفوا في العهد البيزنطي باسم موزايت (Mezones) ، وبعد أن تنتهي السلطات المحلية من إعداد السجلات كانت ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمد عليها السلطات العليا هناك ^(١) .

أما في الشام فقد احتفظ المسلمون بالتقسيم الإداري الذي كان سائداً من قبل زمن البيزنطيين ، وكان هذا النظام ذا طابع خاص يجمع فيه حاكم الإقليم إلى جانب مهامه المدنية سلطات حربية . فأبقى المسلمون على هذا الوضع وأطلقوا على الأقسام إسم الأجناد (جمع لكلمة جند) ، وهي تسمية مشتقة من كلمة جند أو فرق الجيش التي كانت تحت تصرف حاكم الإقليم . وبذلك أضحت الأقسام الإدارية بالشام كما يلي :

١ — فلسطين الأولى « Palestina Prima » ، التي كانت تشمل الهضبة اليهودية ، أطلق عليها جند فلسطين وصارت عاصمته « الرملة » .

(١) Bell, Greek Papyri in the British Museum, iv, 17,18,
Nabia Abbott, The Kurrah papyri, 99,100.

سيده إسماعيل كاشف ، مضر في فجر الإسلام ، ص ٢٨ ، ٢٩

- ٢ — فلسطين الثانية « *Palestina Secunda* » ، التي كانت تضم
الجليل والجزء الغربي من البتراء صارت جند الأردن وعاصمته « طبرية »
- ٣ — فلسطين الثالثة « *Palestina Tertia* » ، التي كانت تضم البتراء العربية
دخل جزء منها في جند دمشق وجزء آخر في جند فلسطين .
- ٤ — فينيقيا الأولى « *Phoenicia Prima* » وفينيقيا الثانية أو لبنان
« *Ad Libanum* » أصبحت تكون جميعاً جند دمشق الكبير .
- ٥ — سوريا الثانية « *Syria Secunda* » ، وهي الجهات الواقعة شمالى جند
دمشق قسمت بين جند حماه وجند حمص .
- ٦ — سوريا الأولى « *Syria Prima* » ، أصبحت جند حلب أو جند
قنسرين^(١) .

على أن المسلمين أثروا بدورهم في نظم الدولة البيزنطية الإدارية ، كما تجلى أيام
أسرة الإمبراطور « هرقل » . فقد أدى قيام الدولة الإسلامية إلى جوار
الإمبراطورية البيزنطية ، وهجومها المتواصل على أراضيها إلى تدعيم النظم الجديدة
التي وضع أسسها هرقل للاحتفاظ بما تبقى من إمبراطوريته . فبعد سقوط الشام
في أيدي المسلمين وتراجع جيش هرقل إلى آسيا الصغرى ، غدا هذا الأقليم محط عناية
الأباطرة لمواجهة لهجمات الإسلامية المتكررة ، ولأنه أصبح أهم مورد للدولة
تجند منه جيوشها ، وتجي منه ثروتها . ولذلك اقتضى الدفاع عن آسيا الصغرى أن
تكون بلادها على تمام الأهمية في أى وقت لصد الإغارات الإسلامية . فوزع
الأباطرة فيالق (Themata) من الجيش^(٢) على جهات من آسيا الصغرى تمسك

Le Strange, Palestine under the Muslims, 26. (١)

Bury, History of the later Roman Empire II, 248. (٢)

أنظر ص ٣٩ حاشية ٣ من هذا الكتاب لمعرفة أصل هذا النظام الذى اكتمل على عهد
أسرة هرقل والأسرة الإيسورية .

فيها بصفة دائمة . ولترغيب الجند في الاستقرار بأما كنهم منحهم الإمبراطورية قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها . كذلك منح قائد الفيلق في الإقليم سلطات مدنية واسعة . وبذلك أضحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية يقيم بكل منها فيلق من الجيش (Thema) ، ويجمع قائد ذلك الفيلق في يده أعباء الحاكم المدني فضلاً عن مهام الأشراف على الفيلق نفسه . وبالتدرج أعطت الفرق الحربية أسماءها للأقاليم التي أقامت فيها^(١) . ويطلق « المسعودي » على هذه الأقاليم البيزنطية اسم « البُنود » . وربما جاءت تلك التسمية من الرايات أو البنود التي اتخذتها الفيالق في الأقاليم شعاراً لها .

وقد عقد المسعودي مقارنة بين بنود الدولة البيزنطية وأجناد الشام قائلاً : « أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب ، مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسماً : أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال : أجناد الشام ، كجند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول^(٢) » .

النظام الحربي

منذ أن اشتبكت القوات الإسلامية بالجيوش البيزنطية في الشام وقادة المسلمين يعملون على اقتباس أساليب البيزنطيين في القتال وفي تعبئة جندهم . ولم يبدأ العصر الأموي إلا وقد كانت جيوش الدولة الإسلامية تسير وفق القواعد الحربية البيزنطية فقسمت وحدات الجيش خمسة أقسام : قلب وجناحان ومقدمة ومؤخرة ، وتشابه جنود المسلمين والبيزنطيين في الزي والدروع . وكانت نفس السروج التي يضعها

Runciman, op cit, 88.

(١)

(٢) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٥٠

المسلمون على جيادهم بسيطة مدورة على نسق السروج البيزنطية . كذلك استخدم كل منهما من آلات الحرب الثقيلة العرادة والمنجنيق والدبابة أو الكبش .
واتبع العباسيون الأساليب البيزنطية كذلك في تقسيم فرق الجيش ولا سيما في عهد المأمون والمستعين . فكل عشرة جنود كانت تحت قيادة « عريف » وهو « الديكريون » (decurion) في الجيش البيزنطي ، وكل خمسين عريفاً تحت قيادة خليفة ، وكل مائة خليفة تحت إشراف قائد وهو « الكنتريون » (Centurion) في النظام البيزنطي . وكانت كل عشر فرق — وتعدداها عشرة آلاف — تحت إمرة أمير (جنرال) ، وقد سميت هذه الفرق المجتمعمة باسم « كرددوس ^(١) » .
وكانت مقدرة الجيوش الإسلامية على التحرك سريعاً وتعبئة قواتها في وقت قصير من الأمور التي كفلت لهم التفوق على البيزنطيين . وأثنى أباطرة الدولة البيزنطية على حسن نظام الجيوش الإسلامية ودقة خططها وإحكامها . فوصف الإمبراطور قنسطنطين بورفيروجنيتوس (Constantine Porphyrogenetus) (٩١٣ — ٩٥٩ م) شجاعة المسلمين قائلاً : إنهم مغامرون ميالون إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتل موضعاً غداً من المستحيل إخراجهم منه ، وإنهم يحبون ركوب الإبل ويفضلونها على الخيول ^(٢) . وكان البيزنطيون كذلك يدونون ملاحظاتهم على سلوك الجند الإسلامي والأحوال التي تعرقل حركاتهم . فكان المحارب المسلم يمتق الجو الممطر البارد ، وإذا كسرت خطوطه الدفاعية فقد التعاون وساده الاضطراب ^(٣) . ولكن رغمًا عن ذلك تفيض الكتب التي دونها البيزنطيون عن حروبهم مع المسلمين بتمجيد المحارب المسلم وعلو روحه المعنوية .
أما عن الأسطول الإسلامي فكان مشابهاً تماماً للأسطول البيزنطي . وأوضحت

(1) Hitti, op cit, 226,328.

(2) Ibid, 329.

(3) Ibid, 329.

لنا أوراق البردى التي كشفت في السنوات الأخيرة مدى استعانة المسلمين ببحيرة أهالي البلاد المفتوحة في بناء الأساطيل . وكانت مصر هي العمود الفقري للأسطول الإسلامي ولا سيما في عهد الأمويين . فقد زودت الدولة الإسلامية بالسفن والعتاد والرجال والمؤن ، كما تجلت مواهب المصريين البحرية التي وضعوها في خدمة المسلمين في نيل الانتصارات الباهرة المبكرة التي أضيفت إلى قائمة الفتوحات الإسلامية . ولا غرابة أن يكون المصريون وأهل الشام عصب الأسطول الإسلامي ، وقادته الذين ساروا به إلى الفوز والفلاح ؛ فقد مررنا على أساليب حياة البحار وفنون القتال فيه منذ تبعيتهم للدولة البيزنطية ، وللدولة الرومانية الكبرى كذلك من قبل .

وبنيت السفن الإسلامية على الطراز البيزنطي ، وكانت غالباً ذات طابقين : الأسفل مخصص للجذافين ، والأعلى للمقاتلة . وكان على ظهر كل سفينة عدد من المراسي يقال لكل منها أنجور ، وهو نفس اللفظ اليوناني . ولاحظ البيزنطيون أن المسلمين يميلون إلى الضخامة في بناء سفنهم ، ولكن شهدوا يبراعها في القتال . وكانت المعارك البحرية نادرة الوقوع في عرض البحر ، وإنما جرت بين الطرفين قرب الموانئ والأجزر . وغدا البحر الأبيض المتوسط في القرن العاشر الميلادي ميداناً اصطدمت فيه سفن المسلمين بالبيزنطيين ؛ ووصف الأستخري حالة البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك قائلاً : « وليس في البحار أحسن حاشية من هذا البحر فإن العمارات في الجانبين ممتدة غير متقطعة . . . وتتردد فيه سفن المسلمين والروم ، يعبر كل فريق إلى جانب الآخر سواء فيغنمون ، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم في السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك ، فيكون حربهم في الماء ، وهذه صفة هذا البحر وما يكون فيه ^(١) » .

(١) الإصطخري ، المسالك ، ص ٧١

تبادل الزيارات

ساعد المسلمين على تنظيم أحوالهم الإدارية تلك الخبرات والتقارير التي كان يدلي بها رجالهم الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية . ويلاحظ في هذا الصدد تفوق المسلمين على البيزنطيين في ميدان الرحلات وتدوين تقارير عن مشاهداتهم . فلم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات ، وتفتقر كتبهم إلى أوصاف المدن الإسلامية وأحوالها . ولكن على النقيض من ذلك تفيض كتب المسالك التي وضعها الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى بشرح الطرق المؤدية إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى عاصمتها ، والمحطات الممتدة على هذه الطرق . واستمد أولئك الجغرافيون معلوماتهم من المسلمين الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية وكانوا موضع ثقة وأهل خبرة ودراية . ومعظم المسلمين الذين دونوا أوصافاً لأحوال الدولة البيزنطية من كبار الأسرى ، الذين حملتهم السلطات البيزنطية إلى العاصمة . فمن ذلك أمسنا « مسلم بن أبي مسلم الجرمي » أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم في فداء سنة (٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) بقائمة عن التقسيمات الإدارية للدولة البيزنطية التي تسمى « البنود » ، كانت المادة الأساسية التي بنى عليها جغرافيو المسلمين معلوماتهم في هذا الصدد (١) .

كذلك كان أول رحلة مسلم وصف القسطنطينية هو « هارون بن يحيى » أحد الأسرى الذين نقلوا إلى القسطنطينية ، في عهد الإمبراطور باسل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) ، أو الإمبراطور إسكندر (٩١٢ — ٩١٣ م) . فوصف طريق البحر الذي حمل فيه إلى القسطنطينية ، كما وصف ما رآه بعينه فيها من الأبواب والملعب والقصر الإمبراطوري . ووصف أيضاً موكب الإمبراطور

(١) انظر ص ٩٨ من الكتاب

إلى الكنيسة وما بالعاصمة من أديرة . ويمدنا وصف « هارون » بمعلومات جلييلة عن طبوغرافية القسطنطينية مما أفاد منه المسلمون كثيراً^(١) .

وتتجلى أوضح مظاهر تبادل الطرفين الزيارات في السفارات التي كان يوفدها كل فريق لعقد هدنة أو صلح أو إجراء مفاوضات لإطلاق سراح الأسرى . وكان يتولى مهمة الإشراف على هذه السفارات ديوان الإنشاء في الدولتين ، وهو أشبه بوزارة الخارجية في المصطلح الحديث . وكان صاحب ديوان الإنشاء (أو وزير الخارجية) يزود السفير بتعليماته ويلقنه ما يجب عليه مراعاته في أثناء زيارته للبلد المتوجه إليها ؛ كل ذلك وفق قواعد مقررة ونظم مرعية لاستقبال السفراء . ودونت هذه التعاليم في مرجع بيزنطي هام لا يماثله أى مؤلف عربي ، ويسمى كتاب المراسيم « De Ceremoniis » ؛ وينسب هذا الكتاب إلى الإمبراطور « قسطنطين السابع » الملقب « برفيروجينيتوس » ، وشرح فيه لابنه التقاليد (أو البروتوكول) الواجب اتباعها في البلاط البيزنطي .

على أنه لم يكن للدولتين ممثلون دائمون أو دور سفارات في الخارج على نحو ما هو معروف في العصر الحديث^(٢) ، وإنما أوفدت الدولتان عمالا مخصوصين يؤدون مهمة السفراء عندما تقتضى الظروف ، ويختارون من الضليعين في اللغتين اليونانية والعربية . وكان أولئك السفراء يضعون تقارير تحفظ في ديوان الإنشاء وعلى هديها تحدد الدولة سياستها الخارجية^(٣) . والعادة المتبعة في هذه السفارات سواء الإسلامية أو البيزنطية أن تخرج على رأس قوافل محملة بالمهدايا الثمينة والمجوهرات لولى البلاد وبعض كبار رجال دولته^(٤) . وحالما يصل السفير إلى العاصمة سواء

(١) انظر الملاحق ١ .

Runciman, op cit, 156.

(٢)

Baynes, op cit, 74.

(٣)

Runciman, op cit, 158.

(٤)

بغداد أو القسطنطينية يلقن آداب مقابلة ولى البلاد وأساليب التحية التقليدية ،
ويحدد له يوم للتشرف بمقابلته .

وكان موظفو ديوان الإنشاء يجتهدون في منع السفير من الاتصال بأى شخص
أومقابلة أحد من رجال الدولة لا ترغب السلطات في اجتماعه بالسفير . ويوضع السفير
كذلك ، دون أن يشعر ، تحت رقابة شديدة حتى يعود إلى بلاده دون أن يرى شيئاً
أو يطلع على أمر لا تود السلطات كشفه له^(١) . على أن السفير كان يحاول في
فترة الاستعداد للمقابلة اكتساب صداقة أصحاب النفوذ والحظوة في البلاد . فمن
ذلك أن السفير البيزنطى « نقفور أورانيوس (Nicephorus Uranius) » عندما
أوفد إلى بغداد سنة ٩٨٠ م زود بتعليقات تنصحه بخطب ود عضد الدولة أعظم
شخصية في الدولة الإسلامية حينئذ^(٢) . وعندما يحين يوم المقابلة يجلس الخليفة
أو الإمبراطور في أبهى حلة في قاعة الاحتفالات مستقبلاً السفير الذى يخصص له
غالباً مكان ممتاز عن سائر سفراء الوفود الأخرى . ذلك أن سفراء الدولتين
الإسلامية والبيزنطية كانوا يعاملون طبقاً للراسيم معاملة ممتازة ويقدمون على
سفراء الدول الأخرى . ويوضع للسفير برنامج خاص يقف به على مظاهر العظمة
والأبهة في الدولة ؛ فأحياناً يقام له عرض عسكري شامل تعرض فيه الدولة قوتها
الحربية ، أو يقوم السفير بمشاهدة معالم العاصمة ووسائل الترفيه فيها . ويظل السفير
طوال إقامته ضيفاً على البلاط .

فمن أمثلة البرامج التى أعدتها الدولة الإسلامية لسفراء بيزنطة ما حدث في
سنة ٩١٧ م / ٣٠٥ هـ حين استقبل الخليفة المقتدر في قصره سفير الإمبراطور
قسطنطين السابع . فقد أمر الخليفة بعرض الجند على جانبي الطريق الذى يسير

(1) Runciman, op cit, I57.

(2) Ibid, I58.

فيه السفير ، وبلغ عدد من اشترك في هذا العرض نحو من مائة وستين ألف فارس . ثم أخذ السفير يطوف بالقصر ويشاهد ما به من خزائن الثياب والسلاح ، واستعرض كذلك دور الوحوش التي كان من بينها دار فيها أربعة فيلة مزينة ، ودار أخرى بها مائة سبع ، وانتهى السفير إلى دار يقال لها دار الشجرة ، أعجبتة أكثر من غيرها من المشاهدات . فكان في هذه الدار شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، السكل غصن أهداب كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها ذهب ، وهي تمايل في أوقات لها ، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وعندما حان ميعاد المقابلة دخل السفير على الخليفة الذي كان جالساً على سرير في « قصر التاج » ، لابساً الثياب المطرزة بالذهب وحوله عقود من الأحجار الكريمة . وبعد أن انتهت المقابلة خرج السفير إلى دار الضيافة بالقرب من القصر (١) .

أما الدولة البيزنطية فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفير لرؤية كنيسة أيا صوفيا ، وقناطر المياه والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التي كانت تقام في الملعب (Hippodrome) (٢) . وكان مظهر السفراء المسلمين يتم على اعتداد بالنفس وحرص على عدم غض الطرف عن أي مظهر يحتمل أن يحط من قدرهم أو من شأن دولتهم . ففي سنة (٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) بعث الخليفة المتوكل سفيراً يدعى « نصر بن الأزهر » إلى القسطنطينية إجابة لطلب الإمبراطور « ميخائيل الثالث » للاتفاق على إجراء فداء بين الأسرى . وحين

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٠٠ — ١٠٥

(٢) انظر الملاحق ، ص ١٧٩

وصل السفير الإسلامي إلى البلاط البيزنطي كان متشعراً بالملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة ، اللباس الرسمي للعباسيين ، ومتمنطقاً سيفاً وخنجرأ . فأبى القائم بأمور الإمبراطور (أو وزير الخارجية) ، وكان إذ ذاك بتروناس عم الإمبراطور ، أن يسمح للسفير بالدخول قاعة الاستقبال على هذه الهيئة ، وأبدى اعتراضه بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف . على أن النخوة أو الحمية دبت في نفس السفير الإسلامي وغضب وهم راجعاً . فاضطر رجال الدولة البيزنطية إلى ملاطفته حتى عاد إلى البلاط ودخل على الإمبراطور حيث قدم له الهدايا . ويروى لنا السفير ما حدث له وما رآه في البلاط البيزنطي في هذه الصورة الطريفة : « . . . وأبوا أن يدخلوني بسيفي وسوادي ، فقلت أنصرف ، فانصرفت ، فرددت من الطريق ومعي الهدايا نحواً من ألف ناجحة مسك وثيراب حرير وزعفران كثير وطرائف وحملت الهدايا التي معي فدخلت عليه (أي الإمبراطور) ، فإذا هو على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه ^(١) » .

وكان مع الإمبراطور ثلاثة مترجمين كانوا ينقلون حديث السفير ، الذي تجلت كياسته ومهارته حين حذر المترجمين من الإطناب في نقل الكلام قائلاً لهم : « لا تريدوا على ما أقول شيئاً ^(٢) » . وعندما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الأسرى ، أقسم كل منهما على الوفاء بتعهداته . فأقسم بتروناس نيابة عن الأمبراطور ، وهنا تظهر لبقاقة السفير الإسلامي مرة أخرى حين التفت إلى الأمبراطور وقال : « أيها الملك قد حلف لي خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ! » فأجاب الأمبراطور برأسه نعم . وعلق السفير على ذلك بقوله : « ولم أسمع (أي

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦١

الامبراطور) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها ، وإنما يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول برأسه نعم أو لا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره (١) .

السياسة الدينية

من الأمور التي اضطلعت بها بعض السفارات التي تبادلتها الدولتان الإسلامية والبيزنطية حمل السلطات الحاكمة في الدولتين على إعادة النظر في بعض قرارات تفرض على اتباع دين من الأديان من رعاياها اتخاذ سمة خاصة بهم . على أن هذه المعاملة الدينية التي لجأت إليها الدولتان أحياناً لم تقم على نوع من التعب الديني بين المسلمين والمسيحيين ، وإنما استهدفت كل دولة من وراء هذه القوانين الدينية التي فرضتها خدمة مصالحها السياسية والحصول على امتيازات أدبية . فلمعروف أن أولى الأمر في الدولة الإسلامية عاملوا رعاياهم من غير المسلمين على هدى تعاليم الدين الإسلامي السامية التي تنص على أن لا إكراه في الدين . وتجلت روح التسامح الديني في الدولة الإسلامية في المعاملة الحسنة التي تمتع بها المسيحيون بصفة خاصة ، وما وصل إليه كثير منهم من مراتب عالية في الإدارة الإسلامية .

كذلك عاملت الدولة البيزنطية المسلمين الذين وفدوا إليها معاملة ممتازة تكشف عما كانت تكنه للدولة الإسلامية وجالياتها من احترام وتقدير . وهذه السياسة فريدة في تاريخ الدولة البيزنطية الديني ، إذ عاملت الدولة البيزنطية من قبل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهب الدولة الرسمي على أنهم « هراطقة » خارجون على قوانين الدولة ويستحقون أشد أنواع التنكيل والتعذيب . غير أن هذه السياسة البيزنطية الدينية اتخذت لونا آخر بظهور دولة الإسلام ،

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها . فاعتبرت الامبراطورية البيزنطية نفسها القوة المسيحية الكبرى التي وكل إليها رعاية المسيحيين في بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم . ويبدو أن أولئك الرعايا المسيحيين نسوا ما لاقوه من تعسف الدولة البيزنطية واضطهادها من جراء الخلاف المذهبي الذي ساد بينهم قبل ظهور الاسلام ، إذ اعتبر المسيحيون بطريق القسطنطينية الملاذ الذي يتوجهون إليه إذا ما مسهم ضر أو إجحاف . على أن الدولة الاسلامية لم تلجأ إلى العنف في معاملتها المسيحيين إلا في حالات خاصة نادرة تجلى فيها ميلهم إلى تأييد حركات الدولة البيزنطية الحربية في أرض المسلمين . ويلاحظ أن عناصر مسيحية أجنبية عن رعايا الدولة الاسلامية المسيحيين هم الذين تسببوا في كثير من الأحيان فيما نزل باخوانهم في الدين من تدابير عقابية . ومهما يكن من أمر ذلك فإن أشباه هذه القوانين كانت طارئة عارضة ، ولم يستمر العمل بها إلا فترة قصيرة . واستعراض بعض هذه الأمثلة النادرة من المعاملة يوضح الملاحظات السابقة ويبين مدى ما كانت تهدف إليه من النواحي السياسية البعيدة عن التعصب الديني .

فكان المسيحيون طوال العصر الأموي موضع عطف الخلفاء ورعايتهم ، إذ تزوج معاوية من مسيحية على المذهب يعقوبي ، تسمى ميسون ، وهي أم يزيد خليفة معاوية . وكان الأخطل شاعر البلاط يدخل على معاوية وينشده القصائد والصلب يتدلى من عنقه . وكان القديس حنا الدمشقي نديما ليزيد بن معاوية ، قبل أن ينصرف في عهد الخليفة هشام (٧٢٥ — ٧٣٤ م) إلى حياة الزهد والتنسك . ويعطينا القديس حنا مثالا على أن الدولة الاسلامية في النواحي الدينية رمت إلى مضايقة الدولة البيزنطية وتوسيع هوة الخلاف بين رعاياها . فعندما اشتدت السلطات البيزنطية في القرن الثامن الميلادي في معاملة أتباع الصور المقدسة والإيقونات نجد القديس حنا الدمشقي يعارض هذه السياسة البيزنطية . فكتب

في ظل الخلافة الاسلامية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعا عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها ، حتى أن المجمع اللايقوني في سنة ٧٥٤ م اتهم حنا بأنه يميل إلى الاسلام . ومما يدعم الحقيقة السالفة أن الدولة الاسلامية سمحت لحنا الدمشقي بالدفاع عن الايقونات في فترة كانت هي نفسها تناهض حركة تقديس الايقونات في كنائس رعاياها المسيحيين . ففي سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، أي قبل تطبيق الدولة البيزنطية لسياستها اللايقونية بثلاث سنوات ، أمر الخليفة يزيد ابن عبد الملك بتحطيم الصليبان في كل مكان^(١) ، ونحو الصور والتماثيل من الكنائس في جميع بلاد الدولة الاسلامية . وبذلك لم تحجم الدولة الاسلامية عن تأييد أي حركة دينية فيها إزهاق للبيزنطيين ولو كانت مما لا تؤمن بها هي نفسها . وفي عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز صدر قرار يحتم على المسيحيين اتخاذ سمة خاصة بهم ، فيها شيء من الازلال . فحظر عليهم لبس العمام وطلب منهم أن يجزوا نواصيهم ، وأن يتخذوا ملابس خاصة تميزهم وأن يعقدوا الزناهير (أي الأحزمة الجلدية) على أوساطهم ، وألا يتخذوا السروج لدوابهم^(٢) . ولا يعرف السبب الحقيقي الذي حمل هذا الخليفة التقى على اتخاذ مثل هذه التدابير ، ولكن من المحتمل أن عمر اضطر إلى ذلك العمل إزاء فشل المسلمين في حصارهم المشهور للقسطنطينية (٨١٧ / ٨١٨ م) . فرما أبدى المسيحيون نوعا من الشماتة أو الابتهاج حملت السياسة الاسلامية على انتهاج هذه المعاملة ، ولكن مما يدل على أن هذه الاجراءات اتخذت لأسباب طارئة أنها لم تدم طويلا ، إذ أباح العمال المسلمون للمسيحيين في الولايات الاسلامية العودة إلى حالتهم الأولى .

على أن هذه المعاملة العارضة لم تؤثر في العلاقات العامة للدولتين ، إذ ليس أدل

Byzantium, 316.

(١)

(٢) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٢٥ ،

Hitti, op cit, 234.

على احترام كل من الدولتين لديانة الأخرى من العناية التي وجهتها كل دولة إلى ما لزميلتها من بيوت دينية بأراضيها . فسمحت الدولة البيزنطية بأقامة مسجد في القسطنطينية يقيم فيه المسلمون شعائر دينهم . وترجع الأخبار الأولى لهذا المسجد أيام حصار القسطنطينية (٧١٧ - ٨١٨م) على عهد الإمبراطور ليو الإيسوري . فيحتمل أن الدولة البيزنطية أنشأت هذا المسجد في الفترة المبكرة من علاقتها مع المسلمين ليؤدي فيه الأسرى وغيرهم من الشخصيات الإسلامية الكبرى شعائر دينهم . ذلك أن مسالمة بن عبد الملك اشترط على الإمبراطور إقامة دار خاصة بالقرب من البلاط ، ينزل بها كبار رجال الأسرى من المسلمين . والمعروف كذلك أن الدولة البيزنطية لم تذكره الأسرى على تناول لحم الخنزير أو تجبرهم على أمر يخالف السنن الإسلامية^(١) . على أن أهمية هذا المسجد واستخدام الدولة البيزنطية له في خدمة أغراضها السياسية لم تظهر إلا زمن العباسيين والفاطميين .

ومما يجدر بالذكري في هذا الصدد أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالعمال البيزنطيين في تشييد مساجدهم وترميمها . فمن ذلك ما فعله الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي طلب من الإمبراطور البيزنطي أن يرسل بعض الصناع لخرقة جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء^(٢) ، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه . وهكذا كانت روائع الفن الإسلامي التي تجلت أول الأمر في المساجد من وحي البيزنطيين أو جاءت متأثرة بالطراز البيزنطي الفني ، وبالتالي تحمل هذه الظاهرة أبلغ المعاني على اتساع أفق المسلمين والبيزنطيين . فلم يتردد الأولون في إكمال بيوت عبادتهم

(١) انظر ص ٩٥ من الكتاب

(٢) زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، ص ٦٤٣

الفسيفساء كلمة مشتقة من اللغة اليونانية ، ويقصد بها أنواع الزخارف التي تتكون من جمع أجزاء صغيرة متعددة الألوان من الزجاج أو الحجر وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض فوق الجص أو الأسمنت .

بأيدي البيزنطيين كما أن الأخيرين كذلك لم يجمعوا عن المساهمة في إظهار عظمة بيوت الله لدى المسلمين .

ويعدنا العصر العباسي الأول بأوضح مثال على أن استخدام الدولة الإسلامية لسياستها الدينية إزاء المسيحيين من رعاياها هدف إلى النيل من الدولة البيزنطية . ففي عهد الخليفة هارون الرشيد منحت الخلافة العباسية شرلمان إمبراطور الدولة الرومانية في غرب أوروبا^(١) . مفاتيح بيت المقدس وحق رعاية شؤون المسيحيين بالدولة الإسلامية . وتعزى هذه الصداقة بينهما إلى الأحوال السياسية التي سادت العالم حينذاك . فقد انقسم الميدان السياسي في العصور الوسطى في القرن التاسع الميلادي إلى معسكرين لكل منهما حلفاؤه وأشياعه : الخلافة العباسية في الشرق تناهض البيزنطيين ، على حين وقفت الخلافة الأموية بالأندلس تعادى إمبراطورية شرلمان التي ظهرت في غرب أوروبا . وهكذا دفعت المصالح كل فريق من هذه القوى الكبرى إلى أن يتقرب إلى الفريق الذي يحقق مصالحه ويقلق راحة أعدائه . وكانت القسمة طبيعية أملت الملبسات والأوضاع الزمنية ؛ فالخلافة العباسية ناهضت الأمويين في الأندلس والدولة البيزنطية ، مما دفع الأخيرين إلى التآزر فيما يحقق رغباتهما ، ومن ناحية أخرى وقفت الخلافة الأموية بالأندلس بدورها عدواً مبيناً للخلافة العباسية وإمبراطورية شرلمان ، مما حمل الأخيرين على أن يعقدا بينهما أواصر الصداقة والتحالف . وفعلاً تبادل الخليفة هارون الرشيد هو

(١) في سنة ٨٠٠ م توج شرلمان أحد ملوك الدولة الكارولنجية بفرنسا إمبراطوراً على يد البابا في روما . واعتبرت هذه الحادثة احياء للدولة الرومانية ، في غرب أوروبا ، وهي الإمبراطورية التي زالت زوالاً مادياً من هناك سنة ٤٧٦ م . ولكن يلاحظ أن هذا الإحياء كان إسمياً لا فعلاً ، دفعت إليه ظروف خاصة ، أهمها اعتبار شرلمان أقوى شخصية في أوروبا من دون الإمبراطور البيزنطي كفيلاً برعاية شؤون غرب أوروبا ، ومصالح البابوية كذلك خاصة انظر :

والإمبراطور شرممان ، فيما بين سنتي ٧٩٧ ، ٨٠٦ م ، السفراء والهدايا . فبعث الرشيد مع سفارته بعض المنسوجات والروائح العطرية ، وقيل ساعة مائية ، وأهم من ذلك إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرممان^(١) ، الذي أصبح راعي المسيحيين والحجاج الذين يفدون إلى فلسطين لأداء مناسك الحج .

وإذا كانت الدولة البيزنطية أجابت على هذا التحالف بتبادل السفارات مع الأمويين بالأندلس ، فإن هارون الرشيد استطاع باستغلال سياسته الدينية والتقرب من شرممان أن ينال من سمعة الدولة البيزنطية في وقت ضعف فيه نفوذها كذلك في غرب أوروبا . ذلك أن تتويج شرممان إمبراطوراً سنة ٨٠٠ م وإحياءه الإمبراطورية الرومانية في غرب أوروبا جاء لطمة قاسية لسمعة الدولة البيزنطية التي اعتبر أباطرتها أنفسهم الممثلين الحقيقيين لتراث الدولة الرومانية الكبرى . ويعتبر هارون الرشيد كذلك أول خليفة عباسي أعاد استخدام الوسائل المحجفة بالمسيحيين . ففي سنة ٨٠٧ م أمر هارون الرشيد بهدم كل الكنائس على الحدود الإسلامية البيزنطية ، وفرض على المسيحيين اتخاذ زى خاص بهم^(٢) ، أشبه بما اتبع في عهد عمر بن عبد العزيز . ولعل هذه السياسة ولا سيما هدم الكنائس على الحدود تعزى إلى اشتداد العداوة بين هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطي تقفور الأول ، ورغبة الرشيد في إكمال سياسته في الحط من شأن الدولة البيزنطية .

على أن هذه السياسة لم تدم طويلاً إزاء المسيحيين ، واستعادت الدولة البيزنطية مكانتها باعتبارها حامية شؤون المسيحيين في الدولة الإسلامية ، ذلك أن إمبراطورية شرممان اضطرت بعد وفاته واضمحلت سطوتها وتركت الجو خالياً للدولة البيزنطية مرة أخرى . وينهض دليلاً على رعاية الدولة البيزنطية الدينية للمسيحيين وما كان

(١) جميل نخلة المدور ، حضارة السلام في دار السلام ، ٢٢٩ — ٢٣١ ،

Hitti, op cit, 298.

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ١٠٠

لجاليته كذلك من تقدير في الدولة الإسلامية أنه أطلق على حي المسيحيين في بغداد اسم « دار الروم ». على أن الاختلافات المذهبية بين المسيحيين من رعايا الدولة الإسلامية لعبت دورها أحياناً في التقليل من هذا النفوذ البيزنطي . فاستأثر المسيحيون النساطرة بحق إقامة بطريقتهم في بغداد من دون اليعاقبة ، وجهدوا أن يحولوا بين اليعاقبة وبين اكتساب هذا الامتياز . فلجأوا إلى الدس لهذه الطائفة ، موهمين السلطات الإسلامية بأن اليعاقبة موالين للبيزنطيين ، ومن ثم لا ينبغي إقامتهم في بغداد . وتجلت قدرة النساطرة على ذلك في سنة ٩١٢ / ٩١٣ م حين نجح البطريق النسطوري في منع الخليفة من السماح لبطريق اليعاقبة في نقل مقره إلى بغداد ، متهماً اليعاقبة بالتشيع للبيزنطيين . فظل مقر البطريق اليعقوبي في أنطاكية ، وإن لم يحل ذلك دون أن تتخذ هذه الطائفة ديراً خاصاً بها في بغداد ومطراناً في تكريت بالقرب منها ^(١) . ويدل على افتراء النساطرة في حق إخوانهم من اليعاقبة أن بطريق أنطاكية لعب دوراً هاماً في خدمة السياسة الإسلامية إزاء الدولة البيزنطية . فقد توج هذا البطريق في عهد الخليفة المأمون الثائر البيزنطي «توماس» إمبراطوراً ليكسبه صفة شرعية في ثورته ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني ^(٢) .

وكانت سياسة الدولة البيزنطية الدينية إزاء المسلمين صدى لما أرادت تحقيقه من أهداف حربية أو سياسية . وتجلى ذلك إبان فترة توسعها الحربي في القرن العاشر الميلادي . فانهزت فرصة انتصاراتها على مناطق الحدود بينها وبين الدولة الإسلامية وعملت على تحويل المسلمين إلى المسيحية إمعاناً في التأثير في روحهم المعنوية . ففي سنة ٩٣٤ م / ٣٢٢ هـ عندما استولى الإمبراطور البيزنطي على ملطية ضرب خيمتين على إحداها صليب وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب

Hitti, op cit, 355.

(١)

(٢) انظر ص ٨١ من الكتاب

ليرد عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه . فأنحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهلهم وأموالهم . ومن ذلك أيضاً الكتب التي أرسلها الإمبراطور نقفور فوقاس إلى المسلمين بعد انتصاره في إقليم الثغور ، وفيها وعيد وسخرية وتعيير . لكن هذه السياسة الدينية لم تنل من نفوس المسلمين الذين لم تضعف روحهم المعنوية رغم هزائمهم ، إذ تقبل المسلمون هذه الحالة بإيمان قوى وفسروا ما حل بهم بأنه دليل على صحة الدين وأنه جزاء لأهله الذين أهملوا أوامرهم^(١) .

وبظهور الدولة الفاطمية أقبلع البيزنطيون عن سياسة الحط من شأن المسلمين على مناطق الحدود ، واتخذت سياستهم الدينية مظهراً جديداً يدل دلالة واضحة على الأغراض الحقيقية الكامنة وراءها . فجعلت الدولة البيزنطية الدعاء في جامع القسطنطينية للخليفة الفاطمي دون الخليفة العباسي الذي زالت هيبة سلطانه . فقد وفد على الخليفة العزيز سنة ٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ رسل الإمبراطور البيزنطي يطلبون عقد هدنة . وأجاب العزيز طلبهم بعد أن اشترط عليهم عدة شروط قبلوها ، كان منها الدعاء للخليفة الفاطمي بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة^(٢) . هكذا استغل البيزنطيون المسجد في القسطنطينية لتنظيم علاقاتهم بالدولة الإسلامية ، يخاطبون فيه للعباسيين تارة وللفاطميين تارة أخرى ، كما جعلوه في أيديهم وسيلة يردون بها على سياسة المسلمين إزاء الكنائس التي في بلادهم ، يهدمونه تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى حسب ما تقتضيه الظروف . فمن ذلك أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله هدم في سنة ١٠٠٩ م عدداً من الكنائس المسيحية ومن بينها كنيسة القيامة ببيت المقدس وأكره المسيحيين على أن يلبسوا أردية سوداء ، وأن يعلقوا صلباناً عند ذهابهم إلى الحمامات . ورغم ذلك لم يستطع الحاكم التماهي في هذه السياسة ،

(١) أنظر ملحق ٣

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٥١ ، ١٥٢

إذ خشي المسلمون أن يرد البيزنطيون على ذلك بتحطيم المساجد في بلادهم . وفي الحقيقة هدم البيزنطيون مسجد القسطنطينية ، واكتفوا بذلك بعد أن كف الحاكم يده عن متابعة سياسته الدينية^(١) .

وهكذا ظلت القسطنطينية توجه سياستها الدينية بما يكفل لها مكانة عالية عند المسيحيين من رعايا الدولة الاسلامية . كما ظلت تجذب أنظار أولئك المسيحيين إليها ، فوفد على بلاط القسطنطينية كثير من مسيحيي الدولة الاسلامية عندما واتتهم المناسبات . ففي سنة ١٠١٦ م ذهب بطريق الاسكندرية ثيوفيلوس إلى القسطنطينية وقضى هناك بضعة أسابيع مع الإمبراطور باسل الثاني ، وقام بدور الوساطة بينه وبين البطريرك سرجيوس^(٢) . كذلك سافر بطريق بيت المقدس بعد وفاة الخليفة الحاكم إلى القسطنطينية سنة ١٠٢٣ م مبعوثاً من قبل السلطات الاسلامية ليعلن للمسيحيين هناك إعادة بناء ما تهدم من كنائس الشام ، وأن المسيحيين يعيشون في أمان في ظل الخلافة^(٣) .

وبعد ذلك بقليل تجددت الاتصالات السياسية بين الفاطميين والبيزنطيين لإعادة بناء ما تهدم من البيوت الدينية من جراء سياسة الحاكم بأمر الله . فعندما تولى الخليفة الظاهر الفاطمي عقدت هدنة بينه وبين الإمبراطور قنسطنطين الثامن سنة ١٠٢٧ م / ٤١٨ هـ ، نصت على إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد الدولة البيزنطية وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة تعمير كنيسة القيامة ببيت المقدس^(٤) . وفي الأيام الأولى من خلافة المستنصر بالله الفاطمي تم الاتفاق مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ١٠٣٦ م / ٤٢٨ هـ على أن يطلق البيزنطيون

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ ، ٦٨

(٢) Runciman, op cit, 292.

(٣) Vasiliev, Hist. de L'Empire Byzantin I, 412,413.

(٤) Runciman, Byzantine Protectorate in the Holy Land, 208.

سراح خمسة آلاف أسير لتعمير كنيسة القيامة^(١). على أن هذه الاتصالات الفاطمية البيزنطية بشأن تعمير بيوتهما الدينية لم يكن معناها إغفال الأسس السياسية المستترة خلفها ، إذ كشفت الدولة البيزنطية عن الأسس السياسية في علاقاتها الدينية بالمسلمين مرة أخرى عندما غدا السلاجقة أصحاب النفوذ والسلطان في أرض الخلافة العباسية . فقد أدى تدهور أحوال الخلافة الفاطمية وعلو نجم الخلافة العباسية بفضل السلاجقة إلى إغفال الدعاء باسم الخليفة الفاطمي في مسجد القسطنطينية ، وذكر اسم الخليفة العباسي بدلا منه في خطبة الجمعة^(٢) .

ومهما يكن من أمر هذه السياسة الدينية التي استغلتها كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية لتحقيق بعض الأهداف والمصالح السياسية ، فإن الأمر الجدير بالملاحظة والاعجاب هو إبتعاد هذه السياسة عن روح التعصب المذهبي البحت ، ومحاولة أنصار كل ديانة القضاء على اتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد في تاريخ العصور الوسطى عامة ، التي نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب . فتاريخ الدولتين الإسلامية والبيزنطية يبين أن العصور الوسطى الأولى عرفت أن حياة الإخاء بين بني الإنسان ضرورة واجبة رغم اختلافهم في المشارب والنزعات . وتتجلى هذه النظرة السامية في رسالة بطريق القسطنطينية تيقولا ميستيكوس التي بعثها

Runciman, op cit, 208

(١)

(٢) المقرئزي ، المواعظ ، ج ١ ، ص ٣٣٦

يقول المقرئزي أن الخليفة المستنصر أرسل في شهر ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ « أبا عبد الله القضاعي برسالة إلى القسطنطينية . فوافى إليها رسول طغريل السلجوقي من العراق بكتابه يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة في جامع القسطنطينية ، فأذن له في ذلك ، فدخل إليه وصلى فيه صلاة الجمعة ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي . فبعث القاضي القضاعي إلى المستنصر يخبره بذلك ، فأرسل إلى كنيسة قامة بيت المقدس وقبض على جميع ما فيها » .

حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة كريت أثناء تبعيتها
لسلطان المسلمين :

« إلى الأجد الأشرف الأعز ، أمير جزيرة كريت ، إن أعظم قوتى العالم
أجمع ، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتنالقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا
وحده يجب أن نعيش إخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات
والدين (١) » .

(1) Vasiliev, op cit I, 405.

ملحق ١

مقتبسات من كتب الجغرافيين المسلمين

لتوضيح

اهتمام المسلمين بالطرق المؤدية إلى القسطنطينية «

ومدى معرفتهم بأوصاف هذه المدينة

وأحوالها الاجتماعية

دوافع اهتمام المسلمين بمعرفة القسطنطينية والطرق إليها

« ويجب أن نذكر أسباب القسطنطينية ، لأن للمسلمين بها داراً يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها ، وقد كثرت الاختلاف والكذب فيها ، وأمر البلد ومساحة بنيانه ، فرأيت أن أصور ذلك للعيون ، وأوضحه للقلوب ، وأذكر الطرق إليها لحاجة المسلمين إلى ذلك ، وقصدهم في شراء الأسارى والرسالات والغزو والتجارات^(١) . »

الطريق البحري

« ذكر هارون بن يحيى أنه سبى وحمل إلى قسطنطينية على طريق البحر في المراكب من عسقلان ، فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا مدينة يقال لها أنطالية ، وهي مدينة على ساحل بحر الروم ، ثم حملوا منها على البريد مسيرة ثلاثة أيام في الجبال والأودية والمزارع حتى ينتهي بهم إلى مدينة يقال لها نقية ، وهي مدينة عظيمة ، بها ناس كثير ، حتى انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة ، وهي مدينة صغيرة في صحراء ملساء . قال ثم خرجنا مشاة ، فمشينا في الصحراء ويمتتنا ويسرنا قري للروم حتى انتهينا إلى البحر في مقدار يومين ، ثم ركبنا البحر فسرنا مقدار يوم حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية^(٢) . »

الطريق البري

درب السلامة والطريق إلى خليج القسطنطينية .

« من طرسوس إلى العليق إثنا عشر ميلاً . ثم إلى الرهوة ثم إلى الجوزات إثنا

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧

(٢) ابن رسته ، الأعلام النفسية ، ص ١١٩

عشر ميلا ، ثم إلى الجردقوب سبعة أميال ، ثم إلى البدندون سبعة أميال . . . ثم إلى معسكر الملك على حمة لؤلؤة والصفصاف عشرة أميال . . . ومن معسكر الملك إلى وادي الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم إلى منى عشرون ميلا ، ثم إلى نهر هرقله اثنا عشر ميلا ثم إلى مدينة اللبن . . . ثم إلى رأس الغابة . . . ثم إلى ربض قونية ثم إلى العلمين . . . ثم إلى عمورية^(١) .
وطريق آخر :

« من العلمين إلى قرى نصر الأفيطى . . . ثم إلى رأس بحيرة الباسليون . . . ثم إلى السند . . . ثم إلى حصن سنادة . . . ثم إلى معل . . . ثم إلى غابة عمورية . . . ثم إلى حصن اليهود . . . ثم إلى مرج ممر الملك بدر وليمية . . . ثم إلى حصن غروبيلى ثم إلى كنائس الملوك . . . ثم إلى الأكوار . . . ثم إلى اصطبل الملك . . . ثم إلى الغبراء . . . ثم إلى الخليج . . . ونقية بإزاء الغبراء ، ومن نيقية يحمل البقل إلى قسطنطينية^(٢) . »

(١) ابن خردادبة ، المسالك ، ص ١٠٠ ، ١٠١

(٢) ابن خردادبة ، نفس المرجع ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، كثير من المدن السالف

ذكرها لا يمكن معرفة اسمائها في العصر الحاضر ، وما آل إليه أمرها .

صفة قسطنطينية

« مدينة قسطنطينية ، وهي مدينة عظيمة ، إثنا عشر فرسخاً في إثني عشر فرسخاً ، وفرسخهم على ما ذكر لي ميل ونصف . ويحيط البحر مما يلي المشرق منها ، وغربها صحراء يؤخذ منه إلى الرومية ، وعليها حصن . والباب الذي يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب ، وإلى جانبه ناس من خدمه ، ويسمى باب الذهب (١) ، وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة ، وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة . ولها باب مما يلي الجزيرة يقال له باب بيمغاس ، موضع يتنزه الملك إليه ، وهو باب من حديد (٢) :

« ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بُلغَر (٣) ، يجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوماً ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والمالح (٤) .
« وما وجدناه (أيضاً) من صفة مدينة الرومية ثلاث نواح منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة مما يلي البرّ والجريّة ، يعني الشمال . وطولها من الباب الغربي إلى المشرق ثمانية وعشرون ميلاً ، ولها حائطان من حجارة وبينهما فضاء ستون ذراعاً . وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكة اثنتان وأربعون ذراعاً ، وفيما بين السورين نهر يسمى فسطيظالس وفيما بين باب

(١) انظر الصور في آخر الكتاب .

(٢) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١١٩

(٣) بلغر ، هي بلاد البلغار انظر ص ١٣١

(٤) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٦

الذهب إلى باب الملك إثنا عشر ميلا ، وسوق ممتدة من الشرق إلى الغرب مثلثة
الاسطوانات... (وهناك) نقيير من نحاس من المغرب إلى المشرق يجري فيه لسان
من البحر ، وتجرى السفن في هذا النقيير بحمولتها ، وتحتته حوانيت للتجار للشراء
والبيع ، فتجىء السفن بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذي يبتاع منها . وفي
المدينة كنائس ، فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة ، وثلاثة وعشرون ألف دير
عظيم ، وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عموداً فيها الرهبان من كل جنس
يسهرون الليل كله ^(١) . وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال
مائة وعشرون مجعاً ^(٢) . «

(١) لجا بعض الرهبان في الدولة البيزنطية إلى قضاء حياتهم فوق عمود من أعمدة المباني
الأثرية القديمة يتعبدون ولا يتصلون بالناس . وكان أولئك النساء غالباً في رعاية الأباطرة
وكبار رجال الدولة يمدونهم بما يسد رمقهم .

(٢) ابن رسته ، نفس المرجع ، ١٣٠ ، ١٣٢

وصف الملعب بالقسطنطينية

« بقرب الكنييسة في وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر ، وإلى جانبه موضع يقال له البذرون^(١) ، وهو يشبه الميدان يجتمع إليه فيه البطارقة ، فيشرف عليهم الملك من قصره في وسط المدينة ، وقد صور في القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل والناس والوحوش والسباع وغير ذلك . وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان ، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشدُّ كلُّ عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى بما نيط إليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب ، فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات ، فأياها سبق صاحبها ، ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من في قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويصرون^(٢) » .

(١) هذه الكلمة هي اليونانية Hippodrome ، أى الملعب . يعتبر الملعب بهجة الشعب في القسطنطينية ، وبدونه تصبح الحياة جافة لا غناء فيها . وفي الملعب كانت تقام مباريات في سباق العربات . وكان اللاعبون ينقسمون إلى حزبين ، حزب اللون الأزرق وحزب اللون الأخضر ، وكثيراً ما وفقاً قبل المباريات يتقاذفون أفدع ألوان السباب والنقائص . ولم يفكر الأباطرة في وضع حد لهذه الحالة ، لأنهم اعتبروا ذلك صمام أمن تتسرب عنه ما تكبته النفس من عواطف شريرة . وفي الفترة التي تتخلل سباق العربات ، كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات . فمنهم من يمشى على الحبل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال . وكان هذا الملعب مورد رزق لعدد كبير من الناس ، كما كان يؤمه الكثير من عليية القوم لمشاهدة الألعاب . فكبار رجال الدولة يحضرون في ملابسهم الموشاه حيث يجلسون في شرفة خاصة بهم ، أما مقاصير الإمبراطور والامباطورة فكانت ملتصقة بالقصر ، منفصلة عن الملعب وتشرف عليه من أعلى . وعندما يدخل الإمبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللعب .

(٢) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٠

خروج الملك إلى الكنيسة العظمى التي للعامّة

« يأمر بأن يفرش له في طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التي للعامّة في وسط المدينة حصر ، ويطرح فوقها رياحين وخضرة وزين الحائط يمنة ويسرة من ممّره بالديباج ، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر ... ثم يجيء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض ... ثم يجيء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر ... ثم يجيء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون ... ثم يجيء اثنا عشر بطريقاً من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب ... ثم يجيء مائة غلام عليهم ثياب مشهرة مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتاً من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته ... ثم يجيء رجل شيخ ويده طشت وإبريق من ذهب ... ثم يقبل الملك ... وخلفه الوزير ، ويميد الملك حق من ذهب فيه تراب ، وهو راجل ، كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم من رمونت ... وتفسيره اذكروا الموت ، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى ، فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة فيقدم الرجل الطشت والابريق ، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره إني برىء من دماء الناس كلهم لأن الله لا يسألني عن دماءهم وقد جعلتها في رقبتك ، ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة «بلاطس» وهي دواة الرجل الذي تبرأ من دم المسيح (عم) ، ويجعلها في رقبة الوزير ، ويقول له دِنْ بالحق كما دان بلاطس بالحق ، ويدور به على أسواق قسطنطينية فينادون به دِنْ بالحق كما قلدك الملك أمور الناس ...

وفي غربي الكنيسة على عشرة خطى عمود يكون طوله مقدار مائة ذراع ... وعلى الباب الغربي من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون باباً صغاراً كل باب شبر في شبر ، معمولة على ساعات الليل والنهار ، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها ، وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها^(١) . »

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ — ١٢٦

ملحق ٢

وصف الصوائف والشواتى

على
أرض البيزنطيين

مع
جدول لتوضيح هذه الإغارات وانتظامها
زمن الخليفة الرشيد

أوقات الإغارات الإسلامية

« ... ثم تتبع ذلك بوصف أحد أيام الغزوات ليكون علم ذلك محصلاً محفوظاً فنقول ... مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين^(١) أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة تحلو من أيار^(٢) ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال حقولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً ، وهي بقية أيار وعشرة من حزيران^(٣) ، فإنهم يجدون الكلاء في بلد الروم ممكناً ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً ، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز^(٤) حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشر تحلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً . فأما الشواتي فإن رأيتهم جميعاً يقولون إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره ، وأن يكون ذلك في آخر سباط^(٥) فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من أذار^(٦) ، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب ، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون^(٧) » .

(١) الثغريون هم سكان إقليم الثغور ، أي المناطق المواجهة لأرض العدو .

(٢) مايو .

(٣) يونيو .

(٤) يوليو .

(٥) فبراير .

(٦) مارس .

(٧) قدامه بن جعفر ، نبذه من كتاب الحراج ، ص ٢٥٩

نشاط المسلمين الحربى زمن هارون الرشيد

فى أرض الدولة البيزنطية

- ٧٨٦م / ١٧٠هـ غزا الصائفة فى هذه السنة سليمان بن عبد الله البكائى . وفيها
عمرت طرسوس على يدى أبى سليم فرج الخادم التركى .
وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقتسرين ، وجعلها
حيزاً واحداً وسميت بالعواصم .
- ٧٨٨م / ١٧٢هـ غزا الصائفة فيها أسحق بن سليمان بن على .
٧٩٠م / ١٧٤هـ غزا الصائفة عبد الملك بن صالح .
- ٧٩١م / ١٧٥هـ غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ إقريطية .
وأصابهم فى هذه الغزاة برد قطع أيديهم وأرجلهم .
- ٧٩٢م / ١٧٦هـ غزا الصائفة فيها عبد الرحمن بن عبد الملك ، وفتح حصناً .
- ٧٩٣م / ١٧٧هـ غزا الصائفة فيها عبد الرازق بن عبد الحميد التغلبى .
- ٧٩٤م / ١٧٨هـ فيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم ، وغزا الشامية فيها
سليمان بن راشد .
- ٧٩٦م / ١٨٠هـ غزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم .
- ٧٩٧م / ١٨١هـ غزا الرشيد أرض الروم وافتتح فيها عنوة حصن الصفصاف .
- ٧٩٨م / ١٨٢هـ غزا فيها الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ، فبلغ
إفيسوس ، مدينة أصحاب الكهف .
- ٨٠٢م / ١٨٧هـ وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة ، وولاه العواصم .
ودخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فى شعبان ، يوليو ، فأناخ على
قُرّة وحاصرها ، ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ،

فأناخ على حصن سنان . فبعث إليه الروم ثلثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم ، فأجابهم إلى ذلك ورحل عن قرية وحصن سنان .

وفي هذه السنة كذلك نقض الإمبراطور تقفور اتفاقية أيرين مع الرشيد . فخرج الخليفة لقتاله ، ويبدو أن هذه الغزوة كانت شاتية ، لأن تقفور انتهى فصل الشتاء وأقدم على تحدى الخلافة لصعوبة القيام بعمليات حربية جديدة في هذا الفصل . على أن الرشيد لم يأبه بالبرودة وما تكلف من مشاق ونفذ خطته الحربية التي خرب فيها مدينة هرقله .

٨٠٣م / ١٨٨هـ فيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ، ودخل أرض الروم من درب الصفصاف . وانهزم الروم وقتل منهم نحواً من أربعين ألفاً وسبعمائة ، وأخذ منهم أربعة آلاف دابة .

٨٠٤م / ١٨٩هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم .

٨٠٦م / ١٩٠هـ فيها غزا الرشيد بنفسه الصائفة . واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها

« غاز حاج » وفيها فتح الرشيد هرقله وبث السرايا بأرض الروم . وكان فتح الرشيد هرقله في شوال / أغسطس ، وخربها وسبي أهلها بعد أن حاصرها ثلاثين يوماً .

وفيها خرجت الروم إلى عين زربة وأسرت كثيراً منها . وفيها ولي الرشيد حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر . فأغار حميد على قبرص وأعمل فيها الهدم والتحريق ، وسبي من أهلها ستة عشر ألفاً .

٨٠٧م / ١٩١هـ وفيها ولي الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه على

خراسان ، وضم إليه ثلاثين ألفاً من جند خراسان ، وفيها توجه
الرشيد إلى درب الحدث وعهد بالدفاع عنه إلى عبد الله بن مالك .
ثم أقام سعيد بن قتيبة بمرعش ، وبعث محمد بن زيد إلى طرسوس .
وقضى الرشيد ثلاثة أيام من شهر رمضان بدرب الحدث . على أن
الروم أغاروا على مرعش وأصابوا كثيراً من المسلمين .
وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيري أرض الروم في عشرة آلاف ،
فسدت عليه الروم المضيق وقتلوه ومن معه على بعد مرحلتين من
طرسوس .

٨٠٨م / ١٩٢هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم .

٨٠٩م / ١٩٣هـ فيها مات الرشيد .

ملحق ٣

مراسلات الإمبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م)

إلى

المسلمين بعد انتصاراته عليهم في إقليم الشغور

ورد

المسلمين عليه بما يُسَفِّه آراءه

«وردت من تقفور عظيم الروم على المسلمين قصيدة ساءتهم وشقت عليهم لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب والتعير وضروب الوعيد والتهديد ... وكانت (القصيدة) باسم الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين ... منها :

أما سمعت أذنك ما أنا صانع
بلى فعداك العجز عن فعل حازم
ثغورك لم يبق فيها لو هنكم
وضعفكم إلا رسوم العالم
فتحننا ثغور الأرمنية كلها
بفتيان صدق كالليوث الضراغم
ونحن جلبنا الخيل تعلق لجمها
ويلبع منها بعضها بالشكائم
إلى كل ثغر بالجزيرة أهل
إلى جند قنسرينكم والعواصم
ومرعى أذلنا أعزة أهلها
فصارت لنا من بين عبد وخادم
وملنا على طرسوس ميعة غامر
أدقناهم فيها بحز الحلاقم
واقريطش (١) مالت إليها مراكبي
على ظهر بحر مزبد متلاطم
فحزناهم أسراً وسيقت نساؤهم
ذوات الشعور المسبلات الفواحم
وأنطاك (٢) لم تبعد على وإنى
سألحقتها يوماً بنزوة حازم
ومصر سأفتحها بسيف عنوة
وأحرز أموالاً بها في غنائمي
وكافور أغزوه بما يستحقه
بمشط ومقراض ومص المحاجم
ألا شمروا يا أهل بغداد ويلكم
فلكم مستضعف غير دائم (٣)

من قصيدة أجاب بها المسلمون على تهديد تقفور ، تولى نظمها الشيخ الإمام

القفال الشاشي :

(١) إقريطش هي جزيرة كريت .

(٢) يقصد أنطاكية .

(٣) لعل هذه القصيدة التي تنسب إلى تقفور تشير إلى أن ديوان الإنشاء بالدولة البيزنطية

ضم أشخاصاً يجيدون العربية ونظم الشعر بها .

أتانى مقال لامرئ غير عالم
ثبت هداك الله إن كنت طالباً
ولا تتكبر بالذى أنت لم تنل
ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم
أتذكر هذا أم فؤادك هائم
طردناكم قهراً إلى أرض رومكم
ولولا وصايا للنبي محمد
وقلم ملكناكم بجور قضاتكم
وفى ذاك إقرار بصحة ديننا
وعددت بلدانا تريد افتتاحها
لئن كان بعض العرب طارت قلوبهم
لقد أسامت بالشرق هند وسندها
وزجو بفضل الله فتحاً عاجلاً
هناك يرى تقفور والله قادر
فيضحك منا سن جذلان باسم
وإن تساموا فالسلم فيه سلامة

بطرق مجارى القول عند التخاصم
لحق فليس الخبط فعل المقاسم
كلا بس ثوب الزور وسط المقادم^(١)
وقائع يثنى ذكرها فى المواسم
فليس بناس كل ذا غير هائم
فطرتهم من السامات طرد النعائم
بكم لم تنالوا تلك المجاتم
وبيعهم أحكامهم بالdraهم
وأنا ظلمنا فابتلينا بظالم
وتلك أمان ساقها حلم حلم
أو ارتد منهم حشوة كالبهائم
وصين وأترك الرجال الأعاجم
ننال بقسطنطين ذات المحارم
ينادى عليه قائماً فى المقاسم
ويقرع منه سن خزيان نادم
وأهناً عيش للفتى عيش سالم^(٢)

(١) يقصد بذلك أن معظم الفتوحات التي يتشدد بها تقفور لم تحدث في عهده .

(٢) تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٢ ، ص ١٧٩ — ١٨٤

ملحق

سفارة الخليفة الواثق بالله العباسي
إلى مدينة إفيسوس بآسيا الصغرى

لمشاهدة

الكهوف المحفوظ فيها جثث الشبان
السبعة الذين استشهدوا أيام
الامبراطور دقلديانوس
(أهل الكهف)

أهل الكهف والرقيم

« وعمل ترقيسيس (١) ، وفيه من الحصون أفسيس ... وهي مدينة أصحاب الكهف ... وقد قرىء في مسجدهم كتاب بالعربية بدخول مسلمة بلاد الروم ... وكان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم ، وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم . فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرّة ، ثم صار أربع مراحل ، وإذا جُبيل ، قطر أسفله أقل من ألف ذراع ، وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم . قال ، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته ، فإذا بئر محفورة لها سعة تبينا الماء في قعرها ، ثم نزلنا إلى باب السرب ، فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه ، فإذا زواق في الجبل على أساطين منقورة ، وفيه عدة أبيات ، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة ، عليه باب حجر منقور فيه الموتى ، ورجل موكل بحفظهم ... ، وإذا هو يجيد عن أن تراهم أو نفتشهم ، ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم . فقلت له دعني أنظر إليهم وأنت برىء ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي ، فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد ، وإذا أجسادهم مظلمة بالصبر والمرّ والكافور ليحفظها ، وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم ، غير أنى أمرت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته (٢) . »

(١) هو إقليم من أقاليم آسيا الصغرى الإدارية ، في الجنوب الغربي منها (انظر الخرائط)

وأفسيس هي إفسوس .

(٢) ابن خرداذبة ، المسالك ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

ملحق ٥

مقتبسات
توضح حياة الأسرى المسلمين

في
أراضي الدولة البيزنطية

معسكرات الاعتقال ونظم الحياة بها

« اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فأجابه إلى ذلك ، وبني دار البلاط ، والبلاط خلف الميدان ، يصنع به الديباج الملكي . ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه في إجراء وتعاهد وتنزه . وسائر الأسارى من عامة المسلمين يستعبدون ، ويستعملون في الصنائع . فلحازم الذي إذا سئل عن صنعته لم يقر بها ؛ وربما اتجر الأسارى بينهم وانتفعوا . ولا يكرهون أحداً على أكل لحم الخنزير ، ولا يشقون أنفاً ولا يشقون لساناً . ومن دار الكلب إلى دار البلاط جبل ممدود ، فيه صورة فرس من نحاس ؛ ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب ، واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا . فإذا أرادوا أن يتضاءلوا في لعبهم صاروا حزيين ، وأرسلوا الخيل حول الدكة ، فإن سبقت خيل حزب الكلب قالوا ستكون الغلبة للروم ، فصاحوا وينطوا وينطوا . وإن غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين ، فصاحوا براسيانا ، وذهبوا إلى المسلمين ، فيخلمون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم ^(١) . »

الترفيه عن الأسرى في عيد الميلاد

« وفي يوم الميلاد يؤمر . . . فيؤتى بأسارى المسلمين فاقعدوا على تلك الموائد (في القصر) وحمل إليه (إلى الملك) عند قعوده في الصدر موائد من ذهب . . . فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها ، وإنما تترك مادام الملك على مأدته ، فإذا قام رفعت ، ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم ، ثم ينادى منادى الملك فيقول : وحياء رأس الملك ما في هذه الأطعمة شيء من لحم الخنزير ، وينقل إليهم تلك الأطعمة في صحاف الذهب والفضة . . . والقوم كلهم جلوس على الموائد ويدخل عليه عشرون رجلاً بأيديهم الحلباقات والحلباق الصنج يضربون فيها ماداموا يأكلون ، ويطعمون على هذه الصفة اثني عشر يوماً ، فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم . . . ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرين^(١) . »

حضور الأسرى حفل تقليد الملك مهام دولته لوزيره في الكنيسة

« ثم يأمر الملك بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة ، فينظرون إلى تلك الزينة والملك فيصيحون أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة « ثلاث مرات » ثم يؤمر فيخلع عليهم^(٢) . »

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) انظر ملحق ١ ، خروج الملك إلى الكنيسة التي للعامة .

(٣) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ١٢٥

ربما رمت الدولة البيزنطية من وراء مشاهدة الأسرى هذا الاحتفال إظهار ميل الإمبراطور إلى العدل وبث روح الطائفة في نفوسهم .

انتظار الأسرى تقرير مصيرهم

« ومما يلي باب الذهب من المدينة قبة قنطرة معقودة في وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير كأنه يقول بيده هاته ، والأخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة ، وهما طلسمان ، فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج ، ويذهب رسول الملك ذلك ، فإن رجع الرسول وهم وقوف ذهب بهم إلى الحبس ، وإن وافاهم الرسول وقد جوز بهم الصنمين قتلوا ولم يبق منهم على أحد^(١) . »

صورة من تبادل الأسرى (الفداء)

« وكفر سلام من قرى قيسارية^(٢) . . . ولهذا القصة رباطات على البحر ، يقع بها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانبهم^(٣) ، ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسائل ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة . وقد ضجَّ بالنفير لما ترايت مراكبهم ، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط^(٤) ، وإن كان نهار دخنوا . ومن كل رباط إلى القصة عدة مناير شاهقة ، قدرتب فيها أقوام ، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصة ، وضرب الطبل على المنارة ، ويؤدى إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق . ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجلا ، وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري مامعهم^(٥) . »

(١) ابن رسته ، نفس المرجع ، ص ٢٢٦

(٢) قيسارية مدينة بفلطيين .

(٣) الشلنديات والشوانى نوع من السفن الحربية .

(٤) الرباط مكان به حاميات دائمة .

(٥) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٧٧

ملحق ٦

جدول بأسماء الأباطرة البيزنطيين

في

القرن السابق لظهور الإسلام

و

جدول بأسماء الأباطرة البيزنطيين

والخلفاء المسلمين إلى ظهور السلاجقة

والنورمان

الاباطرة البيزنطيون في القرن السابق لظهور الإسلام

أهم الأحداث	السنة	الإمبراطور
قتل مسيحي نجران سنة ٥٢٣ م ؛ وطرده أبرهه ذانواس اليهودي من اليمن سنة ٥٢٥ م .	٥١٨ - ٥٢٧ م	جستين الأول
تولى كسرى أنوشروان عرش فارس سنة ٥٣١ م	٥٢٧ - ٥٦٥ م	جستينان العظيم
مولد الرسول الكريم سنة ٥٧١ م	٥٦٥ - ٥٧٨ م	جستين الثاني
وفاة كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ م	٥٧٨ - ٥٨٢ م	طبريوس الثاني
	٥٨٢ - ٦٠٢ م	موريس
بدأت المؤامرات ضد فوقاس سنة ٦٠٥ م ، وغزا الفرس الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٠٧ م	٦٠٢ - ٦١٠ م	فوقاس
دخول هرقل العاصمة البيزنطية وخلع فوقاس سنة ٦١٠ م .	٦١٠ م	هرقل

الاباطرة البيزنطيون والخلفاء المسلمون

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
م ٦١٠	هرقل			وقعت غزوة مؤتة سنة ٦٢٩ م / ٥٨ هـ قاد النبي حملة تبوك سنة ٦٣٠ م / ٥٩ هـ
		أبو بكر	م ٦٣٢	
			٥١١	سقوط بصرى بالشام ٦٣٤ م / ١٣ هـ
		عمر بن الخطاب	م ٦٣٤	
			٥١٣	انتصار المسلمين في معركة اليرموك سنة ٦٣٦ م / ١٥ هـ
				غزو عمرو بن العاص مصر ٦٣٩ م / ١٨ هـ
م ٦٤١	قنسطانز الثاني			
		عثمان بن عفان	م ٦٤٤	
			٥٢٣	فشل مانويل في استعادة مصر سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ
				معركة ذات الصواري وانتصار المسلمين فيها سنة ٦٥٥ م / ٣٤ هـ
		علي بن أبي طالب	م ٦٥٦	
			٥٣٥	
		معاوية	م ٦٦١	قيام الدولة الأموية
			٥٤١	
م ٦٦٨	قنسطنطين الرابع			
				حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع سنة ٦٧٤ - ٦٨٠ م ٤٥ - ٦٠ هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
		يزيد الأول	م ٦٨٠ هـ ٦٠	
		معاوية الثاني	م ٦٨٣ هـ ٦٤	
		مروان	م ٦٨٣ هـ ٦٤	
م ٦٨٥	جستينان الثاني	عبد الملك	م ٦٨٥ هـ ٦٥	الاتفاق على نقل الجراجمة إلى داخل الأراضي البيزنطية
م ٦٩٥	ليونتيوس			
م ٦٩٨	طبريوس الثالث			
م ٧٠٥	جستينان الثاني	الوليد	م ٧٠٥ هـ ٨٦	
	يستأنف حكمه			
م ٧١١	فيليبكس			
م ٧١٣	انستاسي الثاني			
م ٧١٥	توداسيوس الثالث	سليمان	م ٧١٥ هـ ٩٦	حصار المسلمين القسطنطينية سنة ٧١٧ م / ٩٨ هـ
م ٧١٧	ليو الثالث	عمر بن عبدالعزيز	م ٧١٧ هـ ٩٩	قيام الأسرة الإيسورية في الدولة البيزنطية .
				رفع الحصار عن القسطنطينية سنة ٧١٨ م / ٩٩ هـ

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
		يزيد الثاني	٧٢٠ م	
			١٠١ هـ	
		هشام	٧٢٤ م	
			١٠٥ هـ	أصدر ليون في سنة ٧٢٦ م مرسومه الشهير ضد الإيقونات .
٧٤٠	قنسطنطين الخامس	الوليد الثاني	٧٤٣ م	
			١٢٥ هـ	
		يزيد الثالث	٧٤٤ م	
			١٢٦ هـ	
		ابراهيم	٧٤٤ م	
			١٢٦ هـ	
		مروان الثاني	٧٤٤ م	
			١٢٧ هـ	سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ
		السفاح	٧٥٠ م	
			١٣٢ هـ	
		المنصور	٧٥٤ م	
			١٣٦ هـ	
٧٧٥ م	ليون الرابع	المهدى	٧٧٥ م	
			١٥٨ هـ	

سنة تولى الحكم	الامبراطور	الخليفة	سنة تولى الحكم	أهم الأحداث
٧٨٠ م	قسطنطين السادس			
٧٨٥ م		المهادي		
١٦٩ هـ				
٧٨٦ م		الرشيد		حكمت أيرين وصية على ابنها من ٧٨٠
١٧٠ هـ				انفردت أيرين بالحكم، واشتدت إغارات الرشيد على أرض الدولة البيزنطية.
٧٩٠ م				
٧٩٢ م				
٧٩٧ م	الامبراطورة أيرين			
٨٠٢ م	نقفور الأول			
٨٠٩ م		الأمين		
١٩٣ هـ				
٨١١ م	ميخائيل الأول			
٨١٣ م	ليو الخامس	المأمون		
٨١٣ م				
١٩٨ هـ				
٨٢٠ م	ميخائيل الثاني			
				قيام الأسرة العمورية في الدولة البيزنطية.
				مساعدة المأمون للثائر توماس الصقلي
				ضد الامبراطور ميخائيل الثاني . هزيمة توماس سنة ٨٢٣ م .
				رحيل الأندلسيين المسلمين من الاسكندرية واحتلالهم كريت سنة ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ .

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
هزم بابك الخرمي ، الذي أعلن العصيان على الخلافة الاسلامية سنة ٨١٦ م ، جيشاً بعثه إليه المأمون سنة ٨٢٩ م / ٢١٤ هـ .			ثيوفيل	٨٢٩ م
بدأ المعتصم انتصاراته على الخرمية / ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م	٨٣٣ م	المعتصم		
تخريب زبطرة سنة ٨٣٧ م / ٢٢٢ هـ	٢١٨ هـ			
القضاء على الخرمية سنة ٨٣٧ م				
تخريب عمورية ٨٣٨ م / ٢٢٣ هـ				
	٨٤٢ م	الواثق	ميخائيل الثالث	٨٤٢ م
	٢٢٧ هـ			
أغار الأسطول البيزنطي على دمياط سنة ٨٥٣ م / ٢٤٨ هـ	٨٤٧ م	المتوكل		
	٢٣٢ هـ			
	٨٦١ م	المنتصر		
	٢٤٧ هـ			
	٨٦٢ م	المستعين		
	٢٤٨ هـ			
	٨٦٦ م	المعتز		
	٢٥١ هـ			
قيام الأسرة المقدونية في الدولة البيزنطية قيام الدولة الطولونية في مصر ٨٦٨ م / ٢٥٤ هـ			باسل الأول	٨٦٧ م

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
	م ٨٦٩	المهتدي		
	هـ ٢٥٥			
	م ٨٧٠	المعتد		
وقوع عبد الله بن كاس والى الثغور الشامية أسيراً في قبضة البيزنطيين م ٨٧٧ / هـ ٢٦٤	هـ ٢٥٦			
			ليو الرابع	م ٨٨٦
	م ٨٩٢	المعتضد		
	هـ ٢٧٩			
	م ٩٠٢	المكتفي		
	هـ ٢٨٩			
	م ٩٠٨	المقتدر		
	هـ ٢٩٥			
			اسكندر	م ٩١٢
			قنسطنطين السابع	م ٩١٣
			رومانوس الأول	م ٩١٩
	م ٩٣٢	القاهر		
	هـ ٣٢٠			
	م ٩٣٤	الرازي		
	هـ ٣٢٢			

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
قيام الدولة الأخشيدية ٩٣٥م / ٣٢٣هـ				
	٩٤٠م	المتقى		
	٣٢٩هـ			
سيف الدولة الحمداني بحلب ٩٤٤م	٩٤٤م	المستكفي	قنسططين السابع	٩٤٤م
	٣٣٣هـ		يحكم بمفرده	
	٩٤٦م	المطيع		
	٣٣٤هـ			
استيلاء نقفور فوقاس على كريت			رومانوس الثاني	٩٥٩م
٩٦١م / ٣٥٠هـ				
فتح الفاطميون مصر سنة ٩٦٩م /			نقفور فوقاس	٩٦٣م
٣٥٨هـ			حناترمسكيس	٩٦٩م
انتقال المعز الفاطمي إلى القاهرة سنة				
٩٧٣م / ٣٣٢هـ				
	٩٧٤م	الطائع		
حملة ترمسكيس المشهورة على إقليم	٣٦٣هـ			
الثغور، واقترابه من بيت المقدس سنة				
٩٧٥م				
تولى العزيز الفاطمي الخلافة بالقاهرة				
٩٧٥م / ٣٦٥هـ				

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
			باسل الثاني	٩٧٦ م
	٩٩١ م ٣٨١ هـ	القادر		
تولى الحاكم الفاطمي الخلافة بالقاهرة ٩٩٦ م / ٣٨٦ هـ .				
حضور باسل الثاني إلى الشام سنة ٩٩٩ م / ٣٩٠ هـ بسبب امتداد عمليات الفاطميين الحربية إلى أنطاكية .				
تولى الخليفة الظاهر الفاطمي الخلافة بالقاهرة ١٠٢٠ م / ٤١١ هـ .			قنسطنطين الثامن	١٠٢٥
	١٠٣١ م ٤٢٢ هـ	القائم	رومانوس الثالث	١٠٢٨
			ميخائيل الرابع	١٠٣٤
تولى المستنصر الفاطمي الخلافة بالقاهرة ١٠٣٥ م / ٤٢٧ هـ .				
			ميخائيل الخامس	١٠٤١
			قنسطنطين التاسع	١٠٤٢
			تيودورا	١٠٥٥

أهم الأحداث	سنة تولى الحكم	الخليفة	الامبراطور	سنة تولى الحكم
أقيمت الخطبة للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي في مسجد القسطنطينية ١٠٥٦ م / ٤٤٧ هـ . قيام أسرة دوقاس في الامبراطورية البيزنطية .			ميخائيل السادس	١٠٥٦
			اسحق الأول	١٠٥٧
			قسطنطين العاشر	١٠٥٩
			ميخائيل السابع	١٠٦٧
استيلاء السلاجقة على حلب ١٠٧٠ م ، وسقوط باري في أيدي النورمان ، موقعة منكرت وأسر الامبراطورية رومانوس ١٠٧١ م			رومانوس الرابع	١٠٦٨
			ميخائيل السابع (مرة أخرى)	١٠٧١
	١٠٧٥	المقتدى		
	٥٤٦٧			

المراجع

ابن الأثير :

الكامل في التاريخ (بولاق)

الإصطخرى :

مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧)

ابن أبي أصيبعة :

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ١ (١٧٨٢ م)

البلاذرى :

فتوح البلدان (القاهرة — ١٩٠٠ م)

De Boer

دى بور :

تاريخ الفلسفة في الإسلام (ترجمة محمد عبد الهادى

أبو ريده — ١٩٣٨ م)

جميل نخلة المدور :

حضارة الإسلام في دار السلام (١٩٣٢ م)

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسى (١٩٤٨ م)

حسين مؤنس :

الشرق الإسلامى في العصر الحديث (١٩٣٨)

أشير على القارىء بضرورة العناية بمقدمة هذا الكتاب ، فهى
من الطراز الأول لكل من يريد دراسة الشرق الإسلامى فى
أى عصر من عصوره .

ابن حوقل :

كتاب المسالك (ليدن ١٨٣٢ م)

ابن خردادبه :

كتاب المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩)

الخطيب البغدادي :

تاريخ بغداد (القاهرة — ١٩٣١ م)

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون (مصر)

ابن رسته :

كتاب الأعلام النفسية (ليدن ١٨٩١)

زكي محمد حسن :

فنون الإسلام (١٩٤٨)

الرحلة المسلمون في العصور الوسطى

أبو زيد :

سلسلة التورخ (Ed. M. Reinaud — باريس ١٨١١)

السبكي :

طبقات الشافعية (القاهرة)

سيده إسماعيل كاشف :

مصر في فجر الإسلام (١٩٤٧)

السيوطي :

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة)

الطبرى :

تاريخ الأمم والملوك (القاهرة — ١٣٢٦ هـ)

ابن عبد الحكم :

فتوح مصر (ليدن ١٩٢٠)

عبد الرحمن بدوى :

التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)

فشر :

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (القسم الأول —
ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى)

ابن الفقيه :

كتاب المسالك (ليدن ١٨٨٥)

قدامه بن جعفر :

نبذه من كتاب الخراج وصناعة الكتابة (ليدن)

ابن القلانسى :

ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

القلقشندى :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة)

الكندى :

كتاب الولاة والقضاة (Ed . Rhavon Gaest)

Adam Metz

متر : آدم

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة

أبوريدة — ١٩٤١ م)

محمد حسونة :

الجغرافيا التاريخية الإسلامية (١٩٥٠)

المسعودى :

مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة) أربع أجزاء .
التنبية والاشراف (مصر ١٩٣٨)

المقدسى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن)

المقريزى :

المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق)

ابن هشام :

سيرة رسول الله (القاهرة)
كتاب التيجان فى ملوك حمير (حيدر أباد)

ابن النديم :

كتاب الفهرست (القاهرة)

Noeldeke

نلداكه :

أمراء غسان (ترجمة بندلى جوزى ، وقسطنطين زريق —
بيروت ١٩٣٣)

ياقوت :

معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧ م)

يحيى بن سعيد الأنطاكي :

صلة كتاب أوتبخا (الجزء ١٨ من مجموعة Patrologia
(Orientalis)

Ameer Ali, Sayed,

A short History of the Saracens (London 1899)

Anderson, J. G. C.

The Road-System of Eastern Asia Minor (Journal of Hellenic studies, XVII—1897).

Arculf,

The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by Macpherson—London 1889)

Arnold, T. W.

The Preaching of Islam (London 1935)

Barraclough, G.

The Mediaeval Empire, Idea and Reality. (The Historical Association—General Series : G 17)

Baynes, N. H.

The Byzantine Empire (London 1925)

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد :
ويعتبر نقل هذا الكتاب إلى العربية من أجل الخدمات لتوسيع المكتبة العربية في مادة
التاريخ البيزنطي . وأشير على القارئ بالرجوع إلى هذه الترجمة فيما يرغب الاستزادة منه من
نواحي المعلومات البيزنطية ، والمترجم هنا أدى خدمة أخرى ، حيث أضاف ملاحق عبارة عن
ترجمة لفصول أخرى من أهم الكتب التي تنير الطريق للقارئ .

Byzantium (Ed. Baynes and Moss-Oxford 1948).

Beazley, C. R.

The Dawn of Modern Geography (London 1897).

Bell, H. I.

The Aphrodito Papyri (Greek Papyri in The British Museum, IV.)

Bernard the wise,

The Itinerary of Bernard the wise (Trans. by H. Bernard, London 1893)

Bréhier, L. ,

Vie et Mort de Byzance (Paris 1949)

Brooks, E. W,

The relation between the Empire and Egypt (Byzantinische Zeitschrift XXII.)

Bury, J. B.,

A History of the later Roman Empire (London 1889)

History of the Eastern Empire (London 1912).

The Mutasim's March Through Cappadocia, (Journal of Hellenic Studies XXIX).

Butler, A.

The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902)

Charlesworth, M. P.

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (Cambridge 1926).

Cedrenus, G. ,

Annales (Per I Oporinum et Episcopios Fratres Basileae—1566)

Cosmas,

The Christian Topography or Cosmas (Trans. by J. W. Mc. Crindle London, 1897).

Ferrand, G.,

Relation De Voyage et Textes Geographiques Arabes, (Paris1914)

Fisher, H. L.

A History of Europe (London 1935)

ترجم الدكتور زيادة القسم الخاص بالعصور الوسطى من هذا الكتاب . وهذه الترجمة من الدرجة الأولى إن لم تكن نموذجاً عالياً يجب أن يحتديه كل راغب في خدمة المكتبة العربية وتيسير المعلومات لقراءها. فهذه الترجمة تمكن القارئ من الوقوف على مظاهر الحياة في العصور الوسطى الأوروبية بصورة لا يستطيع أن يضطلع بها غير الدكتور زيادة في هذه الترجمة .

Galante, A.

Les Juifs de Constantinople sous Byzance (Istanboul 1940)

Ganshof, F. L.,

Notes sur Les Ports de Provence (Revue Historique Paris, 1938 — 183) .

Gay, J.,

Note sur P'hellenisme sicilien (Byzantion I, 1924).

De Goeje, M.

Memoie sur la conquêt de la Syrie (Leide 1900).

Hadi Hassan,

A History of Parsian Navigation.

Hell, J.

Die Kultur der Araber (Liepzig 1919).

Heyd, W.

Histiore du commerce du Levant au Moyen-ages (Leipzig 1885)

Hirth, F.

The mystery Fu-lin (Journal of the American Oriental Society,
33,)

Hitti, P. K.

History of the Arabs (London 1949).

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع . وبذل المترجم جهداً مشكوراً
في التعليق على هذا الكتاب .

De Lacy O'leary.

How Greek Science Passed to the Arabs (London)

Lammens., H.

Etude sur Le Rigne du Calife Omaiade Mo'awia Ier, (Beyr-
-outh, 1906).

Laurent., J.

L'Armenie Entre Byzance et L'Islam (Paris 1919).

Lopez.,

Mohamed and Charlemagne (Speculum) XVIII, 1934.

Mann., J.

The Responsa of the Babylonian Geonim (Jewish Quarterly
Review-new series IX.)

Maspero., J.

Organisation Militaire de L'Egypte Byzantine (Paris 1912).

Mommsen., T.

The Provinces of Roman Empire (London 1886).

Muir, Sir William,

The Caliphate, its Rise, Decline and Fall (1942).

Nabia Abbott.,

The Kurrah Papyri.

Nassiri Khusrau.,

Sefer Nameh (Trad. Par Carles Schefer- Paris, 1881).

De Perceval., A. G.

Essai Sur L'Histoire Des Arabes (Paris, 1848).

Pirenne., H.

Mahomet et Charlemagne (Paris, 1973).

Procopius,

History of wars (Trans. by H. B. Dewing.).

Runciman., S.

Byzantine Civilisation (London 1933)

The Emperor Romanus Lecapenus (1929) .

The Byzantine Protectorate in the Holy Land in The Eleventh Century (Byzantion XVI.) .

The Widow Danelis (Reprint From Etudes dédiées à la Mémoire d'Andre Anderéadis) (Athens 1940) .

Starr., C. G.

The Roman Imperial Navy (New-York. 1941) .

Le Strange., G.

Palestine under the Moslems (1890) .

The Lands of The Eastern Caliphate (Cambridge 1930) .

Theophanes,

Cronographia (Parisiis) .

Vasiliev.,

Histoire de L'Empire Byzantin.

Byzance et Les Arabés (Bruxelles 1935) .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة .

الفهرس

صفحة

ح

التصدير بقلم حضرة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

هـ

مقدمة الكتاب

٢٢ - ١

الفصل الأول

الإمبراطورية البيزنطية والعرب قبل الإسلام

التجارة البيزنطية في بلاد العرب الجنوبية ١ - ١٧

اهتمام الامبراطورية البيزنطية بالشئون التجارية ١ - انتقال
تراث روما التجارى إلى القسطنطينية ١ - مظاهر النقص
في سيادة بيزنطة التجارية ٤ - احتكار الفرس الساسانيين
المتاجر الشرقية ٥ - اتجاه بيزنطة إلى طريق البحر الأحمر التجارى
٧ - اهتمام الامبراطور جستنيان بهذا الطريق ٨ - العوامل
التي مهدت له التدخل في شئون بلاد العرب الجنوبية ٩ -
الصراع بين اليهودية والمسيحية ٩ - سفارة جستنيان إلى الحبشة
وإلى الحميريين ١١ - تقرير كوزماس عن طريق البحر الأحمر
التجارى على عهد جستنيان ١١ - نجاح الفرس في السيطرة
على هذا الطريق ١٤ - زوال نفوذ بيزنطة التجارى والأدبى من
جنوب بلاد العرب ١٤ .

الإمبراطورية البيزنطية والعرب البدو ١٧ — ٢٢
اهتمام بيزنطة بمحدودها المطلقة على شمال بلاد العرب ١٧ — إقامة
الحصون لصد إغارات البدو ١٨ — مملكة الغساسنة وتنصيبها
رقيبا على حركات البدو ١٩ — الاختلافات المذهبية بين الغساسنة
والدولة البيزنطية ١٩ — إضعاف البيزنطيين لمملكة الغساسنة ٢٠
تردد صدى أحداث جنوب بلاد العرب وشمالها في الحجاز ٢١ .

٦٢ — ٢٣

الفصل الثاني

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

تطور انقلاب التوازن الدولي في مطلع القرن السابع الميلادي
٤٣ — ٣٦ الحروب الفارسية ٢٣ — الاختلافات المذهبية في
أقاليم الدولة البيزنطية ٢٧ — ظهور الإسلام ٣٢ .

استيلاء المسلمين على الشام ومصر ٣٦ — ٤٩

فتح الشام ٣٦ — فتح مصر ٤٤ — التنافس بين المسلمين

والبيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط الشرقي ٥٠ — ٦٢

فشل البيزنطيين في استعادة مصر والشام ٥٠ — إعادة تنظيم

الإمبراطورية البيزنطية في القرن السابع الميلادي ٥٣ —

الأمويون والقسطنطينية ٥٥ .

١٠٩ — ٦٣

الفصل الثالث

ميزان القوة السياسية بين البيزنطيين والمسلمين

مظاهر التطور في العلاقات الإسلامية البيزنطية ٦٣ — ٦٩

ركود المشروعات التوسعية ، سقوط الخلافة الأموية ٦٣ —
الحركة اللايقونية ٦٦ — تحصين العواصم والثغور ٧٠ —
نظام البرق البيزنطي لربط العاصمة بالحدود ٧٤ — ميزانية الدولة
الإسلامية المخصصة للثغور ٧٦

٧٧ — ٩٤ النشاط البري والبحري

الصوائف والشواتي البرية ٧٧ — إغارات الرشيد ٧٨ — تأييد
المأمون للثائر توماس ٨٠ — فشل المأمون في سياسته لانتهاء ثورة
توماس ٨١ — ثورة الخرمية واستغلال البيزنطيين لها ٨٢ —
إرتباط الإغارة على زبطره بهذه الثورة ٨٢ — انتقام المعتصم
بتخريب عموريه ٨٣

الإغارات البحرية ٨٦ — إغارات الرشيد ٨٦ — استيلاء
الأندلسين على كريت بعد طردهم من مصر ٨٨ — فشل البيزنطيين
في استرداد كريت ٨٩ — إغارات البيزنطيين على دمياط ٩١ —
تبادل الأسرى (الفداء) ٩٤ .

حركة الإفاقة البيزنطية وقيام الدولة الفاطمية ٩٩ — ١٠٩
الأسرة المقدونية والدويلات الإسلامية ٩٩ — علو نجم
البيزنطيين وتفكك المسلمين ١٠٠ — الصحوة البيزنطية ١٠٢ —
حملات باسل الأول ١٠٠ — نشاط الطولونيين ومسلمي
كريت ١٠٣ — سياسة ليو السادس البحرية ١٠٣ — استيلاء
البيزنطيين على كريت ١٠٤ — إغارات الحمدانيين ١٠٤ — ظهور
الفاطميين ونشاطهم الحربي ضد البيزنطيين ١٠٥ — حملات
حنا ترمسكيس ١٠٦ — قوة الفاطميين وصد هجمات البيزنطيين

١٠٧ - ظهور خطر السلاجقة والنورمان ١٠٨ - أثر هاتين القوتين في العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ١٠٩ .

الفصل الرابع

مظاهر التبادل الاقتصادي بين الدول الإسلامية

١١٠ - ١٣٧

والإمبراطورية البيزنطية

١١٠ - ١٢٠

مناطق النفوذ التجاري

الميدان الإسلامي ١١٠ - الميدان البيزنطي ١١٧ -

التبادل التجاري ١٢٠ - ١٣٠

استمرار الأوضاع التجارية سليمة في حوض البحر الأبيض

الشرقي ١٢٠ - مظاهر التبادل التجاري ١٢٢ - آراء بيرن

عن أثر المسلمين التجاري في حوض البحر الأبيض المتوسط ١٢٣

مظاهر بقاء الاتصال التجاري بين قسما البحر الأبيض المتوسط

١٢٥ - ازدهار المدن التجارية وارتداد التجار من الطرفين لها

١٢٦ أثر التجار البيزنطيين على مجرى الأحداث في الدول الإسلامية

١٢٨ .

تنافس المسلمين والبيزنطيين في الميادين التجارية الجديدة

١٣٠ - ١٣٤

تغير الأوضاع التجارية في البحر الأبيض المتوسط

١٣٤ - ١٣٧

الفصل الخامس

مقارنات بين المجتمع الإسلامى والمجتمع البيزنطى فى العصور

١٣٨ — ١٧٣

الوسطى

١٣٨ — ١٤٧

التبادل الثقافى

مرا كز الاتصال الثقافى ١٣٨ — تبادل العلوم والعلماء ١٤٣

١٤٨ — ١٥٢

أثر النظم البيزنطية فى تكوين الدولة الإسلامية ١٥٢ — ١٥٧

النظام الإدارى ١٥٢ — النظام الحربى ١٥٥ .

١٥٨ — ١٦٣

تبادل الزيارات

١٦٣ — ١٧٣

السياسة الدينية

الملاحق

١٧٤ — ١٨٠

ملحق ١

مقتبسات توضح مدى معرفة المسلمين

بالقسطنطينية والطرق المؤدية إليها .

١٨١ — ١٨٥

ملحق ٢

أوقات الإغارات الإسلامية — ١٨٢

جدول يمثل الإغارات زمن الرشيد ١٨٣

١٨٦ — ١٨٨

ملحق ٣

من قصيدة تنسب إلى تقفور فوقاس

١٨٧

بعث بها إلى المسلمين وردهم عليها

١٨٩ — ١٩٠

ملحق ٤

١٩٠ سفارة الواثق بالله العباسي لمشاهدة أهل الكهف

ملحق ٥ ١٩١ — ١٩٤

مقتبسات توضح حياة الأسرى المسلمين في الدولة البيزنطية .

ملحق ٦ ١٩٥ — ٢٠٥

الإباطرة البيزنطيون في القرن السابق لظهور الإسلام ١٩٦

الأباطرة البيزنطيون والخلفاء المسلمون ١٩٧ —

المراجع ٢٠٦ — ٢١٣

الفهرس ٢١٤

الخرائط :

لوحات :

لتوضيح بعض مظاهر مدينة القسطنطينية .

تعريف عن الكتاب باللغة الإنجليزية

[تم طبع كتاب «الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية»

في مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم السبت ١٩ من ربيع

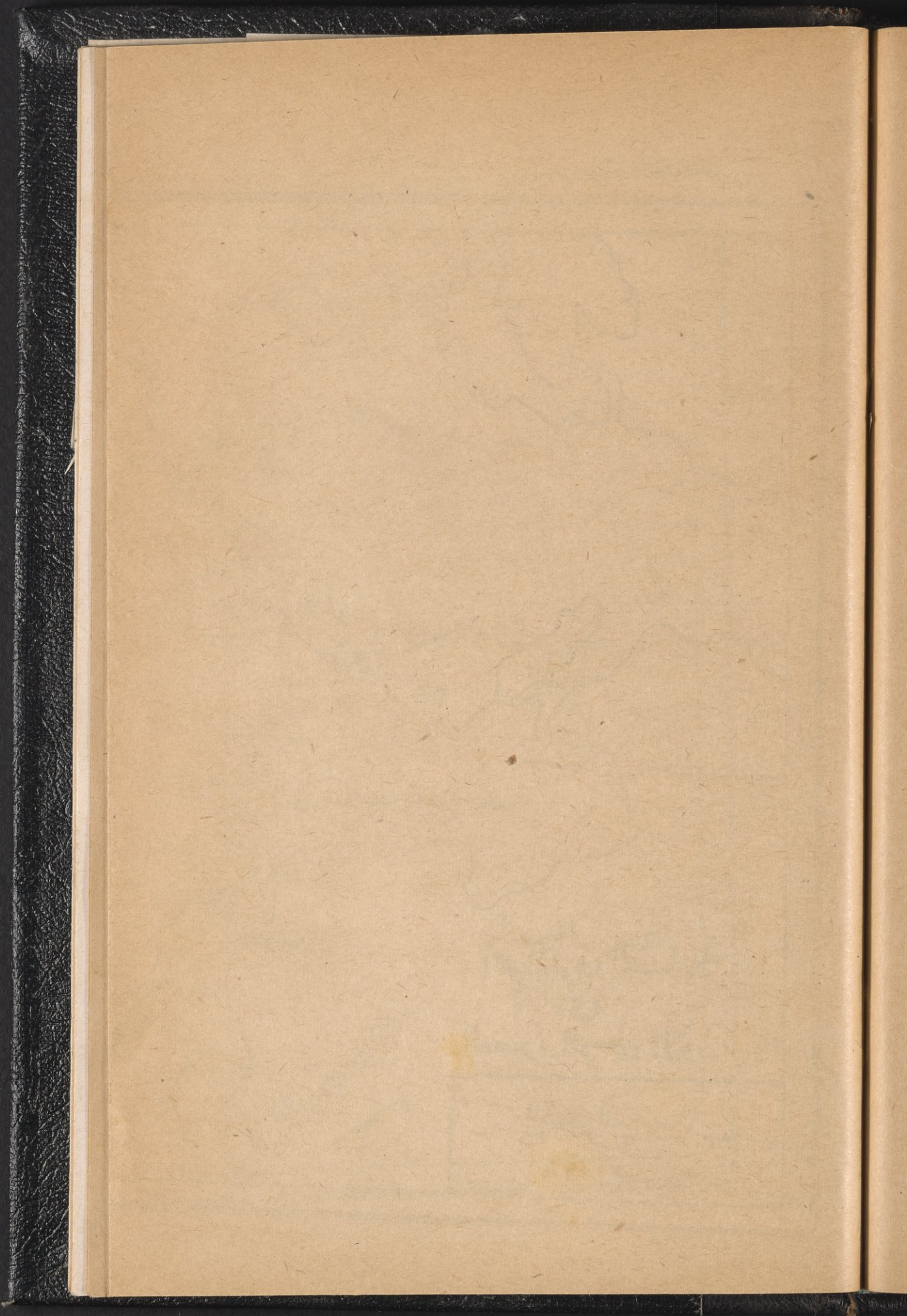
الثاني سنة ١٣٧٠ هـ (الموافق يوم السبت ٢٧ من يناير سنة ١٩٥١ م)

والحمد لله أولاً وآخراً]

سيد محفوظ

المدير الفني للمطبعة

AMERICAN LIBRARY





أهم الطرق التجارية
في
العصور الوسطى الأولى

الطرق البحرية
الطرق البرية

الطريق من الصين
سمرقند
جرجان
مرو

الطريق من الهند

فارس

الجزيرة العربية

المحيط الهندي
(البحر الهندي)

البحر الأسود

البحر الأبيض المتوسط

البندقية

باري

قسطنطينية

دمشق

غزة

الاسكندرية

السفاح

أبله

نوك

القطيف

عبدار

المدينة

مكة

سيراف

عراق

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

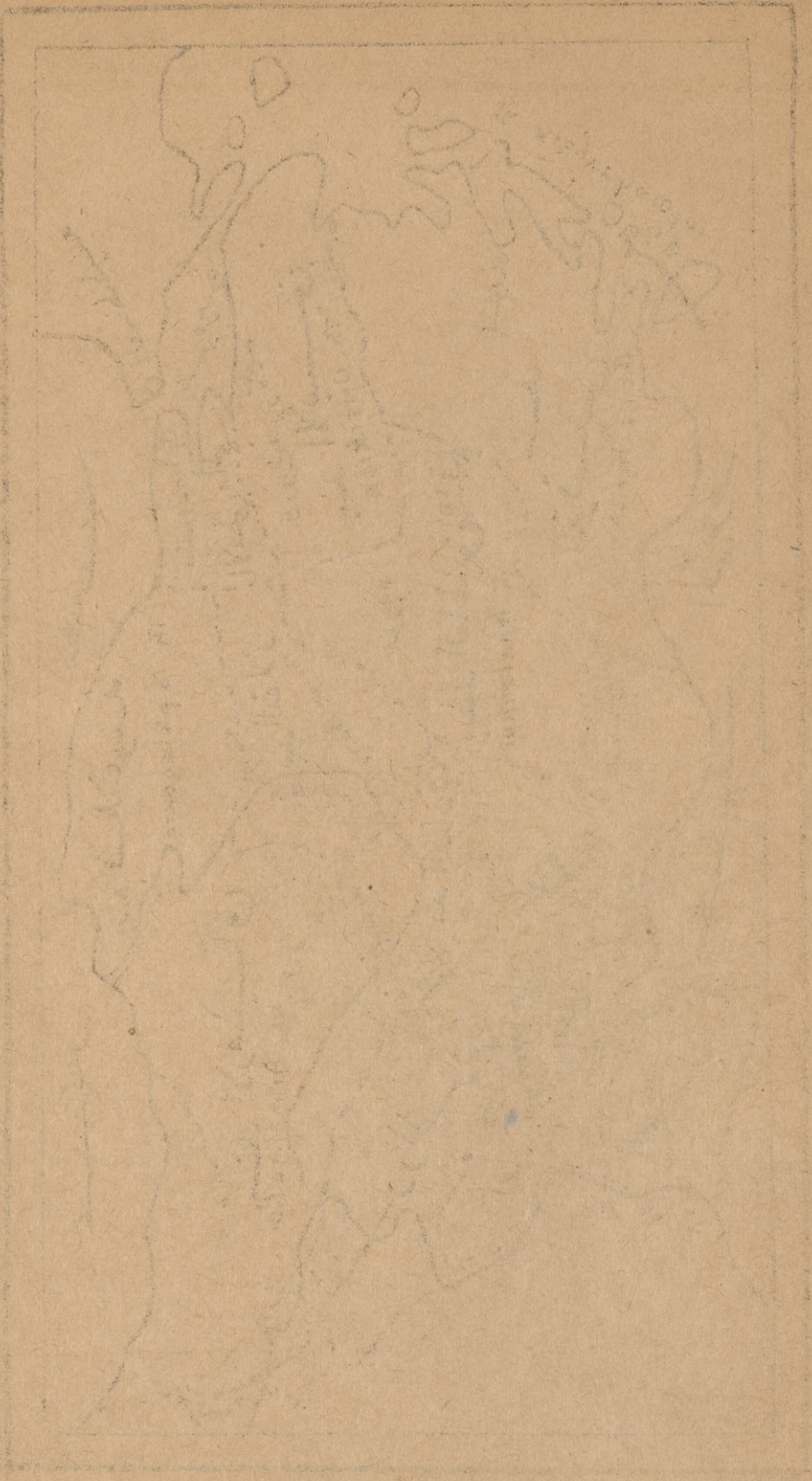
البحر

البحر

البحر

البحر

البحر



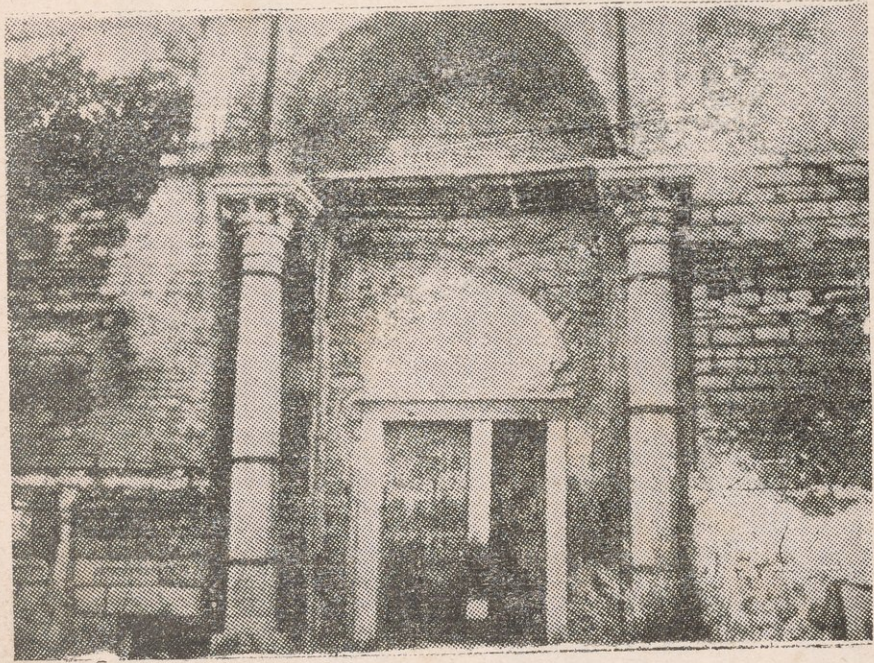
ARTS LIBRARY

1862

AMERICAN LIBRARY

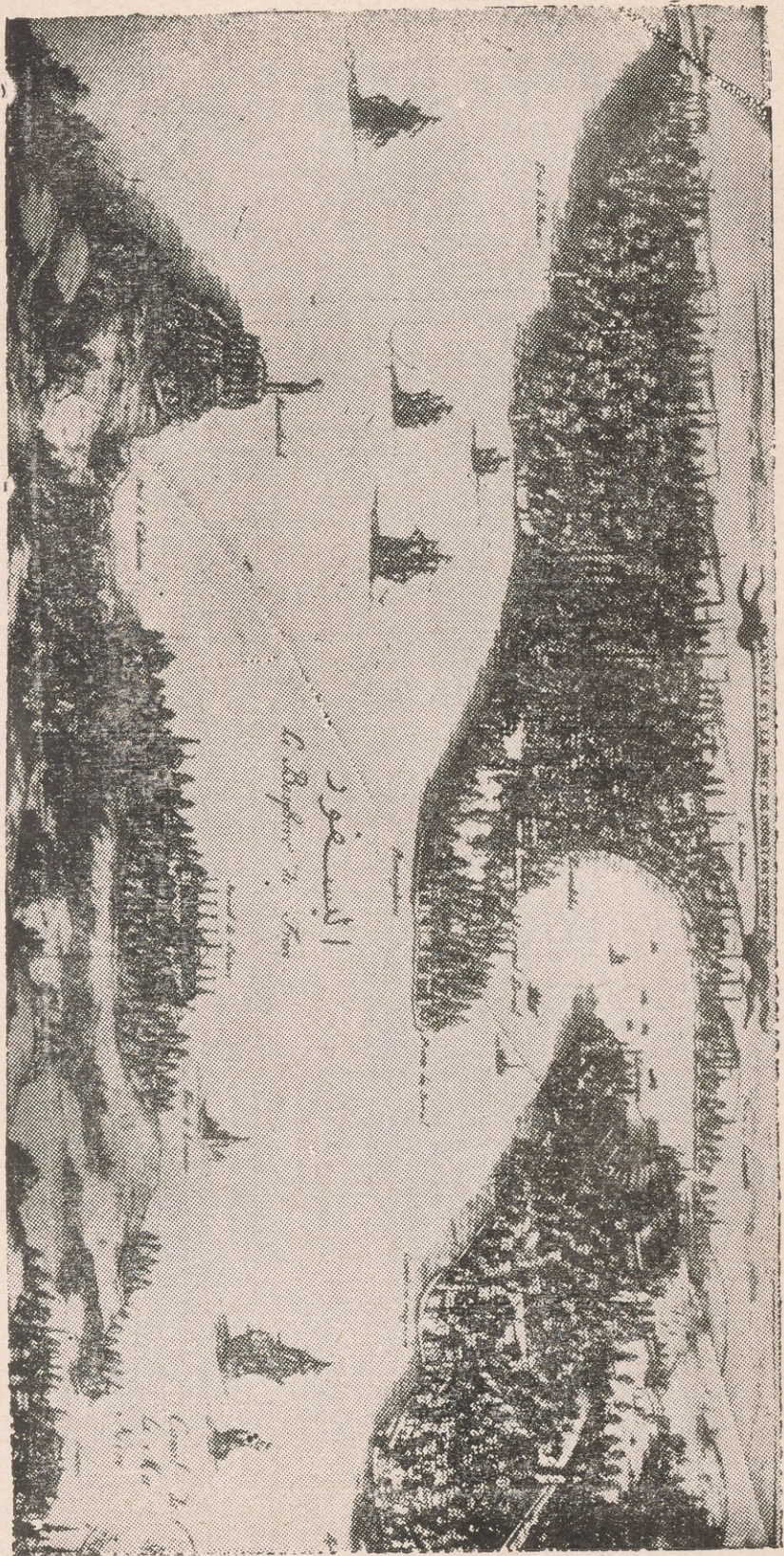


جانب من أسوار القسطنطينية



باب الذهب (أحد أبواب مدينة القسطنطينية)

ANTI-LIBRARY



مدينة القسطنطينية والبيضاء

ARTS LIBRARY

أقاليم القسطنطينية والبناء



ANTI-LIBRARY

Roughly co-inciding with a period of weakness in both Macedonian and Fatimite power, we have the rise of the Seljuqs in the Islamic world and the Northmen in the Byzantine, which led to a turning-point in history, that is, the Crusades, whereby Byzantium and Islam ceased to stand alone as the great powers in the mediaeval world.

With the revival of Western Europe, Byzantium, in particular, loses her pre-eminence as a world power. It is for these reasons that I have considered this a suitable point at which to conclude my political survey.

The last two chapters are meant to show that, in spite of antagonisms, Byzantium and Islam were conscious of the necessity for some sort of *modus vivendi* and for commercial and cultural exchanges. The last chapter, in particular, illustrates these points and emphasises the frequency of the interchange of visits as between the Byzantines and Muslims and the keen interest of the latter in the study of the government and administration of Byzantium. At the end of the chapter I have tried to show the sharp contrast between pronouncements in the religious field by both sides, issued for political purposes and the wide measure of tolerance that, in practice, was allowed. Of this, perhaps, the foundation of the «Ansari Mosque» at Constantinople may be taken as a conclusive example.

EXPLANATORY NOTE

BYZANTIUM AND ISLAM

The object of this essay is to give a general picture of the relations between Islam and Byzantium in the early Middle Ages. In my treatment of the subject I have tried to show how Byzantine policy in the East made possible the rise of Islam, and how Islam gave the Near East a predominant status in world affairs of that age.

In the first chapter I have shown the extent of Byzantine interest in southern and northern Arabia, and how her policy, commercial and political, prepared the way for the growth of the Islamic faith in those regions. The second chapter, consequently, traces the various currents of policy in the Byzantine world. Thus the Persian Wars, the schisms between the Monophysites and Melkites, may be linked as factors favouring Islamic conquest of Syria and Egypt. This phase was followed by a struggle between the Muslims and the Byzantines for the supremacy of the Eastern Mediterranean, which was then the focus of the known world. A crucial point in this struggle was the failure of the Umayyad forces to capture Constantinople.

Thereupon the war took on another aspect, characterised by a series of desultory raids for plunder or revenge. Hence, the third chapter deals with the struggle for balance of power between Byzantium and Islam, and I have tried to show how success or failure in such raids was governed by internal conditions in Byzantine and Islamic territories respectively.

My political survey ends with a sketch of the relations between the Macedonian dynasty and the Islamic States of the Near East, among which latter the Fatimite power was pre-eminent.

BY APPOINTMENT TO HIS MAJESTY THE KING

125863

Director in Charge
British Museum

125863

BYZANTIUM AND ISLAM

by
Dr. Ibrahim A. El-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

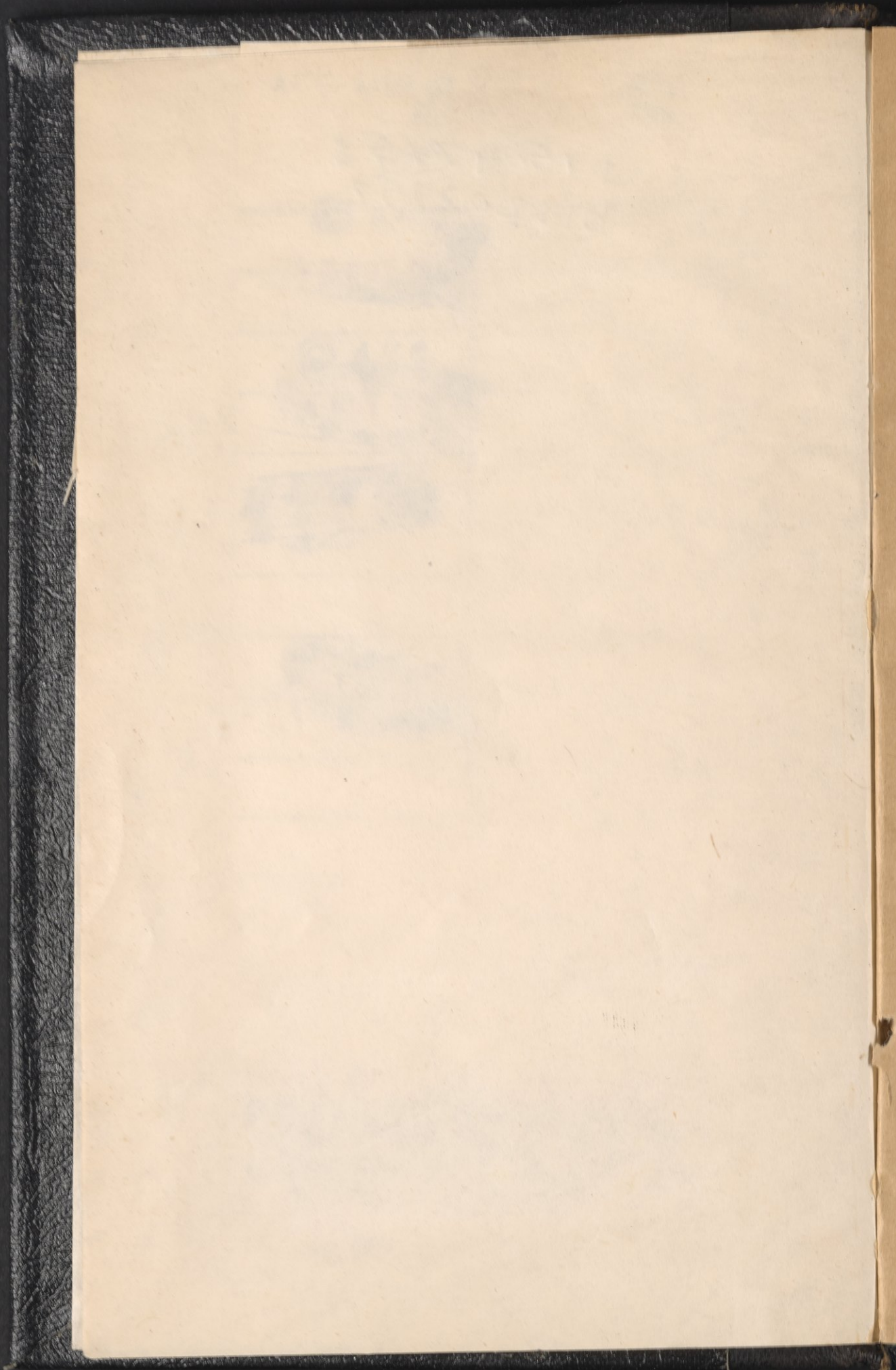
Fouad 1st University



1 0 0 0 0 1 2 5 8 6 3

El-Bayan El-Arabi Press

ARTS LIBRARY



i 15047453
b13203952

ATTI - LIBRARY



26 MAR 1991

main



00000125863

DF 553 A33x 1951/c.1

